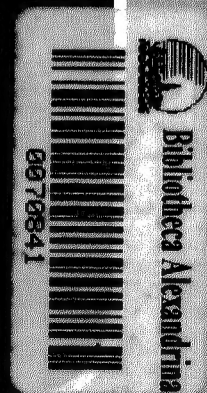


نظريّة الشعر

٢ - كتب مدرسة الديوان

تحرير وتقديم:
محمد كامل الخطيب



قضايا وحوارات النهضة العربية (٢٢)

المختارون :
نزهة الخمر
المختارون :
عبد الزلافة قسيباني

نظريّة الشعر
٢ - كتب مدرسة الديوان

قضايا وحوارات النهضة العربية

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظريّة الشعر

٢ - كتب مدرست الديوان

تحرير وتقديم:
محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

-
- نظرية الشعر : كتب مدرسة الديوان / تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب . -
 - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . - ٣٦٨ ص ؛ ٢٤ سم . -
 - (فضايا وحوارات النهضة العربية ؛ ٢٣) .

المحتوى : الشعر غايته ووسائله / ابراهيم عبد القادر المازني - شعر حافظ /
ابراهيم عبد القادر المازني - الديوان / عباس محمود العقاد ،
ابراهيم عبد القادر المازني .

- ١ - ٨١٠٩٩٦٢ ح ط ي ن ٢ - ٨١١٠٠٩ خ ط ي ن ٣ - العنوان (١)
- ٤ - العنوان (٢) ٥ - العنوان (٣) ٦ - العنوان (٤) ٧ - الخطيب
- ٨ - المازني ٩ - العقاد ١٠ - السلسلة

مكتبة الأسد

تقديم

يحتوي هذا المجلد من سلسلة « قضايا وحوارات النهضة العربية »
والمتعلق بـ « نظرية الشعر » على ثلاثة كتب نظرية هامة في نظرية النقد
العربي عموماً ، ونظرية الشعر خصوصاً هذه الكتب هي :

١ - الشعر : غاياته ووسائله ١٩١٥

ابراهيم عبد القادر المازني

٢ - شعر حافظ - ١٩١٥

ابراهيم عبد القادر المازني - ١٩١٥

٣ - الديوان (١ - ٢) ١٩٢١

عباس محمود العقاد

ابراهيم عبد القادر المازني

ولا بد من كلمة عن كل كتاب من هذه الكتب نقدم بها لهذه
الكتب ونحن بصدد اعادة نشرها .

١ - الشعر : غاياته ووسائله : ١٩١٥

ربما كان كتاب ابراهيم عبد القادر المازني (الشعر : غاياته ووسائله) من أول الكتب النقدية - الشعرية العربية التي تقدم المنهج النقدي الحديث ، أو نظرية الشعر الحديثة في الثقافة العربية ، ففي هذا الكتاب يصبح ، للمرة الأولى ، الشعر والنقد الاوربيان هما المرجع في تحديد مفهوم ونظرية الشعر العربي ، عوضاً عن آراء الشعراء والنقاد والبلاغيين العرب القدماء ، فالمازني يتحدث عن آراء وتحديدات الشعراء والنقاد والفلاسفة الاوروبيين للشعر ، أمثال هازلت وشلي ويبرك وسانت بوف ولوك وشليجل وهيغل ، وحتى بيتهوفن ، الى جانب الجاحظ وابن الرومي وابي نواس وأبي تمام والبحري وعبد القاهر الجرجاني الذي لا يذكر اسمه لكنه يناقش ويرد على نظريته المعروفة في « النظم » ثم ما يلبث المازني أن يأتي برأيه الجديد ، والذي هو رأي مدرسة الديوان عموماً، وخلاصته ان ممكن الشعر انما هو في الحياة اليومية وفي الوجدان والفكر ، وليس في مناهج القدماء وعمودهم ولغتهم ودواوينهم وطرائقهم البائدة في التعبير .

٢ - شعر حافظ : ١٩١٥

إذا كان المازني قدم في « الشعر : غاياته ووسائله » منهجه النقدي ونظريته للشعر ، فإنه في كتابه الثاني الصادر في العام نفسه (١٩١٥)

يقدم تطبيقاً لنظريته ومنهجه النقدي في الكتاب الأول ، وهو يطبق منهجه على شعر ذائع ومشهور آنذاك ، وهو شعر حافظ ابراهيم . بالطبع لم يكن المازني ضد الشعر العربي القديم ، لكنه كان هو ومدرسته « الديوان » ضد الذين يكتبون في العصر الحديث على طريقة الشعراء القدماء ، دون أي ادراك لتغير الزمن ، ولهذا كان طبيعياً أن يتوجه نقد المازني الى حافظ ابراهيم ، وليس الى شاعر عربي قديم ، وبما ان المازني كان يعد نفسه للشعر كذلك، فيمكننا اعتبار كتاب : شعر حافظ « تصفيه حساب » لشاعر يحدث مع شاعر ما يزال يمشي على نمط القدماء ، بكل ما يعنيه ذلك من دلالات اجتماعية وتاريخية وثقافية ، بل وشخصية .

بقي ان نقول ان المازني ولد عام ١٨٨٩ ، وانه بدأ حياته كاتب مقالات وشاعرا ، ثم ما لبث ان تميز بأسلوبه النقدي الساخر ، وبروايته الرائدة « ابراهيم للكاتب ١٩٣٣ » ، وقد ظل طوال حياته مخلصا لقضية الثقافة ، ولم يحاول ان يتوسع في نشاطه الاجتماعي والسياسي شأن زميله العقاد وطه حسين ، وربما لهذا بقيت شهرته دونهما ، على الرغم من انه يساويهما في الأهمية التاريخية والأدبية . توفي المازني عام ١٩٤٩ .

٣ - الديوان : ١٩٢١

كتاب في النقد لأدبي يتم في عشرة أجزاء لمؤلفيه عباس محمود العقاد محرر بجريدة الأهرام و ابراهيم عبد القادر المازني محرر بجريدة الأخبار :

ومع الأسف الشديد فان الديوان لم يصدر منه الا جزءان، وفيهما

صفى كل من العقاد والمازني حسابه النقدي مع النظرية الأدبية السائدة ،
وخصوصاً نظرية الشعر ، وقد تكلمنا كفاية عن المازني وستحدث
فيما تبقى عن عباس محمود العقاد ١٨٨٩ - ١٩٦٦ .

ربما كان العقاد في خط سيره الحياتي والفكري هو المثال الأوضح
لصعود وانتكاسة النهضة والتنوير العربيين ، فمن مجدد وثائر أدبياً
وسياسياً في بدايات حياته ، تحول العقاد الى مثال للرجعية والجمود
والوقوف ضد الجديد منذ الأربعينات ، فهل نستطيع أن نقول ان العقاد
الناظر على شوقي وحافظ والمنفلوطي في عام ١٩٢١ هو نفسه العقاد
الذي وقف في وجه الأفكار التقدمية عموماً ، والشعر خصوصاً ،
منذ الأربعينات ، وحتى الستينات ، أيام أحال شعر صلاح عبد الصبور الى
« لجنة النشر » للاختصاص ؟ أم أن الزمان يدور دورته ويلعب لعبته ؟
ألم يتذكر صلاح عبد الصبور موقف لعقاد من شوقي ، وهو
يرى موقف العقاد من شعره ؟

كان كتاب الديوان ، وخاصة اذا اضفنا اليه كتاب ميخائيل
نعيمه « الغربال ١٩٢٣ » هما البيان التأسيسي الأدبي للمدرسة الأدبية
النقدية في الثقافة العربية الحديثة ، انهما - الكتابان - علامتان فاصلتان
في تاريخ النظرية الأدبية العربية . نستطيع أن نتحدث عن ما قبلهما وما
بعدهما ، وكتاب « الغربال » متداول ومشهور ، أما كتاب « الديوان » فلا
يقل شهرة وان كان اندر في الوجود والتداول ، ولهذا نعيد نشره .

كان العقاد والمازني واعين لما يفعلان في « الديوان » ، فقد دعيا
صراحة في مقدمة كتابهما الى « اقامة حد بين عهدين » ودعيا الى
« مذهب انساني مصري وعربي » ثم طبقا دعوتهما أو نظريتهما الجديدة

على شعر شوقي وحافظ خصوصاً، وخلال ذلك مرا على المنفلوطي والرافعي ، الا أن الغريب في هذا الكتاب هو وجود فصل فيه كتبه المازني للهجوم على ثالث ركن في « مدرسة الديوان » الا وهو « عبد الرحمن شكري » وأعتقد انها كانت سحابة صيف ، ونرفزة مؤقتة من المازني العصبي الحساس تجاه صديق العمر ورفيق الدرب عبد الرحمن شكري .

ماذا لو استمر الديوان ووصل اجزاء العشرة ؟ ماذا لو تابع العقاد والمازني طريقهما ؟ ماذا لو تابع العقاد تجديده ، أم ان هذا محال ! كما هو معروف ، في التاريخ الثقافي كما في التاريخ العام ، ليس هناك مجال لـ « لو » .

أخيراً، هذه هي كتب مدرسة « الديوان » الثلاثة تقدمهما مجتمعة للمرة الاولى، وتتمنى على القارئ الكريم أن يقرأ معها كتاب ميخائيل نعيمة الغربال ١٩٢٣ والذي كتب مقدمته عباس محمود العقاد، كطريقة في اعلان التآزر والانتماء الى فكر مشترك ومدرسة تكاد تكون واحدة، هذا اذا اراد القارئ أن يكون فكرة كاملة عن هذه المرحلة .

نأمل ان نقدم قريباً متابعة تطور نظرية الشعر في الثقافة العربية الحديثة فتقدم مجلدا يتابع « مرحلة ابولو » وهي في حقيقتها سير الى الامام في طريق الديوان ، وربما تكون هي الاجزاء الثمانية التي لم يكتبها العقاد والمازني ، وبعدها نقدم « مرحلة شعر » حيث حدث التطور النوعي في نظرية الشعر العربي الحديث ، بل وفي تاريخ الشعر العربي ونظريته عموماً .

محمد كامل الخطيب

١٩٩٤

كتب مدرست الديوان

- ١ -

الشعر

غياته ووسائطه

بقلم
إبراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الأولى

١٩١٥ - ١٣٣٣

الناشر

محمد يوسف

مطبعة البوسفور بشارع عبد العزيز

الشعر غاياته ووسائله

ثلاثة روضهم باكر
الصب والمجنون والشاعر

ما أظن بك أيها القارئ إلا أنك تقول مع القائلين إن الشعر
أضغاث أحلام ووساوس أطماع ، هبه كذلك ، أليست الحياة نفسها
حلماً تنسج خيوطه الأمانى والأوجال ، وتسرجه الظنون والآمال ؟
أليست هذه الأحلام مسرح خواطرك في سواد الظلام ، وعزمك الذي
تصول به في وضوح النهار ؟ أم تحسب أنك تستطيع أن تخلي العالم من
هؤلاء النفر « الحالمين » كما أنحلا « أفلاطون » جمهوريته منهم ونفاهم
عنها مخافة أن يفسد عليه وصفهم الإنسان « الطبيعي » إنسانه « الحسابي »
الذي خلقه خلواً من العواطف بريئاً من الانفعالات لا يضحك ولا يبكي
ولا يحزن ولا يغضب ولا تغالي به خدع الآمال ولا يهبط به صادق
اليأس إلى آخر ما ألزمه من الشمائل الحلوة والمناقب الجميلة التي أحالتها
تمثالا لا يتمثل إلا في خاطر فيلسوف مثله ؟ ؟ على أن جمهورية
أفلاطون (الفيلسوف) لمّا تنسخ عالم هومر (الحالم) ! !

وهب الشعر أحلاماً ، أهى شيء من اختراع الشاعر يخدع به
العقول ويضلل النعوس ؟ أم نتيجة ما ركب فيه مبدع الكائنات ؟

فلا متقدم له ولا متأخر عن هذه الأحلام إن مسح أنها أحلام ؟ أليس الحب والبغض والخوف والرجاء واليأس والاحتقار والغيرة والندم والإعجاب والرحمة مادة الحياة ؟ فأى غرابة في أن تكون مادة الشعر أيضاً ؟

لصديق من قال (١) : إن الإنسان حيوان شعري وإن لم يلحق قواعد النظم وأصوله ! فالطفل الذي يستمع إلى أساطير العجائز شاعر ، والقروي الذي يرى قوس الغمام فيجعله قيد عيانه شاعر ، والحضري الذي يخرج ليرى موكب الأمير شاعر ، والبخيل الذي يقبض كفه على الدرهم شاعر ، والرجل الذي يتندى على إخوانه ويتسخي على أصحابه شاعر ، وصاحب الملك الذي ينوط آماله بإبتسامة ، والمستوحش الذي ينقش معبوده بالدم والرقيق الذي يعبد سيده ، والظالم الذي يحسب نفسه إلهاً ، والمزهو والطامح والشجاع والجهان والسائل والسلطان والغني والفقير والشاب والشيوخ وسائر من خلق الله ، ما منهم إلا من يعيش في عالم من نسج الخيال وسرج الأوهام ! .

« ليس الشعراء . . . محدثي اللغات ومبتدعي فنون الموسيقى والرقص والحفر والتصوير والتصوير فقط بل هم أيضاً واضعوا الشرائع ومؤسسو المذنيات ومبتكرو فنون الحياة ، وهم الأساتذة الذين يصلون ما بين الجمال والحق وبين عوامل هذا العالم المستتر الذي يدعوه الناس الدين . . . ولقد كان الشعراء في العصور الأولى التي مرت بهذه الدنيا يسمون تارة مشرعين وطوراً أنبياء حسب العصور التي ظهوروا

(١) وليام هزليت من مقدمة نقده شعراء الإنجليز .

فيها والأمم التي نبغوا منها ، صدق الأولون فان الشاعر جامع أبداً بين هذين في نفسه لأنه لا يقتصر على رؤية الحاضر كما هو ولا يجتزئ باستطلاع القوانين والأنظمة التي ينبغي أن تنزل على حكمها أموره (١) ، بل يستشف المستقبل من وراء الحاضر ، فليست خواطره إلا بذرة الزهرة التي يجنيها الزمن الأخير ونوراتها ، وما الشعر إلا موقف الأمم وباعث الشعوب ورسول الانقلابات في الآراء والتقاليد . . . والشعراء هم قساوسة التنزيل الإلهي ورسول الوحي القدسي وشرّاح الحكمة الربانية . . . وهم المرابا التي تتراءى في صفائها أطلال المستقبل الضخمة الكثيفة الملقاة على الحاضر . . . وهم اللفظ الناطق بما لا يفهمون ، المعبر لا يدركون . . . وهم قبل وبعد المشرعون الذين لا يعترف بهم الناس» (٢) .

على أنه من الثابت الذي لا سبيل إلى دفعه أن مرتبة الحيوان كائناً ما كان رهن بحالة جهازه العصبي وأنه كلما ارتقى اكتسب جهازه العصبي منزلة جليلة وصفة خطيرة تبعاً لهذا الرقي ، والجماعات كالأفراد في نشوئها وارتقائها فكلما زادت حياتها تعقيداً (٣) صار للفكر فيها مثل منزلة الجهاز العصبي في الفرد وصار الأدب بمعناه الأوسع ومدلوله الأشمل عنواناً دقيقاً على نشوئها الاجتماعي ، ومن أجل ذلك كانت الحياة الأدبية في الجماعات المستوحشة غضة ضئيلة ،

(١) الضمير في أموره يعود على « الحاضر » .

(٢) شلى من دفاعه البديع عن الشعر .

(٣) من رأى سبنسر وغيره من الفلاسفة المحدثين أن الرقي هو الانتقال من حالة البساطة إلى حالة التركيب والتعقيد راجع مقاله في الرقي .

ولكنها في الشعوب الراقية المتحضرة نامية متفرعة متهدلة الأغصان
مورقة الأفنان .

وإذا كان هذا كذلك وكان الشعر عنواناً على رقي الجماعات
ودليلاً على حيتها وكان مجنى ثمر العقول والألباب ومجتمع فرق
الآداب ، فان حقيقة بنا أن ننظر فيه علنا نهتدي إلى وصف حقيقته
ونقف على وسائله وغايته بيد أني لا أرى للتعريف غناء فيما نتكلف
ولا بلاغاً إلى ما نتطلب ، وعلى أنه إن كان لابد منها فان حقها ولا شك
التأخير لا التقديم ، إذ فيها تتلخص حلود المسائل في أوجز لفظ
وأخصر عبارة ، ولقد نظرت فلم أجد واحداً ممن بحثوا في الشعر جاء
بتعريف فيه للنفس مفتح إذ ليس يكفي في تعريفه مثلاً أن يقال إنه الكلام
الموزون المنقفي فان هذا خليق أن يَدْخُل فيه ما ليس منه ولا قلامة
ظفر ، وإنما نظر القائل إلى الشعر من جهة الوزن وحدها وأغفل ما عداها .

ولا يغني في تعريفه كذلك أن نقول مع (شلجل) إنه مرآة الخواطر
الأبدية الصادقة فان هذا فضلاً عن غموضه الشديد خطأ صريح ليس
فيه شعاع من نور الحق ، وذلك لأن الشعر لا يمكن أن يكون كما زعم
شلجل مرآة الخواطر الأبدية الصادقة وليس هو إلا مرآة الحقائق
العصرية لأن الشاعر لا قَبِلَ له بالخلاص من عصره والفكاك من زمنه
ولا قدره له على النظر إلى أبعد ثما وراء ذلك بكثير ، فحكيمته حكمة
عصره ، وروحه روح عصره ، على أنه ما هو الحق ؟ وكيف يوصف
بأنه أبدي ؟ وما هو مقياسه ؟ ألا ترى أن يقين اليوم قد يصير شك الغد ؟
فأنني للشاعر أن يصل إلى هذه الحقائق الأبدية ؟ إنه لا أبدي فيما نعلم
إلا عواطف الإنسان ، وما يدرينا لعل هذه أيضاً يعتمورها الشك ويأتيها

الريب من هذا الجانب أو ذاك ولكنه لا أبدي إلا هذه . أأست ترى أن أغاني المستوحشين التي يمتدحون فيها الحرب والشر والقساوة والحب والدهاء والخديعة هي غاية العقل عندهم وقصارى ما يبلغهم الحزم والكياسة وإن استكتت منها أسمع المتحضرين لهذا العهد وبرتت إلى الله منها نفوسهم ، ولكنها شعر لاريب فيه ! ولقد كان من عادة العرب أن يتغنوا في شعرهم بذكر أبطالهم ورجالاتهم ولعمري لا شيء أنفع من ذلك ولا أعود ولا أشد ابتعائاً للذهن وإيقاظاً للنفس ودفعاً لها على ورود المكاره واستثارة لنخوتها وحميتها .

وليس الشعر كما وصفه الشيخ الذي زعم الجاحظ أنه ذهب إلى أنه صياغة وضرب من التصوير (١) وكما سماه أرسططاليس (فنا تصويريا) لأن الأصل في الشعر (الإحلال والاقتراح) لا التصوير — إحلال اللفظ محل الصور واقتراح العاطفة أو الخاطر على القارئ — وعلى أنه لو جاز أن نسمي الشعر فنا تصويريا أو ضرباً من التصوير لبقى علينا أن نعرف أي شيء يصور ؟ الحقائق أم المراثيات أم الإحساس ؟

قال بيرك (٢) إن من يتدبر حسنات الشعراء وبراعاتهم يجد أنها لا تستولي على النفس من أجل ما تحدثه في الذهن من الصور بل لأنها توقظ في النفس عاطفة تشبه العاطفة التي ينبهها الشيء الذي هو موضوع الكلام .

نقول وهذا صحيح حتى في الشعر الوصفي الذي هو بطبيعته وغايته

(١) كتاب الحيوان .

(٢) كتاب الجليل والجميل .

ألصق بالتصوير بما عده من فنون الشعر وأبوابه ، وذلك لأن الشاعر لا يصور الشيء كما هو ، ولكن كما يبدو له ، ولا يرسم منه هيكله العريان بل يخلع عليه من حلل الخيال بعد أن يحركه الإحساس ، وأنت قد تعلم أن الحواس هي مصدر عرفاننا ومستقي علمنا بما تتناوله من الأشياء وتفضي إليه من صفاتها وصلاتها وحركاتها وغير ذلك ولكنه من الواضح الذي لا شك فيه أنه إذا لم تكن ثم وسيلة إلى العلم بالأشياء والاطلاع عليها غير الحواس لما أفاد الإنسان إلا قليلاً ، ولما دخل في علمه إلا التزر اليسير ، لأن المعرفة شيء تتعلق به المدارك ويلج في الارتسام بصفحة الذهن ، وهذه اللجاجة أو هذا الشبث الذي يجده كل امرئ بأهداب الخاطر أو إن شئت فقل هذا (الصدى) الذي تتركه المحسوسات هو شرح خاصية الذهن التي نسميها الحفظ — وهي ، عادةً ، يصحبها « صورة عقلية » وهذه الصور قل أن تبلغ من الوضوح والجلاء مبلغ المشحضات التي تبرز لمشهد الحواس ومن ذا الذي ذكر صاحباً له فتمثلت لذهنه صورته كما كانت تتمثل لعينه . ألا إن الأمر على خلاف ذلك فقد أثبتت أبحاث علماء النفس أنه قل من يستطيع أن يستحضر في ذهنه صورة مفصلة غير مجملة ، واضحة غير مبهمة لشيء مألوف كمائدة الإفطار . على أنه ليس يخفي أن قدرة الذهن على إحداث الصور تختلف باختلاف الناس كما ليس يخفي أنه وإن كان الناس في الغالب لا ترسم في أذهانهم إلا صور المراتب إلا أن فيهم أيضاً من هم أقدر بطبعهم على استحضار صور المسموعات والحركات :

على أن حقيقة بنا أن نتبهل هنا قليلاً فما في ذلك من بأس فإن بما هو جدير بالتأمل والنظر فيه بعقب ما ذكرنا أن العقل قد يستغنى في كثير من الأحيان عن « الصور » ويعتاض منها « الرموز » ولعل هذا هو السبب في كثير من خطئه وصوابه أيضاً — وذلك أن الألفاظ ليست في الحقيقة

إلا رموزاً لما تأخذه العين من الأشياء ، وهي حسبنا وفيها كفايتها ليتبين لنا ما نزاول من التفكير ، وحسب القارئ أن يوقظ رأيه لما يدور في ذهنه ليستيقن أن كثيراً من الصور التي ترسم في صفحة ذهنه غامضة في أغلب الأحيان لا نصيب لها من الجلاء . قال بيرك أيضاً « إذا قال أحدنا سأذهب إلى إيطاليا في الصيف المقبل ، فهم السامع من غير أن يكدر ذهنه ، على أنني على يقين جازم من أنه لم ترسم في ذهنه صورة القائل ، يطوي الأرض تارة ويركب البحر أخرى — آنأ على ظهر جواد وآونة في مركبة إلى آخر تفاصيل هذه الرحلة — بل لا أظن السامع قد « تصوّر » إيطاليا — تلك البلاد التي عزم القائل أن يسافر إليها — ولا أحسب الخيال قد رسم له صورة مزارعها السندسية ، وفواكهها الطيبة الشهية ، وحرارة هوائها وانتقاله إلى هذا الجو من جو آخر — وهي صور أشار إليها القائل بلفظ الصيف وجعله رمزاً لها — وهل تظن قوله « المقبل » أحدث صورة ما ؟ » ا ه .

وقال (لوك) في رسالة له عن العقل « إن الطفل في كثير من الأحيان يحمل عنا عدداً وافراً من الألفاظ ذات المعاني العامة مثل الفضيلة والرذيلة والخير والشر قبل أن يعرف ما هذا وما ذاك ، ثم هو يقتاس بنا في حب الواحد ومقت الآخر ، ولو أنك سألت ما الفضيلة لقال هي شيء يحبه أبي أو أمي أو معلمي ، وذلك لأن عقل الطفل من اللين بحيث تستطيع بما تُظهر من الاستياء أو الارتياح لشيء ما ، أن تحمله على الاقتداء بك في بغض هذا الشيء أو حبه » ا ه . على أن الشيخ الكبير كالطفل الصغير . كلاهما إن ذاكرته حديث الفضيلة أو الرذيلة

أو غير ذلك مما يجري مجراهما كالشرف والنباهة والطاعة أدرك المعنى المراد وإن لم ترسم في ذهنه « صورة » لشيء من ذلك .

كل لفظ من هذه الألفاظ كان موضوعاً للدلالة على فعل بعينه ثم انتقل بعد ذلك بكثرة الاستعمال من هذه الخصوصية إلى العمومية حتى تجرد في آخر الأمر صوتاً أو صدى ، وكذلك الشأن في سائر الألفاظ ، فانها لا تلبث بعد طول الاستعمال أن تصبح أصداًءً تدوي في جوانب النفس ونواحي الفؤاد ، فتترك أثرها ولا نجشّم الخيال تصويرها . فان شككت في ذاك فتأمل لفظة « الشيء » هل ترى لها « صورة » في قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

وكم من قتيل لا يُبَاء به دمٌ
ومن غلق رهنًا إذا ضمّه مني

وكم مالى عينيه من (شيء) غيره
إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى (١)

فانّ لها روحاً وخفةً وإيناساً وبهجةً وهي بعد لا تبلغ أن تكون منها صورة - أو في قول أبي الطيب المتنبي :

لو الفلك اللوّار أبغضت سعيه
لعوّقه (شيء) عن الدوران

(١) قوله لا يباء به دم يقول لا يقاد به قاتله وأصل هذا أنه يقال أبأت فلانا بفلان فباء به إذا قتلته به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثاني كفاء للأول ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة حين قتل بجير بن الحرث بن عباد « يؤبشع نمل كليب » (الكامل المبرد) .

فانك تجدها من الضالة والغموض بحيث يعيبك أن تصورها لنفسك
وإن كان لا عسرَ عليك في فهمها ولا عناء .

وقد كان بشار بن برد الذي يقول :

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى

فجئتُ عجيب الظن للعلم موثلاً

يصف الأشياء وما يراها كأحسن ما يصفها المبصرون الذين لم يسلبهم
الله نعمة البصر ، وروى « بيرك » أنه كان بجامعة كمبردج رجل أكمه
يلدرس العلوم الرياضية قال : « كان المستر سوندرسن هذا من صلور
العلماء وفحول الأعلام في الفلسفة وعلم الهيئة وسائر ما لا بد فيه من
الحلق الرياضي ، فلم يرعني شيء كالكائه دروساً في (الضوء)
و (الألوان) فكان يلقنهم علم ما يرون وما لا يرى .

فهذا يدلك دلالة لا يعترضها الشك على صحة ما أردنا أن نبينه
لك من أن الألفاظ ليست إلا رموزاً مجردة تمر بالسمع فيكتفي العقل
منها بلمحة دالة تغنيه عن (الصورة) — إلا أن تريد ذلك فيكون
ما أردت — ولكن فرقاً بين أن تُكره الخيال على التصوير وبين أن
يجيء ذلك منه عفواً لا إكراه فيه ولا إجبار ، على أنه قل أن تستطيع
تصور الشيء على حقيقته وأصله كما أسلفنا .

وما يلبس على الناظر في هذا الباب ويغلطه أنه يستبعد أن يكون
الكلام مفهوماً فهما صحيحاً من غير أن تكون له صور ماثلة في للذهن ،
والحقيقة أنه ليس في ذلك شيء من الغرابة أو البعد ، لأن العادة تدلل
هذه الصعوبة — والعادة أعرق طبائع النفس وهي مصدر قوتها وعلة

خورها وضعفها — ألا ترى كيف أن اللفظ الجديد يكون مدخله على النفس في بادئ الأمر صعباً ثم هو لا يلبث أن تاوكه الألسنة وتتناقله الأفواه ويتداوله الناس حتى يسهل وروده على النفس ويوطأ له حجاب السمع وأعلم « أن مثل واضح الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى يصير قطعة واحدة » يلتهمها العقل جملة ، ولو نحن كلفناه أن يحلل هذه القطعة أو أن يصور كل لفظة ويرسم كل حرف لكان ذلك ضرباً من التعسف وباباً من أبواب العنت ، ولتراخت من جراء ذلك حركة الفهم وأبطأ سير الذهن ، والكلام لا يقبل هذا التقسيم ولا يحتمل هذا التجزىء .

على أنني لا أرى أبلغ في إثبات ذلك وإقامة الحجة عليه من أن ننظر في أنواع الألفاظ ونأملها ونحن نرجو بعد هذا البسط أن تنتسخ آية الشك وتنجلي ظلمة الشبهة ، ولسنا نشير إلى تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، فإن هذا التقسيم إنما يراد به بيان تعلق الكلم بعضها ببعض ، وشرح وجوه تعلقها التي هي معاني النحو وأحكامه ، وإنما نريد تقسيمها حسب معانيها وصفاتها ونشأتها ووضعها ، فأول هذه الأنواع وأوضحها وأشققها عن معناها هذه الألفاظ الجامعة مثل رجل وشجرة وجواد وما إليها ، وكلها ألفاظ موضوعة للدلالة على ما هو واقع تحت الحس ، وثانيها الألفاظ الموضوعة لوصف هذه الأشياء المحسوسة كأحمر وأخضر وكقام وقعد (والأفعال صفات في معانيها) وما إليها ، وهذان النوعان أول ما عرف الإنسان من أنواع الكلم وإن بين ظهرائنا اليوم من الهمج شعوبا ليس في لغاتها غير هذين النوعين (١) ، ولما اتسع

(١) راجع أوتومولر في علم مقارنة اللغات .

الناس في الدنيا اتسعت المعاني كذلك فتشأت طائفة من الألفاظ وضعت للجمع بين النوعين المتقدمين والدلالة على صلاتهما مثل الشرف والفضيلة والحرية وما إلى ذلك .

لا خلاف في أنه يمكن تقسيم الألفاظ إلى غير ذلك من الأقسام ولكن هذا التقسيم طبيعي تاريخي وعلى هذا النحو والنظام أيضاً يتعلم الطفل اللغة ويحفظ ألفاظها وما المرء إلا صورة مصغرة للنوع الإنساني .

هذه الأنواع الثلاثة إذا أنت تدبرتها وجدت الأول منها (رجل وشجرة) رموزاً لصور بسيطة غير مركبة يدركها الذهن على غير كلفة أو مشقة ، فإذا انتقلت إلى ألفاظ النوع الثاني وجدت أنها رموز لأشياء مركبة ، أو هي رموز موضوعة لوصف حالات بعينها لا بد للذهن في تصورهما من جمع شتيت أجزائها ، فأما ألفاظ النوع الثالث فأعوص الجميع وأشدّها إعنائاً للذهن إذا هو تكلف تفصيل مجملها وبسط موجزها ، وما لفظ الشرف إن تأملته إلا عبارة « مختزلة » لو عمدت إلى بسطها وتحليلها لما وجدت مندوحة من ردها إلى النوع الثاني ثم إلى الأول قبل أن تستطيع الكشف عن دقائقها وفتح مقلها ، فانه بما لا شبهة فيه أن أول من قال من الناس « أحب الشرف » إنما كان يعني (أحب الرجل الشريف) .

وتمّ طائفة من الألفاظ كانت في أول أمرها داخلية (بطبيعتها) في عداد ألفاظ النوع الثالث وما زالت إلى اليوم (بصورتها) مثل النهار والليل ، والربيع والشتاء ، والفجر والسحر ، والريح والرعد ، فانك لو سألت أحداً ماذا تعني بالنهار والليل أو الربيع والشتاء لقال لك أعني فصلاً أو جزءاً من الزمن ، وما هو الزمن وأي شيء هو ؟ أهو شيء

مادي ؟ إن هو إلا صفة تجردت اسماً وأصارتها اللغة مادة ، فان أحدنا
إذ يقول طلع الفجر ، أو زحف الليل ، ليعزو إلى الفجر والليل فعلاً
ما أعجزهما عنه وأبرأهما منه .

وما زلنا إلى اليوم نعزو إلى (قوى) الطبيعة صفات (المادة)
ونجسم المجرد حتى يكاد يُحسّ ويُمس وتقع عليه الأيدي وتأخذه
الأيمن ، انظر إلى قول ابن الرومي :

إمامٌ يظلّ (الأمسُ) يعمل نحوه
تلقت ملهوف ويشتاقه (الغدُ)

وقول أبي تمام :

ما لأمري أسر (القضاء) رجاءه
إلا رجاؤك أو عطاؤك فإد

أو قول مسالم بن الوليد :

ذاك الرجاء المستجار بجوده
من نائبات (الدهر) حين تنوب

أو قول البحتري :

تنصّب (البرق) غثالا فقلت له
أوجدت جود بني يزداد لم تزد

أو قول ابن الرومي :

أفضت بي (الأيام) لادرّ درها
إلى ما ترى عيني من الهون والأزل (١)

(١) الأزل : الضيق .

أو قول الآخر :

إن (دهر) يلف شمل بسعدى
(لزمان) يهيم بالإحسان

ولو أردنا أن نستقصي لاحتجنا أن ننقل كل بيت في اللغة ، وإنما نحن أردنا أن نورد لك أمثلة على ما ذهبنا إليه ، وهذا مذهب الشعراء في إسناد الفعل إلى غير فاعله ، بل هو في كل لغة بطبيعة الحال ، وهل اللغة إن تدبرت إلا شعر جفّ فعاد كالأسماك المتحجرة ؟ أو الألفاظ إلا قصائد تاريخية وخواطر شعرية؟ أو تحسب أنه لم يكن قبل « هومر » شاعر ؟ لقد كانت هذه الألفاظ الخامدة المبتدلة في أول ابتدائها وبدء تكوينها متاهة تحرك النفس وتستفز الجنان ، وكان محدثوها شعراء مبتكرين ، وهل الشعر إلا خاطر لا يزال يجيش في الصدر حتى يجد مخرجاً ويصيب متنفساً ؟

ولما كان الكلام مركباً من جميع هذه الأنواع وكان تأثيره ليس رهنا بما يحدثه من الصور وحسب ، بل إن للصوت أيضاً دخلاً في ذلك ، فانه من الخرف والسخافة أن نظن أن العقل يتكلف تحليل كل كلمة تقرر السمع أو تقع عليها العين ، قبل أن يخلص معناها إلى نور البيان ، فان في ذلك من بعد الشقة والتواء المسلك ووعورته ما لا يخفى عن أحد من الناس .

(وبعد) فانك إذا رجعت إلى نفسك عامت علماً لا يعتريه شك أن الألفاظ قاصرة عن العبارة عما في النفس ، والإحاطة بجميع ما يختلج في الصدر ويلور في الذهن من المعاني ، هذا ما لا يجناه عاقل ولا يكاد

يخفي عن أحد ، فان الألفاظ ليست إلا كإشارات الحرس ، تُتَخَيَّلُ فيها أغراضُ صاحبها ، وإذا كان هذا كذلك فكيف يمكن أن تكون منها صورٌ واضحة في الذهن وهي على ما وصفنا من العجز والقصور ؟ وحسبك دليلاً على أن العقل ليكتفي بالإشارة ويجتريء بيسير الإبانة ، أن النظرة قد تقوم مقام اللفظة في نقل المعنى من ذهن إلى ذهن ، وأن التاميح قد يكون أبلغ في العبارة من التصريح ، وأعم أن إحلال الرموز محل الصور أمرٌ لا بد منه ولا محيد عنه ، لا سيما في العاوم بأنواعها من طبيعة وكيمياء ورياضة وغير ذلك ، بل في الشعر والكتابة أيضاً . وتروقي كلمة (لجبرني) في كتابه (قوة الصوت) قال وقد أفضى به البحث إلى ذكر أبيات من الشعر في صفة كوخ :

(قرأت هذا الوصف البديع فتمثلت لذهني صور شتى لهذا الكوخ لا تشبه صورة منها أختها ، ولعلى كنت أكون أقدرَ على تصوّره لو علمت كم عدد نوافذه ، وأين بابه من الجهات الأربع ، وكم عدد الأشجار التي تحف به وما إلى ذلك من التفاصيل التي لا يعني بها الشعراء ، غير أنني مع هذا أقول عن يقين إن هذه الأبيات وقعت من نفسي ، ومن نفوس الناس جميعاً فيما أطن ، موقعاً لا مثيل له ولا نظير .)
وأنت فتأمل أبيات ابن حمديس يصف بركة في قصر عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه :

وضراغم سكنت عشرين رياسة
تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النصارُجسومها
وأذاب في أفواهاها البلّورا

أَسَدٌ كَانَ سَكُونُهَا مَتَحَرِّكُ
فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدْتُ هُنَاكَ مَثِيرَا
وَتَذَكَّرْتُ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا
أَقَعْتُ عَلَى أَدْبَارِهَا لِتُثَوِّرَا
وَتَخَالُهَا وَالشَّمْسُ تُتَجَلَّوْ لُونَهَا
نَارَا وَأَلْسِنُهَا اللَّوَّاحِسُ نَوْرَا
فَكَأَنَّمَا سَلَّتْ سَيُوفُ جَدَاوِلُ
ذَابَتْ بِلا نَارٍ فَعَدَنَ غَدِيرَا
وَكَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لَمَائِهِ
دِرْعَا فَقَدَّرَ سِرْدَهَا تَقْدِيرَا
وَبَدِيعَةُ الثَّمَرَاتِ تَعْبِرُ نَحْوَهَا
عَيْنَايَ بَحْرَ عَجَائِبٍ مَسْجُورَا
قَدْ سَرَّجَتْ أَغْصَانُهَا فَكَأَنَّمَا
قَبِضْتُ يَهْنُ مِنْ الْفَضَاءِ طَيُورَا
وَكَأَنَّمَا تَأْبَى لَوْعِ طَيْرِهَا
أَنْ تَسْتَقْبَلَ بِنَهْضِهَا وَتَطِيرَا
مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تَرَى مَنَاقِرَهَا
مَاءً كَسَالِ الْلَجِينِ نَمِيرَا

خرس تُعدّ من الفصاح فان شديت
 جعلت تغرد بالمياه صفيرا
 وكأنما في كل غصن فضة
 لانيت فأرسل خيطها مجرورا
 وتربك في الصهريج موقع قطرها
 فوق الزبرجد لؤلؤاً مشوراً
 ضحكت محاسنه إليك كأنما
 جعلت لها زهر النجوم زهورا ... الخ

هذه أبيات من عيون الشعر ومحكمه إذا تأملتها جملة أو استقريتها
 واحدا واحدا ونظرت إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف
 والظرف لم تجد لها مع ذلك: صورة واضحة في الذهن، وإنما كان هذا
 كذلك لأنها وإن كانت غاية في دقة الوصف وبراعة السبك ولطف
 التخيل ، إلا أن في كل بيت صورةً مبهمه ؛ فهي مجموعة صور
 بعضها من بعض أدق وألطف ، ثم ألا ترى كيف أن الشاعر لا يزال
 يحوم على الشيء فلا يقع ، ويسفّ فلا يلمس ، حتى إذا عتاه تصويره
 قال لك كأنما هو كذا وكذا لقصور اللغة وعجزها كما أسلفنا لك ،
 وأي لغة تبلغ أن تصور لك الشيء كآلة التصوير الشمسي ؟ ليس بنا إلى
 ذلك حاجة لأن ضيق حظيرة اللغات مدعاة لسعة مجال الخيال ، وقصر
 آلاتها سبب في طول متعة الذهن ولذة الفكر ، ولنضرب لذلك مثلاً
 فاني رأيت سوقَ الأمثال أبلغَ في تصوير المسائل في النفس وتقديرها

عند العقل ، وهي بعد آمنٌ لي ولك من الشك وأصحّ لليقين وأحرى أن
تبلغنا جميعاً قاصية التبيين ، لأنه موضع يدقّ فيه الكلام ، ولا يؤمن
معه الغموض والاستبهام . قال كثّرة عزة :

وأدنيّتي حتى إذا ما سبينني
بدلٍ يحلّ العصم سهل الأباطح
تعافيت عني حين لا لي حيلة
ونخفت ما خلفت بين الجوانح

هذان بيتان ليس فيهما معنى رائع ولا فكر دقيق ، ولكنهما يصفان
حال قائلهما بأبلغ وصف ، ويتغلغلان إلى النفس تغلغل الماء إلى كبد
الملتاح ، وإنما يزجج الفضل في ذلك إلى قوة الخيال ، وشرح ذلك أن
الشاعر لم يتجاوز الإشارة في بيته إلى التبيين والتلميح إلى التصريح ،
فذكر الدلّ ولم يذكر كيف دلها ، وإن يكن مثل لك فعله وتأثيره ،
وقال ونخفت ما خلفت بين الجوانح ولم يقل ماذا خلفت ، فترك
بذلك مضطرباً واسعاً للخيال ليتصوّر لطف دلها وسحره وفتنته ،
وصباية الشاعر وشغفه وحرقة ، وسائر ما ينطوي تحت قوله ونخفت
ما خلفت ، فجاء بيتين كلما زدتهما نظراً وترديداً زاداك جمالا
وحسنا ، ولو أن الشاعر أراد الإحاطة بجميع ما خلفت لكلف
نفسه أمراً شديداً إذا لانت له جوانبه كان استيعابه هذا قيذا للخيال
وحملا ثقيلا يرزح تحته وينوء به ، لأن الشعر يلذّ قارئه إذا كان
للمعاني التي يثيرها في ذهن القارئ في كل ساعة تجليده ، وفي كل

لحظة توليد ، فأما ما يأخذ على الخيال مذهبه ولا يترك له مجالاً فهذا هو الغث الذي لا خيز فيه ، لأنّ حالات النفس درجات ، فإذا أنت صورت أقصى درجاتها لم تبق للخيال من عملٍ إلا أن يسف إلى ماهو أحط وأدنى ، ولذة الخيال في تحليقه ، ومن ههنا قالوا في تعريف الشعر إنه لمحة دالة ورمز لحقائق مستترة ، يعنون بذلك أن الشاعر ليقدف بالكلمة فأنأخذها الأسماع وتعيها النفوس ويستوعب معانيها الخيال .

قال (سنت بيف) من مقال له عن لا مارتين « إذا تحركت عاطفة حادة شاملة نحو مخلوق خيالي ، ألا يكون خيراً من أن نحاول تقريبه بالوصف الدقيق أن نعتمد على قوة الخيال في سد النقص وملء الفراغ وإتمام الصورة على خير مما نستطيع أن نتممها ؟ » وقال في موضع آخر من المقال عينه « إن الشعر خلاصة كل شيء وجوهره ، فحذار أن نغمر هذه القطرة النفيسة في بحر من الماء أو طوفان من الأصباغ والألوان . ليس الأصل في الشعر الاستقصاء في الشرح والإحاطة في التبيين ولكن الأصل فيه أن نترك كل شيء للخيال » . ١ . ه .

وهذا صحيح . أذكر أنني مرة كنت أقرأ قصة (منفرد) (١) في حديقة بيت فيناؤه لجنة غمر وروض أخضر ، وكانت الشمس جانحة لأمغيب ، فلما بلغت مناجاة منفرد لنفسه وفي أولها يقول :

« إنما نحن الأعيب في أيدي الزمن والمخاوف ، تمضي علينا الأيام ثم تمضي بنا ، ولكننا على هذا نعيش — أبغض ما تكون إلينا الحياة ،

(١) قصة منفرد لبيرون .

وأخوف ما نكون نحن من الموت — على رقابنا هذا النير المشنوء ، ههنا
الحمل الحيوي الذي ينوء به الفؤاد المضطرب الذي يغرقه الأسى ويتلفه
الألم أو اللذة التي تنتهي بالألم والخور — في كل أيام الحياة ، ماضيها
ومقبلها ، (إذ ليس للحياة حاضر) ما أقبلها ساعات تكفّ فيها النفس
عن التزوع إلى الموت ، وترانا على هذا نفر منه فرارنا من الغدير الصرد
عن التزوع إلى الموت ، وترانا على هذا نفر منه فرارنا من الغدير الصرد
في الشتاء ! على أنه برد برهة ! ! الخ » .

أقول لما بلغت قوله هذا تضاءلت في عيني مناجاة هملت لنفسه ،
وأحسست كأن الهواء قد آض معاني وإحساسات ليس أحلى منها في
القلب ولا أملاً للصدر ، وكأنّ ما ارتفع من أنفاس الورد ليس ريباً
ونفحته ولكن معناه وصفته ، وكنت كلما قرأت سطراً شعرت بما
يشعر به الواقف على ساحل البحر ، ينظر إلى عبابه الطموح وموجه
الجموح ، ورأيت المعاني تضيء في نفسي ، غامضة ، كما يضيء الفجر ،
والخواطر تزخر في صدري كما يزخر البحر ، وما زلت إلى اليوم كلما
عدت إلى هذه القصيدة جلّت على ألفاظها من المعاني مثلما تجلو أشعة
الشمس المسيطرة في الأفق من مشاهد هذا الوجود ومناظره ، — إن قيمة
الشعر ليست فيما حوت أبيانه ، واشتملت عليه شطراته فقط ، ولكن
قيمه رهنّ أيضاً بما يختلج في نفسك ويقوم في ذهنك عند قراءته ،
فإن الشعر الجيد كالبحر لا يقف عنده الفكر جامداً ، وهو كشعاع النور
يضيء لك ما في نفسك ويجلو عليك ما في ذهنك .

وأنت فإذا استقرت أطوار عقلك زادت هذه المسألة وضوحاً عندك
وجلاء ، فإنّ أحداً ليرى الخاتم أو الشنف أو غيرهما من أصناف الحلّ

فيسمحسنة وهو او راقب نفسه ارأى خياله قد انتزع هذا الخاتم أو ذاك الشنف من مكانه ووضع في حنصر مليح أو قرظ به أذن حسناء بينما يقلبه في كفيه وينظر إليه باديا من قريب ومن بعيد ، لأن الخيال لا يجمد أمام كلمة ترد على السمع أو منظر تكتحل به العين وإنما يتوخي دائماً أن يسد كل نقص ويملا كل فراغ .

ولكن الناس ليسوا جميعاً سواها في قوة التصور وحلة التخيل ، فان بعضهم ليرف « صورا » صريحة حيث لا يبصر غيرهم إلا رموزاً مجردة ، وهذا من أسباب قوة العقل ولكنها قوة قد تنتهي بصاحبها إلى ضعف فان حلة الخيال في مسائل الفلسفة النظرية وأمور الحياة اليومية قد تكون مدعاة لتشرد الذهن وتمزق شمل قواه .

* * *

(وبعد) فان الشعر مجاله العواطف لا العقل ، والإحساس لا الفكر وإنما يعني بالفكر على قدر ارتباطه بالإحساس . ولا غني للشعر عن الفكر ، بل لابد أن يتدفق الجيد الرصين منه بفيض القرائح ، ويتحفى بنتاج العقول وجني الأذهان ، ولكن سبيل الشاعر أن لا يعني بالفكر لذاته ولسداده ووزانته ، بل من أجل الإحساس الذي نبهه أو العاطفة التي أثارته ، فربما كان الفكر أصلا فروع الإحساس وثماره العواطف ، وربما كان فرعاً أصله الإحساس ، فالفكر من أجل الإحساس شعر ، والإحساس شعر ، أما الفكر لذاته ، فذاك هو العلم وعلى هذا أكثر من كتبوا في الشعر من فحول العلماء والشعراء .

خذ مثلاً لذلك بيت ابن الطثرية .

فديتك أعدائي كثير وشقتني

بعميد وأشياعي لديك قليل

قد لا يكون البيت خير ما يُتمَثَلُ به ولكنه حسبنا في الإبانة عما نريد فان ابن الطثرية لم يقصد إلى سرد هذه الأخبار عليك ، ولو أن رجلاً ساقها إليك نثراً ما تحركت لها النفس ولا نزا لها القلب ، وهل هي في ذاتها خارجة عما تدور عليه أكثر الأحاديث إذا انتظمت بالإخوان عقود المجالس ؟ ولكنك ترى البيت برغم ذلك يمتزج بأجزاء نفسك ويتصل بفؤادك لأن الشاعر بثك فيه كمد الباطن وحسرتة الدخيلة ونزع فيه بالآمال فانتقل باحساسه منه إليك وتغلغل من نفسه إلى نفسك.

وكذلك لابد في الشعر من عاطفة يُفَضِّي بها إليك الشاعر ويستريح ، أو يحركها في نفسك ويستثيرها ، وإذا كان هذا هكذا فقد خرج من الشعر كل ما هو (نثري) في تأثيره أو ما كان في جملة وتفصيله عبارة عن (قائمة) ليس فيها عاطفة ولا هو مما يوقظ عواطف القارئ ويحرك نفسه ويستفزها ، مثل شعر الحوادث اليومية الذي ولع به حافظ وأشباهه ممن لا يفهمون الشعر ولا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم ولا يرمون به إلى غير الكسب ومجاعة العامة من القراء والكتاب ومن الأميين أيضاً ؛ ومثل شعر المديح كله الذي اكتظت به داووين شعراء العرب ، ومثل مزدوجة أبي فراس الطردية التي يقول في أولها :

أنعبت يوماً مر لي بالشام

ألمد ما مر من الأيسام

دعوت بالصقار ذات يوم
 عند انتباهي سحراً من نومي
 قلبت له اختر سبعة كباراً
 كل نجيب يرد الغبارا
 يكون للأرنب منها اثنان
 وخمسة تغرد للغزلان
 واجمل كلاب الصيد نوبتين
 يرسل منها اثنان بعد اثنتين -
 ردوا قلائدوا وخلوا فلانا
 وضمنوني صيدكم ضمانا

. إلى آخر هذا الهراء السخيف . فان هذا الكلام ليس من الشعر في شيء
 وإن كان موزوناً مقفى . وإن عد هذا الهذر من الشعر ليشير سخط من
 لا يعرف العرب عليهم وعلى ذوقهم ، وأي فرق بالله بين هذا الكلام وبين
 نافذة أو اثنتان وأنا أنام فيه وأكل وأشرب ؟ إن كان هذا شعراً فذلك
 شعر . وأقسم ما كان للأرنب اثنان ولا أفردت خمسة للغزلان إلا من
 أجل الوزن والقافية . وعلى أن هذه المزدوجة قد خلت من الفكاهة
 أيضاً فهي مرذولة مقبوحة لاجد فيها يطبّي الأهراء ولا هزل تستروح
 به النفوس .

قال سُلجَرُ : « هذه بلديات الشعر : ينبغي أن يكون كل شيء فيه
 جائئاً بالعمل أو العواطف ، ومن هنا كان الشعر الوصفى البحث

مستحيلاً إذا هو اقتصر على الموضوع وخلا من العمل أو العواطف .
قال ، وإنك لا تجد في شعر هومر شيئاً من الوصف إلا كان العمل
محتوياً له « نقول ولا في شعر غيره من الفحول . وقد علّل هيجل ذلك
بقوله : « ليست الأشياء ووجودها مادة الشعر ولكن مادته الصور
والرموز الخيالية » .

لاشك في أن العاطفة في الشعر هي الأصل في هذه المحسنات التي
يُخلعها عليه قائلوه، ومبعث هذا البديع الذي جن به الناس وافتتنوا بيهجته
في الزمن الأخير ، وذلك لأنه لما كان الشاعر لا يسوق لك الشيء من
أجل أنه حقيقة وخشب ، بل كما تراه وتحسه روحه فقد صار لا بد له
من لغة حارة مستعارة يترجم بها عنه ، وقد يستعمل هذه المحسنات
طائفة النظامين والمقلدين ولكنك تراها في كلامهم نافرة مرذولة ثقياة
الورود غلى النفس ممجوجة في السماع من أجل أنها محسنات أتى بها
صاحبها لبريقها وررنقها لا لأنها عالقة بالعاطفة ، وإنما تراهم يستكثرون
من البديع والاستعارات والمجازات في كلامهم ليخفي وميضها قدم
المعاني وقبحها وفسادها ، كما تستكثر العجوز الشمطاء من الحلبي لتخفي
هرمها وما صنع الدهر بها ، وتتعهد نفسها بالطيب لتذهب زتن ريحها
وتدّهن بالأصباغ لتخفي غصون وجهها وصفرتها ودمايتها ، أما الشاعر
المطبوع الذي يؤثر خياله في إحساسه أو إحساسه في خياله فليست به
حاجة إلى الكد والعمل وإنما يجيء ذلك منه عفواً على غير جهد فلا
تكاد تحس أن هنا شيئاً من البديع .

* * *

وإذ قد عرفت ما تقدم فهذه مسألة ركب الناس فيها جهل عظيم ودخل عليهم منها خطأ فاحش وهي هل يمكن أن يكون النثر شعرا ؟ فقد ترى أكثر الناس في هذا البلد المنحوس على أن الوزن ليس ضروريا في الشعر ، وأنَّ من الكلام ما هو شعر وإيس موزوناً . حتى لقد دفعت السخافة والحمق بعضهم إلى معالجة هذا الباب الجديد من الشعر (١) وهم يحسبون أنهم جاؤوا بشيء حسن وابتكروا فنا جديدا ، ولولا إشفائي عن القراء لأوردت لهم أمثلة من ذلك ، والأصل في هذا الخطأ الذي دخل عليهم هو فيما أظن وأعلم أن النظم شيء يستطيعه كل الناس إذا هم عالجوه ، ولكن الشعر ملكة لا يؤتاها إلا القليل ، وإن كثيرا من الكلام المنتور يشبه الشعر في تأثيره : انظر ما يقول سيد كتاب مصر (سابقاً) المولحي في هذا المعنى :

« ويوجد الشعر في المنتور كما يوجد في المنظوم إذا أحدث تأثيرا في النفس ، ومثل ذلك ما تراه في كلام الأعرابي وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبه فقال : (إني لأرى القمر عن جدارها أحسن منه على جدران الناس) وكقول الآخر : (مازلت أريها القمر حتى إذا غاب أرتنيه) ا هـ .

وقد فاته هو وأضرابه أن النثر قد يكون شعريا — أي شبيها بالشعر في تأثيره — ولكنه ليس بشعر ، وإنه قد تغلب عليه الروح الخيالية ولكن يعوزه الجسم الموسيقي ، وإنه كما لا تصوير من غير ألوان ، لا شعر إلا بالوزن . وليس من ينكر أن الشعر فنّ ، فان صح هذا فما هي

(١) انظر كتاب الروح الحائر .

آلاته وأدواته ؟ وهل النثر فن آخر أم الاثنان فن واحد ؟ ليس لهذه الأسئلة إلا جواب واحد . قال هـجل : « الوزن أول ما يستوجب الشعر . ولعاه ألزم مما عداه » ١٥ .

وتعليل ذلك فيما نعلم أن كل عاطفة تستولي على النفس وتندفق تدفقاً مستوياً لا تزال تتلمس لغة مستوية مثاتها في تدفقها ، فاما وفث إليها واطمأنت ، وإلا أحسّت بحاجة ونقص قد يعوقان تدفقها الطبيعي ، وربما دفعهما إلى مجرى غير طبيعي فيضرب ذلك بالجسم والنفس جميعاً ، كالحامل لا تزال تتمخض حتى تلد ، وهذا هو السبب فيما يجده الشاعر من الروح والخفة بعد أن ينظم إحساسه شعراً ، ولم تزل العواطف العميقة الطويلة الأجل - منذ كان الإنسان - تبغي لها مخرجاً وتتطلب لغة موزونة ، وكلما كان الإحساس أعمق كان الوزن أظهر وأوضح وأوقع ، ولكنه لا بد لذلك من أن يجمع الإحساس بين العمق وطول البقاء فان بادرة الغضب على حلتها ليس لها علاقة طبيعية بالوزن ولا بالموسيقى .

إذا فالوزن ضروري في الشعر وليس هو بالشيء المصطلح عليه ولكنه جوهري لا بد منه وإن شئت فقل هو جثمان الشعر ، وليس يكفي أن تدعوه ثوباً يخلعه الشاعر عن معانيه فتشير بذلك إلى أنه شيء منفصل عن الشعر ، لأن الإنسان لم يخترع الوزن - لا ولا القافية - ولكنهما نشأاً منه ، ولا شعر إلا بهما أو بالوزن على الأقل . قال بيتوفن « النغم حياة الشعر . (الحسية) ألا ترى كيف أن ما تحتويه القصيدة من معاني الروح يصير شعوراً حسيّاً بالنغم ؟ » ١٥ .

فليس الشعر كما يقول وردزورث تقيض النثر... كلا ! كذلك
ليس الحيوان تقيض النبات ، ولكن بينهما على ذلك فرقاً عضوياً لا
سبيل إلى إغفاله ، وليس النظم مرادفاً للشعر ولكن الوزن على هذا
جثمانه لا بد منه ولا غني عنه ، وقد يكون النثر شعرياً جائشاً بالعواطف
ونكته ليس شعراً ، ولا بد من تفهم ذلك فان فيه الحد بين الشعر وبين
غيره من فنون الكلام .

* * *

ننتقل الآن إلى الكلام عن واسطة الشعر وأن لبرسه الجمال وهي
مسألة كثيراً ما يغفلها الكتاب والنقاد والشعراء أيضاً لسوء الحظ :
قال جان بول رنخر :

« إن عالم الفنون يجب أن يكون أسنى العوالم وأبهاها - حيث يحور
كل ألم إلى لذة مضاعفة ، وحيث نشبه الواقف على قمة شامخ من الجبال
تنفجر العاصفة على العالم تحته ولا يصيبه منها إلا نسيم برود . . . فكل
قصيدة غير شعرية إذا كان ختامها غير موسيقى . . » ا هـ .

ولعمري إنه عالم آخر يتراءى فيه عالمنا ولا يراق في معاركه من
الدماء إلا مثل ما يريقه الإله المجروح من دمه المعسول ، وأظهر ما
يكون ذلك ، في الموسيقى « الصارخة كالإله الموجد » - كما يقول
كينتس - حيث تبرى الألحان التي تحير السموع في الجفون لا تزال
تلطف منها روح الجمال السائدة عليها ، وإن في ذهن كل شاعر
للحن يخفف من ألم خواطره ، وأظهر ما يكون الشاعر ، في هذا اللحن ،
وليس تعبه قيود الوزن ولا تبرح به أغلال القافية - فانه لا يشقى بالوزن -
لا ولا بالقافية - إلا العقل الأسير المكبول ..

وإذا كان امتياز الشعر بالتأثير فليس لشاعر على شاعر فضل في مذهبتنا إلا بسهولة مدخل كلامه (١) على النفس وسرعة استيلائه على هواها ونيله الحظ الأوفر من ميلها ، وإنما يلائم الشاعر بين أطراف كلامه ، ويساوق بين أغراضه ، ويبني بعضها على بعض ، ويجعل هذا بسبب من ذاك لتكون عبارته أفعال باللب ، وأملك للسمع والقلب ، وأبلغ في التأثير . والشاعر في ذلك كصانع الديباج ، يوشيه بمختلف التصاوير « ومناسبتها » ليكون أملاً للعين ، وأوقع في النفس ، وأعلق بالقلب ، وليست المزية كما يتوهم من لا يتدبرون الكلام ، في أن هذا أكثر تألقاً من ذاك ، وأحسن تحبيراً ، بل المزية في أن أحدهما أقدر على إيلاج المعنى ذهن القارئ - وذلك هو الأصل في جميع فنون الكتابة .

قد يكون عمق الفكرة مانعاً من فهمها ، ولكن الغموض على أية حال عيب في الشاعر أو الكاتب ، لأن الكلام يجب أن يُتخير من اللفظ ما كان التي في النفس ، وإذا كان كذلك وجب أن يُتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الأفهام أو يمتنع بتعويض معناه عن التبيين فمما كان أقرب في تصوير المعاني وأظهر في كشفها الفهم ، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد وأشد تحقيقاً في الإيضاح عن الطلب وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع في نظمته ، كان أولى وأحق بأن يكون « مؤثراً » ، وليس معنى هذا أن « التأثير » لا يتأني إلا ببراعة اللفظ ورشاقة العبارة ، فقد يكون الكلام حسناً « مؤثراً »

(١) المراد سهولة مدخل الكلام - لا سهولة الألفاظ . . .

ويتفق له ذلك من غير رشاقة ولا نصارة ، وإنما الألفاظ أوعية المعاني فأحسنها أشقها وأشرقها دلالة على ما فيها .

فقد تبلغ بالعبارة العارية العاطلة مالا تبلغه بالكلام المفوف ، بل قد يكون التأنق إذا أسرف فيه الشاعر أو الكاتب أو جهل مواضعه ، وأخطأ موقعه ، أو تكلف له على غير حاجة إليه ، حائلاً بينه وبين ما يريد من نفس القارىء ، ألا ترى كيف جني (أبو تمام) على نفسه بحبه لتطريز الكلام ، ومبالغته في تدييجه ، وإسرافه في استعمال الخشن النافر من الألفاظ ، وإكثاره من الاستعارات والتكلف لها اغتراراً بما سبق من مثل ذلك في كلام القدماء ، حتى كثر في شعره الرث الفاسد ، والغامض الذي ينبو عنه الفهم ، وحتى صار أصبر الناس لا يقوى على إتمام قصيدة من شعره من غير تحامل على نفسه ، وإرهاق لذهنه . وحتى جاء شعره غير مستو ، لكثرة اعتسافه ومزجه الغرر بالعرر ، والمأنوس بالوحشي الكدر . انظر إلى قوله يصف قصيدة له :

لها بين أبواب الملووك مزامر

من الذكر لم تنفخ ولا هي ترمز

فجعل كما ترى للقصائد مزامر إلا أنها لا تنفخ ولا ترمز ، ثم تأمل قوله وما أحسنه والطفه :

أيامنا مصقولة أطرافها

بك والليالي كلها أسحار

فقد تراه يخلط الحسن بالقبيح والجيد بالردىء والحلو بالمر ، وذلك لا ريب نتيجة التكلف ، ولو أنه أطلق نفسه على سجيته ما اختلف

شعره هذا الاختلاف ولا عظم الفرق بين جديده ورديته ، وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقة في أشعار القلماء وإن كانت لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة — فاحتذاها وأحب الإبداع في إيراد أمثالها فاحتطب واستكثر منها . . وقد وقع في هذا العيب كثير من كتاب العرب وشعرائهم .

على أنني لست أنكر أن الاستعارات المصيبة وما يجري مجراها من أنواع البديع قد تبرز المعنى في أحسن معرض ، مثل قوله (هن لباس لكم وأنتم لباس هن) فإن ذلك أدل على اللصوق وشدة المماسه ، ومثل قول الشاعر :

(رأيت يد المعروف بعدك شلت)

ومثل قول البحتوى في وصف البركة :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها

وريق الغيث أحياناً يياكيها

وقول أبي تمام :

« فقد سحبت فيها السحاب ذيولها »

وهو كثير في كلام العرب وشعرهم وخطبهم وأمثالهم وليس بنا إلى استقصاء ذلك حاجة ، ولكن للجمال العاطل أيضاً روعة وجلالا ونضرة وملاحة ، وموقعاً حسناً ، ومستمعا طيبا ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه ، وتأثير العبارة لا يكون بحسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وجمال وصفها ، فإن ذلك وحده — على شدة الحاجة إليه — غير كاف ، بل لابد للشاعر كما أسلفنا أن

نكون نواحي نفسه جائشة بما يحاول أن ينسجه من خيوط الألفاظ ،
ولهذا كان المديح ثقيلاً على النفس مجوجاً في الأذن إلا في الندرة
القليلة والفتاة المفردة ، فليست فضيلة التأثير براجعة إلى ارتباط الكلم
بعضها ببعض ، وتنتج ما بينها ، ولا إلى خصائص يصادفها القارئ
في سياق اللفظ ، وبدائع تروعه من مبادئ الكلام ومقاطعته ، ومجاري
الفقر ومواقعها ، وفي مضرب الأمثال ومساق الأخبار ، ولا إلى أنك
لا تجد كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة يُنكر شأنها ، بل فضيلة التأثير
راجعة أيضاً وفي الغالب إلى شعور جم وإحساس قوي بما يجري في
الخطر ويجيش في الصدر وإلى القدرة على إبراز ذلك في أحسن حلاه .
انظر إلى أبيات البحري في وصف الإيوان إيوان كسرى :

حضرت رحلى الموم فوجهت
(م) إلى أينض المدائن عنسى
أتسلى عن الخطوب وآسى
لمحل من آل ساسان درس
ذكرتهمُ الخطوب التوالي
ولقبت تذكّر الخطوب وتنسى
وهمُ خافضون في ظل عال
مشرف يحسر العيون ويعسى
جلل ليم تكن لأطلال سعدي
في قفار من الباس ملس
ومساع لولا المحاباة منى
ليم تطقها مسعا عنسى وعبس .

تقبل الدهر عهدهم عن الجلدة ،
 (م) حتى غدون أنضاء لبس
 فكأن الجرماز من عدم الأنس
 (م). وإخلاقه بنينة رمس
 لو تراه علمت أنه الليالي
 جعلت فيه مأتماً بعد عرس
 وهو يُنيك عن عجائب قوم
 لا يشاب البيان فيهم بلبس
 فاذا ما رأيت صورة إنطما
 كيبة ارتعت بين روم وفرس
 والمنايا مائل وأنوشروان
 (م) يزجي الصفوف تحت الدرس
 في اخضرار من اللباس على أصفر
 (م) يختال في صيغة ورس
 وعيراك الرجال بين يديه
 في خفوت منهم وإغماض جرس
 من مشيح يهوى بعامل رمح
 ومليح من السنان بترس
 تصف العين أنهم جد أحياء
 لهم بينهم إشارة خرس

يغتملي فيهمُ ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس
قد سقاني ولم يصرد أبو الغوث
(م) على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هي نجم
أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتراها إذا أجدت سرورا
وارتياحا للشارب المتحسى
أفرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبوبة إلى كل نفس
وتوهمت أن كسرى أبرويز
(م) معاطى والبلهيد أنسى
حلم مطبق على الشك عيني
أم أمان غيـرن ظننى وحـدى
وكلأن الإيوان من عجب الصنعة
(م) جوب في جنب أروعن جلس
يتظننى من الكتابة أن يبلو
(م) لهينسي مصبح أو ممسى
مزعجاً بالفراق عن أنس ألف
عز أو مرهقاً بتطبيق عرس

عكست حفظه الليالي وبات
المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يلدي تجلدا وعليه
كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن بزّ من بسط الديباج
واستل من ستور الشمس
شمخر تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لا بسات من البياض فما تبصر
(م) منها إلا فلائل برس
ليس يلدي أصنع إنس لجن
سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أني أراه يشهد أن لم
يك بانيه في الملوك ينكس
فكأنني أرى المراتب والقو
م إذا ما بلغت آخر حسي
وكان الوفود ضاحين حسي
من وقوف خلف الزحام ونحس
وكان القينان وسط المقاصير
(م) يرجعون بين حو ولعس

وكان اللقاء أول من أمس
 (م) ووشك الفراق أول أمس
 وكان الذي يريد اتباعاً
 طامع في حقوقهم صبح خمس
 سمرت للسرور دهرافصارت
 للتعزّي رياءهم والتأسي
 فلها أن أعينها بلموع
 مواقف على الصباية حبس
 ذاك عندي وليست الدار داري
 باقتراب منها ولا الجنس جنسي
 نيمر نعمي لأهلها عند أهلي
 غرسوا من ذكائها خير غرس
 أبدوا ملكتنا وشدوا قواه
 بكفالة تحت السنور حسن
 وأغانوا على كتائب "أريا
 ط بطن على النحور : ودعن
 وأرائني من بعد أكلف بالأشراف
 طمنا من كل سنبل وأسس
 ألت تحسن وأنت تقرأها كأنك شاهد الإيوان وحاضر أمره في
 حالتي نعيمه وبؤسه ؟ وهل كان هذا كذلك لأن الشاعر طابق بين
 المأتم والعرس ، والبيان واللبس والمصباح والمسي ، والجن والآس ،

واللقاء والفراق وجعل المشتري كوكب نحس وقديما كان يطلق
بالسعد ، ومزج لك الشك باليقين ، وجمع بين المؤتلف والمختلف ،
وقدم وأخر ، وعرف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وبكر ؟ ؟
كلا ! فإن في شعره ما هو أحفل من هذه الأبيات بأنواع البديع ولا
يبلغ مع هذا مبلغها في التغلغل إلى النفس والولوج إلى القلب ، بل الفضيلة
كل الفضيلة في أن الشاعر كان ملآن الجوانح ، مفعم القلب من إحساس
مستغرق آخذ بكليتيه ولهذا ترى روحه مراقبة على كل بيت ، وأنفاسه
مرتفعة من كل لفظ ، وهل الشعر إلا مرآة القلب ، وإلا مظهر من
مظاهر النفس ، وإلا صورة ما ارتسم على لوح الصدر وانتش في
صحيفة الذهن ، وإلا مثال ما ظهر لعالم الحس وبرز لمشهد الشاعر ؟
نعم إن الاحساس الجيم والشعور الملح لا يكفيان ، بل لا بد من قوة
التأدية وعلو اللسان للترجمة عنهما ، ولكنك إن عولت على ملاحظة
الديباجة وجمال الأسلوب وحسن السبك لم تعد أن تكون صنعا خادقا
بصيرا بصرف الكلام ، متصرفا في رقيقه وجزله ، مجودا في مرسله
ومسجعه يتخرج عليك طالبة الكتابة وينسج على منوالك روام الاثشاء
نسجهم على منوال الجاحظ والصابي . . ألا ترى ما في كلامهما من
الفتور — فتور الصنعة لا الطبع ؟ فتور القدرة لا العبقرية — على اختلاف
بينهما في الأساليب ، وتباين في مذاهب الكتابة ؟ ؟ أترى الجملة من
كلام أحدهما تستفزك كما تحركك الكلمة من خطب الإمام علي ؟
كلا ! إنما كان هذا كذلك لأن الجاحظ والصابي وإن تباينت مذاهبهما
كتاب صنعة ، والإمام علي لم تكن به حاجة إلى الصنعة ، لمجئته في
شباب اللغة ، والأسنة طليقة ، واللهجة بطبعها أنيقة ، والترسل وتطريز
الكلام على نيجو ما ترى في كلام المتأخرين ليسا معروفين ، هذا إلى أن

أيامه كانت حافلة بما يحرك الخاطر ويبسط اللسان ، فأما الجاحظ مثلاً فقط كان من أدباء العلماء ولهذا ترى في كلامه فتور العلم ، والعلم ليس من شأنه أن يستثير العواطف أو يهيج الاحساس ، وسبيل الجاحظ إذا قال أن يمط الكلام مطاً ويطيل مسافة ما بين أوله وآخره ، وهذا أيضاً من دواعي الفتور وبواعث الضعف ، وإن أردت دليلاً آخر على أن أشد الكلام تأثيراً ما خرج من القلب فليس أقطع من أن تأثير الشعر أبلغ من تأثير النثر وأن النسيب والرائع وما يجري مجراهما من فنون الشعر أبلغ تأثيراً من المدح والحكم وأملك لأعنة القلوب :

تأمل قوله المجنون :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى

بليلي العامرية أو يراح

قطاة غرّها شرك فبات

تعمّالجه وقد علق الجناح

إلى آخر الأبيات ، وقول جليلة بنت مرة ترثي زوجها كلياً حين قتله أخوها جساس :

يا قتيلاً قوّض الدهر به

سقف بيتي جميعاً من عل

هدم البيت الذي استحدثته

وسعى في هدم بيتي الأول

مسنى فهد كلياً بلظى

من ورائي ولظى مستقبلي

يس من يبكي ليومين كمن
إنما يبكي ليوم ينجلي
درك النائر شافيه وفي
درك ثاري ثكل المثل

إلى آخر ما قالت . ثم انظر إلى قول الشماخ في المدح :

رأيت عرابة الأوسى سمو
إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمن

أو قول زهير :

وإن جنتهم ألفت حول بيوتهم
مجانس قد يشقى بأحلامها الجهل
على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين الساحة والبلد

وقل أي هذه الأبيات أشجى وأشد إثارة للنفس وتحريكا للقلب ؟
أبيات زهير وال شماخ وهي من أحسن الشعر وأجوده وأرصنه ؟ أم
شعر جليلاء وليست من طبقتهم ولا لها دقة معانيهما وشرف أساويهما
وجودة حبكهما ؟ أم أبيات المجنون المستوحش في جنبات الحي منفردا
عاريا لا يلبس الثوب إلا خرقة ، ويهذى ويخطط في الأرض ويلعب
بالتراب والحجارة وينفر من الناس ويأنس بالوحش ؟ ؟ أليس لبيتيه

نُوطَةٌ فِي الْقَلْبِ وَعُلُوقٌ بِالنَّفْسِ لَا تَجْدُهُمَا فِي أَبْيَاتِ الشِّمَاحِ وَزَهِيرِ
وَهُمَا مِنْ فَحْوَلَةِ الشُّعْرَاءِ الْمَعْدُودِينَ وَزَعْمَاءِ الْقَوْلِ الْمُتَقَدِّمِينَ ؟

ولكنه ليس يكفي المرء أن يكون صائب الفكر صحيح النظر ،
ولا أن يجعل صدره رائداً لقلمه ، وقلبه صورةً للسانه ، بل لا بد له إذا
ملك أعناق المعاني أن يحسن تسخير الألفاظ لها ، فانه كما لا تكون الفضة
أو الذهب خاتماً أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحليّ بأنفسهما ،
ولكن بما يحدث فيهما من الصورة ، كذلك لا تخلص المعاني من أكدار
الشبهات ولا يتم استيلاؤها على هوى النفوس ، إلاّ بما يحدث فيها من
النظم ، وإذا كان لا معنى إلا باللفظ ، فما أحرأه أن يكون مشرقاً محكم
الأداء ، والشعر بعد فنّ ، ولا بد في كل فنّ من الإحسان والتجويد ،
ولإّ بار على أهله وأنت فبأي شيء تفضّل قول أبي تمام :

أَخُو عَزَمَاتٍ فَعَلَهُ فَعْلٌ مُحْسِنٌ
إِلَيْنَا وَلَكِنْ عَنَدَهُ عِلْمٌ مَذْنِبٌ

على قول المتنبي :

يُعْطِيكَ مَبْتَدِئاً فَانْ أَعْجَلْتَهُ
أَعْطَاكَ مَعْتَدِئاً كَمَنْ قَدْ أَجْرَمَا
أو قول البحتري :

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أَدَلَّ بِهَا
كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ
على قول أبي تمام :

لَنْ كَانَ ذَنْبِي أَنْ أَحْسَنَ مُطْلَبِي
أَسَاءَ فَقِي سَوْءَ الْقَضَاءِ لِي الْعَنْدَرُ

أو قول أبي تمام :

وإذا المجدُ كان عوني على السر
ء تقاضيته بترك التقاضي

على قول المتنبي :

إذكارُ مثلك تركُ إذكاري له
إذ لا تريد لما أريد مترجماً

نقول بأي شيء تفضل البيت على أخيه وهما في المعنى سواء إن لم
يكن باحكام السبك والبراءة من وصمات التعقيد والقلق والضعف ؟ ؟

قد يكون الرجل غمرَ القريحة صادق النظر « لو حلَّ خاطره في
مقعد لعدا » ثم تراه يعجز عن إبراز هذه الخواطر التي تتدفق بها
بديته ، وتهضب بها قريحته ، في أحسن حلاها ، بل ربما أفرغها
في قالب تتعاوره الركائز ، وينجاذبه التعقيد ، فلا يكون من ورائه
محصول ، على أنه لا ريب في أن فن إبراز المعاني رهن أيضاً بصحة
النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة ، ولكنه أيضاً فوق هذا وذاك ،
وليس يستطيعه إلا من أعدته له طبيعته ، وهيات له أسبابه فطرته ، فهو على
أنه فن ، يحتاج إلى مواهب وملكات ، كالتصوير والموسيقى ، وليس
ثم شك في أن كل متعلم يستطيع الكتابه — كما لا شك في أن كل من درس
أصول الرسم وقواعد التصوير لا يعجز عنهما — ولكن الإجابة
والإحسان في كل من ذلك ، ملكة لا تحصل بالدرس ولا تنهياً
بالمعاناة والطلب ، لأن القدرة على استشفاف الصلات بين الأشياء
وإدراكها ليست في كل حال مقرونة بالقدرة على اختيار أفضل

« الرموز » اللفظية لإبراز هذه الصلات وتوضيحها ، هذه قدرة الكاتب ،
وتلك قدرة المفكر .

قال « دي كوينسي » — للأسلوب عملان : إيضاح المعنى المستغلق
على الأذهان ، وإحياء قوة المعنى وتأثيره بإيقاظ الذهن له — نقول ولا بدّ
لذلك من حافظة قوية بعيدة النسيان ينتقي منها الكاتبُ أو الشاعرُ خير
« الرموز » وأكفلها بأحداث الصور المطلوبة في ذهن القارئ ، وذوق
سليم يحور إليه المرء في اختيار هذه « الرموز » ، ليكون حسنُ الاختيار
واتساق النظام معينين للذهن على قبول ما يُراد نقله إليه . ولتعلم أن
قدرة الذهن على استظهار الألفاظ — كقدرته على إدراك الحقائق ووعيتها —
ليست إلاّ مصدرأً واحداً من مصادر القوة العقلية ، إذا لم يؤازرها
الذوقُ السليم والسليقة صارت قوةً تنتهي بصاحبها إلى ضعف . فعلى
قدر نصيب المرء من سلامة الذوق ولطف السليقة يكون انتفاعه بالمحفوظ ،
فقد يستطيع قليلُ المحفوظ — بما رزق من الذوق ووهب من ملكة
الاختيار — أن يفرغ خواطره في قوالب منتقاة ملئت بجمالاً وقوةً ،
يُعبرُ القوي الذاكرة مكاناً ندّها ، كما يستطيع نزرُ العالم — بما
منح من حدة الفؤاد وصفاء الذهن — أن يستخلص لك من الصلات
الخفية الدقيقة ما يعمى عنه أولو البسطة وذووا العرفان الشامل المحيط .
وإنّ من الخطأ الفاحش أن يظن المرء أن الألفاظ — وهي أدوات الكتابة
وآلاتها — هي كل ما يحتاجه ليكون منه كاتب أو شاعر ، كما أنه من
أفحش الغلط أن يحسب حاسباً أن الأصباغ والألوان — وهي مادة
التصوير ووسائله — حسب المرء ليكون مصوراً ، فالمحفوظ الكثير من
من أسباب قوة الكاتب أو الشاعر ، ولكنه قد يكون أيضاً من بواعث

ضعفه وتخلّقه ، ولقد صدق بعضهم إذ قال : إنّ الناس يستعملون كثيراً من الصفات والنعوت والمترادفات لعلّ بعضها يصيب إذا طاش أكثرها ، هذا دأب السباعي (١) ووكدّه ، وهو من أكبر أسباب ضعفه وفقره وفيما يجد قرآؤه من الثقل والملال ، ولكن المطبوع يعلم ماذا يأخذ وماذا يطرح ، وإنما يتسرب الضعف إلى الكتابة من ناحيتين : التساهل في العبارة وقلة العناية والتدقيق في استعمال الألفاظ ، والمباغة في التحير والتزويق .

فاذا صح ما نذهب إليه من الرأي استوجب ذلك أن لا تكون لغة الشاعر كلغة الناس ، بل لغة تصلح لهذه الأفواه السماوية التي تخرج منها وتندّ عنها ، ولا يتهيأ ذلك بالمجاز والاستعارة وما إلى ذلك فقط ؛ بل باغفال كل لفظ وضيع مضحك ، ونعني باللفظ الوضع ما تحوم حوله ذِكْرٌ وضيعٌ ، فان كل لفظ لو تفتنت مبعث طائفة من الذكر بعضها وضيع وبعضها جليل ، ولا مسموح للشاعر عن التنبه إلى ذلك ، وإلا أساء إلى نفسه وإلى جلاله خواطره وإحساساته وخيالاته ، وكثيراً ما يسيء الشعراء من هذه الناحية عن قصد وعن غير قصد فيتخلطون الغث بالسمين ويطوون المضحك في ثيايا الجليل — أترى لو كان كافور نبياً أتعباً به شيئاً أو يكون له قدر في نفسك وجلال في صدرك بعد هجاء المتنبي له ، وسخريته به ، والتهكم عليه ؟ فإذا شبه أحد الشعراء ملكاً به على سبيل المدح فماذا يكون قولك ؟ ألا تستخف التشبيه وتظن الشاعر

(١) لقد قتل السباعي نفسه بالترجمة وعدم الاعتماد على نفسه في كتاباته ثم بمبالغته في التظاهر بكثرة محفّوظه ، فضعف ذهنه وعجز عن التفكير لأنه لم يتعوده . وفقرت كتابته لفرط عنايته بتزويقها وإن أضر ذلك بالمعنى فصار لا هو كاتب ولا هو مترجم .

قصده إلى الهجاء لا المدح ؟ وما يقال في الأعلام يقال في غيرها من الأسماء والصفات الخ . لأنّ لكل لفظ تاريخاً وقد ينحط اللفظ في زمن من الأزمان أو يرقى حسب ظروفه ، شأن كل شيء في هذه الدنيا التي لا يبقى فيها شيء على حال .

* * *

قد نبغ الشعراء من كل أمة كائنة ما كانت ، وظهروا في كل شعب ، كل على قدر مبلغة من الرقي الفكري أفلا يستشف المرء من ذلك شيئاً ؟ وهل ليس للشعر غاية إلا ما يعزونها إليه من إدخال اللذة على القلوب والسلوان على النفوس . أم هل صحيح ما يزعمون من أن الفنون تنشأ من آميال الإنسان الطبيعية وتملأ فراغ الرجل المستوحش والمتهمدين المترف سواء بسواء ، إن هذا الرأي الذي لا يخرج إلا من رأس منطقي جاف يسفل بالشعر إلى مترلة الأ لا عيب ويا سوءها مترلة ، ولكن هذا المنطق مكذوب لحسن الحظ . وذلك أن السرور واللذة الحاصلين من الشعر إحدى غاياته ولا ريب لأنه إذا لم تحدث المتعة فقد ضاع فعله وصار كأنه لم يكن ، ولكنها ليست الغاية القصوى وإنما نتج هذا الغلط من الجهل وعجز الذهن عن التفكير الصحيح . ألا ترى أن المرء يأكل ولا ترى مع هذا أحداً يقول إن اللذة المستفادة من الطعام هي غاية الحاجة إليه . بل الناس جميعاً يعلمون أن الغاية من الطعام الصحة والقوة والقدرة على استخدام قوى الجسم ، فكأنما أرادت الطبيعة أن تجعل من اللذة المكتسبة من الطعام شاحداً لشهوته حتى يتم لها ما تريد منه ويستيسر ما قصدت إليه .

إن من يتدبر تاريخ الشعر لا يسعه إلا التفتن إلى عنصر مكون له في كل دور من أدواره وصفة غالبية عليه في كل طور من أطواره وهي ما اسميه « الفكرة الدينية » فإن كل شاعر في كل عصر نبيه وطفله معاً . ومهمه تكن أغانيه مصبوغة بألوان عواطفه وإحساساته وخيالاته فإنه لا يزال لها هذه الغاية : السمو بقومه إلى درجة من الفكر أعلى ومستوى من التصور أرقى : قال سكوت : « إن آلهة الشعر يقيدن في ما يوحين تاريخ المستوحشين وشرائعهم ودياناتهم ولذلك لا تكاد تجد شعباً مهما بلغ من استبحاشه وعنجنيته لا يصغي إلى أغاني شعرائه وما تضمنت من أخبار آبائه وأجداده وشرائعهم ومبادئهم وأخلاقهم ومدح آلهتهم وليس في الأرض من ينكر فعل الشعر وتأثيره الأخلاقي ولكن هذا التأثير إذا حللته صار ماذا ؟ أليس هو « الفكرة الدينية ؟ » ولسنا نعني بالفكرة الدينية هذه الأديان التي جاء بها محمد وعيسى وموسى وغيرهم وإنما نعني أن كل « فكرة » عليها مسحة من الصبغة الدينية التي هي قاعدة كل حقيقة تدفع إلى تدبر اللا نهاية تدبراً جديداً أو إلى مظاهر جديدة في صلاتنا الاجتماعية ، فالحرية والمساواة والأخوة (وتلك شعار القرن المنصرم) ليست قوانين في شريعة العصر ولكنها لما كانت غايتها النهوض بغرض اجتماعي فلسنا نرى ما يمنع من أن نسميها دينية . وليحذر القارئ من تضيق الخناق على مدلول ألفاظنا ولا يتعجل في تطبيقها إذ لا ريب أن الشاعر لا يسوق لك هذه « الفكرة » عريانة الهيكل وقد لا يحسها أو يدر كها .، ذلك سبيل الفيلسوف . وعلى أنا وإن كنا نستعمل لفظة « الفكر » بأوسع معانيها العامة وكنا نعني بها روح العصر جملة إلا أنه لا تخفي عنا عناصرها المتضادة التي تتألف

منها ولا يغيب عنا أنه قد لا تحتوي القصيدة إلاّ بعض هذه العناصر ولكن ندع شرح ذلك وتبينه لما نحن موردوه عليك بعد .

ليس أظهر في تاريخ الشعر ولا ألفت للنظر من علاقته بالدين ولقد كان عماد الشعر القديم وقوامه الأناشيد الدينية والأساطير المقدسة والآمال الحارة ، قال الدكتور أو لريكي في كلامه عن شاكسبير : « الأصل في الشعر وفي الدين واحد - وفي هذا دلالة على أنه إلهي وأنه إلهام ثان ا ه ا » وأنهما لكانا في جوهرهما أيضاً وليس جنوح الشعر في عصور المدنية عن وظيفته المقدسة إلاّ في الظاهر لأن غاية الدين وغاية الشعر كائنا ولا تزالان واحدة ، وغاية الدين فيما نعلم ليست العقيدة النظرية بل النتيجة العملية أي السمو بالناس إلى منزلة لا تبلّغهم إياها غرائزهم الساذجة وعواطفهم الطليقة ، وتلك لعمري غاية الشعر أيضاً ولكن من طريق الجمال . فالفرق بينهما ليس في الغاية ولكن في الوسيلة لأن الشعر يظهر الروح من طريق العواطف والإحساسات لا بالصوم والصلاة وغيرها من مراسم العبادة . وقد يستعين الدين بالعواطف ولكنه أبداً يستعين بالعقل ويخاطبه أكثر مما يخاطب العواطف .

وغاية الشعر أن يُدخل في متناول الحس العواطف والمدرّكات وكلّ ماله وجودٌ في العقل ، وأن يوقظ الحواس الخاملة والمشاعر الراكدة ، وأن يملأ القلب ويشعر النفس كلّ ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكلّ ماله قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وأن يدرّب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق ، وأن يمثل ذلك للإحساس ويحضّره للذهن ، وأن يكشف لنا عن وجوه الألم والحزن

والخطأ والإثم ، وأن يعين القلب على تعرف الهول والفرع والسرور واللذة ، وأن يخفق بالوهم على جناح الخيال ويفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وأن يسدّ النقص في تجارب المرء ، وأن يشير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشد تحريكا له وتجعله أشد استعدادا لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالإنسان حاجة إلى التجريب الشخصي لتتحرك فيه هذه العواطف ، بل حسب «ظاهر» التجريب الذي يهيئه له الشعر ، وإنما يستطيع الشعر أن يقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما يمثل للمرء ، لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأي قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الإرادة . ومن أجل ذلك كان سواءً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل صفات هذه الحقيقة ، فإن في طاقة الإنسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتى يعود وكأن له جسما يحس ويلمس ، فسيان عند الإنسان أن يؤثر فيه شيء نفسه أو مثاله لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن على كل حال وسواء أكان الشيء حاضراً أم مائلاً في الخيال بصورته فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفرح والحب والإجلال والعجب والشرف والشهرة ، فكأن هذه الرموز الشعرية اللسان المترجم (كما يقول هوريس) عن الحقائق .

قال هجل : « حتى الدموع على الأحزان أعوان ، وحتى رموزها فيها للشجّي سلوان . لأن الإنسان إذا كظه الحزن تلمس مظهرها لذلك الألم الباطن ، ولكن العبارة عن هذه الإحساسات بالألفاظ والصور والألحان أوقع في القلب وألطف في النفس وأروح للمصدر ، ولقد فطن

القدماء إلى نفع ذلك. فكانوا يقيمون المآثم فيتأمل الحزن مظهره ويرى الحزين غيره ينطق بلسان كمدية ويحمله كثرة ما يسمع وترديد ذكر ما يفجع على التفكير فيه ، فيروح عنه ذلك ويمسح أعشار قلبه بيد السلوان ولذلك كان غزارة الدمع ووفرة النطق خبير وسيلة لاطراح أعباء الهموم عن عاتق الشجى والترفيه عن القلب المثقل بالأوجاع .

ولا يجهان أحد فيحسب أن الدين والفلسفة والشعر شيء واحد ، فانها على اتصال ما بينها وإحكام رابطتها ، لكل منها مظاهر خاصة ، جميعاً على اختلاف مظاهرها ومناهجها تمثل « وجوه الفكرة » في كل عصر . قال ريتير : « لو كان للدين دقة العلم لما عاد ديناً ولصار فلسفة . الأصل في الدين الوحي والإلهام لا التدقيق والتقرير أما الفلسفة فانها تستقي عقائدها من موارد العقل المحاذر الخ » وقال كوزان : « كل عصر من عصور المدنية تغلب عليه (فكرة) حيوية عميقة غامضة ولكنها أبداً تحاول أن تتكشف للناس في مظاهر حياتهم وفي قوانينهم وآدابهم وديانهم . وتلك هي وسائلها المترجمة عنها » وقال جوفروي في الفرق بين الشعر والفلسفة : « الشاعر يترجم في الأغاني عن عواطف العصر وإحساسه بالخير والجمال والحق ، وهو يعبر عما يجيش بصدور الجماعة من الخواطر الغامضة ولكنه لا يستطيع أن يوضحها لأنه أحس منهم ولكنه ليس أقدر على تفهمها ، وما يتفهم هذه الخواطر الغامضة إلا الفلاسفة ، ولو أن الشاعر استطاع أن يقف عليها ويكشف عنها لصار فيلسوفاً لا شاعراً » .

وبعد ، فان كان رأينا غير صحيح وليس ثمت « فكرة » ينطق بها الشاعر ويترجم عنها ، ولم يكن الشعر إلا عبارة عن الإحساس من

أجل أنه إحساس ، فما تأويل أن كل للعصور لا تنتج الشعراء على السواء ؟
ولماذا يظهر الشعراء في عصر من العصور ثم ينام بأمثالهم الزمن قرونا ؟
لا أرى (الصدفة) تكفي في شرح ذلك وتعليله ، لأنّ الذي يقرب
تاريخ الأمم لا يسعه إلا نبذ هذا الرأي إذ كان الشعراء لا ينبغيون في
عصور الترف والخمول والسلام السمين بل في عصور النزاع والقلق
والاضطراب — تأمل أئتنا بلاد الفلق والاضطراب وإيطاليا أيام دانتى
وبرارك حين كان يتنازعها الأحزاب وتفت في عضدها الحروب —
وانجاعة في عهد اليزابث وجيمس وبعد الثورة وبعد الثورة الفرنسية
والعرب في جاهليتهم وفي عصور النزاع والاضطراب التي تلت الإسلام.
وفي غير هذه فانك حيثما قابت طرفك لأبد واجد مصداق قولنا وإنما
كان هذا هكذا لأن كل ثورة أو انقلاب إيلدان بمولد فكرة أو مذهب
يحسه الناس جميعاً فينشأ الشعراء ليعبروا عن هذه الفكرة أو المذهب
وليشرحوا للناس آمالهم في الحياة وفي المستقبل ولكن الشاعر كما أسلفنا
القول لا يعطيك من هذه (الفكرة) جثمانها العريان ولعاه لا يفهم هذه
الفكرة كل الفهم ولا يحسها كل الإحساس ولا يتناول إلا وجوها منها:
ومن هنا نشأت الحاجة إلى أكثر من شاعر واحد ليتم إيضاح الفكرة
من جميع جهاتها وعلى كل وجوها . وهذا أيضاً هو السر في كثرة
المقلدين الذين يتعقبون آثار الشاعر لأنهم يجلدون خواطرهم وإحساساتهم
مترجمة لهم في كلامه فيشايعونه ويجرون وراءه رافعين أصواتهم
بمثل ندائه وشبه آماله ومخاوفه .

* * *

- ٢ -

شعر حافظ

وهي مقالات عدة في هذه

نشر بعضها في « عكاظ »

قلم

ابراهيم عبد القادر المازني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٣٣٣ - ١٩١٥



مطبعة البوسفور شارع عبدالعزيز بمصر

مقدمة

كتبنا هذا النقد منذ عام ونشرناه تباعاً في عكاظ ولم يكن الباعث لنا عليه كما حسب بعضهم ضغينة نحملها الرجل أو عداوة بيننا وبينه ، وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صهبة ، ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر . أر نراحمه على الشهرة لأن ما بيننا من تباين المذهب واختلاف المترع لا يدع مجالاً لذلك ولكني لسوء الحظ أحد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدعو إلى الاقلاع عن التقليد والتكتيب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا أو نصالح له . أقول لسوء الحظ لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسر اليوم في الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة اذا مضوا عليها أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد وألفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي لما كانت بي حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى تبرئة نفسي ودفع ما يرمونني به ولكنني أنشر النقد على ثقة من حسن ظن القراء بى وبخلوص نيتي وبزراعة سريري مما تصفه الأوهام ويصوره الجهل . ولكننا لسوء الحظ مضطرون أن نثبت حسن القصد في

كل ما ننقد كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا ودافعه الضغائن والأحقاد. ومن سوء حظ الناقد في مصر انه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم أو يعول على صحة رأيهم وليساعني القراء في ذلك فقد رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد : من ذلك أنني كنت اذا قلت ان حافظاً اخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « لم يخطئ حافظ وانما اتبع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز أن يكون الا صحيحاً مبرراً من كل عيب. الى غير ذلك مما يري المرء بالأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول .

واذا فرضنا ان العرب أصابوا في كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتدي مثالمهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على أسلوبهم يشفع لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا ، إذا فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم الى العقل في الأولى ولا نستقصيه في الثانية ؟

لا ننكر ما للدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة وما للخبرة ببراعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ولكنه لا يخفي عنا ان ذاك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى اليها الأديب والغرض الذي يعالجه الشاعر والأصل في الكتابة بوجه عام .

على انه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مسأخ للشك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبالغهم من طريق الحكاية والتقليد فان الفقير

لا يغنى بالاقتراض من الموسرين ولست أقصد الى نبذ الكتاب والشعراء
الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فان ذلك سخف وجهل ولكني أقول
انه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التي
لا ينبغي لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال - كالصدق
والانخلاص في العبارة عن الرأي أو الأحساس - وهذا وحده كفيل
بالقضاء على فكرة التقليد .

وبعد فانه لا يسع من ورد شرعة الأدب ، وعلم انه يحتاج الى
مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتياال في حكاية السلف
والضرب على قلبهم والاقتباس بهم فيما ساكوه من مناهجهم ، ومن
تبسط في شعر الأولين لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتاً كبيوت العنكبوت ،
ولكن ليستضيء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة
وأسرارها ومعانيها ، وليهتدي بنجوم العبقريّة في ظلمة الحياة وحلوة
العيش ، وليتعقب بنظره شعاعها المتغلغلة الى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم
به حالم - أقول لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله الا أن ينظر الى حال
الأدب العصري نظرة في طيها الأسف والخيبة واليأس وكأنما شئت
الأقدار أن يذيب أحداً نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التي هي
آمال الانسانية ومخاوفها ويستوري من رفات آلامه شهاباً يضئ للناس
وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أحداً حثاناً يؤازره ويعينه على الكشف
عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن احساسات خياله التي ربما التبتت
على القاريء لفرط حدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستترت في
مثاني الكلام .

أليس أحداً بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر

« يا ضيعة العمر ! أقصّ على الناس حديث النفس وأبشهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فبقواون ما أجود لفظه أو أسخفه كأني الى اللفظ قصدت ! وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريحهم أو تأملوها نفوسهم بادية في صقالها فلا ينظرون الا الى زخرفها. وإطارها وهل هو مفضض أم مذهب وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن وأفضى اليهم بما يعري أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون او قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان نذك ! ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطآنه وكثرة صخوره يا ضيعة العمر ! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا اليه ؟ وبأي معنى رائع جئتم . وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والأغراض النبيلة ؟ فنقول قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والأغراض النبيلة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ولا تألون أنتم جهداً في الغوص عليها وفتح أغلقها والتكلف لها . وقد لا نكون أحسن في صوغ القريض ورياضة القوافي ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلاً على فساد مذهبنا وعقمه اذا صح اننا خبنا فيما تكلفناه وهو مالا نظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع لا أكثر من ذلك . وعلى فرض ذلك كله فان لنا فضل الصدق . وعليكم عار الكذب ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعاً وحسبنا ذلك فخراً لنا وخزياً لكم .

ليس أقطع في الدلالة على انكم لا تفهمون الشعر ولا تعرفون غايته وأغراضه من قولكم ان فلاناً ليس في شعره معان رائعة شريفة لأن الشاعر المنطوبع لا يعنت ذهنه ولا يكد خاطره في التنقيب على معنى لأن هذا

تكلف لا ضرورة له . أو ايس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جارية أم دقيقة ، شريفة أم وخيعة ؟ وهل الشعر الا صورة للحياة ؟ وهل كل مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخمى الشاعر في شعره الا كل جليل من المعاني ورفيع من الأغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ؟ أليس شرف المعنى وجلالته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل ، ألا أن مزية المعاني وحسنها ليسا في ما زعمتم من الشرف فان هذا سخرى كما اظهرنا في مامر ولكن في صحة الصلاة أو الحقيقة التي أراد الشاعر أن يجلوها عليك في البيت مفرداً أو في القصيدة جملة ، وقد يتاح له الأعراب عن هذه الحقيقة في بيت أو بيتين وقد لا يتأتى له ذلك في قصيدة طويلة وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة جملة بيتاً بيتاً كما هي العادة فان ما في الأبيات من المعاني اذا تدبرتها واحداً واحداً ليس الا دريعة للكشف عن العرض الذي اليه قصد الشاعر وشرحاً له وتبييناً .

وأنتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تأتوننا به الحين بعد الحين وأي مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل اذا خلوتكم إلى شياطينكم تحملون من أنفسكم أن صرتم أصدقاء تردد ما تكتبه الصحف ؟ وهل كل فخركم انكم تمدحون هذا وترثون ذلك ؟ وأنتم لا تفرحون بحياة الواحد ولا تألمون موت الآخر ؟ ما أضيع حياتكم ؟

ليس أدل على سوء حال الأدب عندنا من هذا النشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل وأكبرها ولقد كتب نقادة العرب في الشعر على قدر ما وصل اليه علمهم وفهمهم ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يتخذ

دليلاً على ادراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر أن كتاب الغرب متخالفون في ذلك ولكن تعالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح أذهانهم ودقة تنقيهم وشدة رغبتهم في الوصول الى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح اليها الفكر كما ان اجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وانهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً ان لم يكن دليلاً على ما هو أشين من ذلك واعيب .

غير أن هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحاً رقعة الأمل ويطيلاً عنان الرجاء لأن القلق دليل الحياة والشك آية الفطنة وما يبرينا لعلنا في غد نجني من رياض هذا القلق أزهير السكينة والطمأنينة ؟

الملازني

* * *

شكري وحافظ

قد اثرتنا ان ننشر النقد كما هو ولم نر ضرورة للتبديل فيه لأن
ناينا لم يتغير ولكننا قدنا عليه اشياء خطرت لنا فيما بعد .

(١)

لا نجد أبلغ في اظهار فضل شكري والدلالة عليه ، وبيان ما للمذهب
الجديد على القديم من المزية والحسن ، من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل
شكري ، وآخر ممن ينظمون بالصنعة مثل حافظ بك ابراهيم ، فان الله
لم يخلق اثنين هما أشد تناقضاً في المذهب وتبايناً في المنزع ، من هذين
والضد كما قيل يظهر حسنه الضد ،

حافظ رجل نشأ أول ما نشأ بين السيف والمدفع ، ومن أجل ذلك
ترى في شعره شيئاً من خشونة الجندي وانتظام حر كاته واجتهاده وضعف
خياله وعجزه عن الابتكار والاختراع والتفنن ، ولعل هذا هو السبب
أيضاً في أن حافظاً لا يقول الشعر الا فيما يُسأل القول فيه من الأغراض
بيد أنه على ما به من ضيق في المضطرب ، وتخلف في الخيال ، كان
أفصح لسان تنطق به الصحف وأقلر الناس على نظم معانيها ، وتنصيد
أخبارها ، وتنسيق فقرها لو أن هذا مما يحمد عليه الشاعر أو أن في هذا
فخراً لأحد شاعراً كان أو غير شاعر .

أما شكري فشاعر لا يصعد طرفه إلى أرفع من امال النفس البشرية

ولا يصوبه إلى أعمق من قابها - ذلك دأبه وو كده - وهو لا يبالغ
 كحافظ في تحبير شعره وتديبجه بل حسبه من الوشي والتطريز أن
 يسمعك صوت تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يفضي اليك بنحوى
 القنوب والضمائر ، وأن يريك عيون الندى على خدود الزهر ، واقترار
 ضوء القمر على مكفهر القبور ، ووميض الانسامات في ظلام الصدور ،
 وأن ينشقلك نسيم الرياح وأنفاس السحر ، وأن يشعرك هزة الحنين
 ودفعة اليأس والأمل . وأن يغوص بك في لجج الفكر ليكشف لك

(عن) معان يود لو صاغها المرء

وحلي بها وجوه البيان

لن تراها بالرأي حتى تراها

بنفؤاد موفق يقظان

طالما نالها آخر الصمت والصم

ت كريمة البيان جسم الأمان

يتناول أبسط معاني الطبيعة والعقل وأشدّها ارتباطاً بالحياة وتصالاً
 بالنفس ثم يصوغ لك منها شعراً نقي المستشف ، كثير الماء ، جم لمحاسن

يحدث النفس بأمير الهوى

ويسأل الأرواح رجوع السؤال

وعلى الجملة فان شعره وحي الطبيعة ورسالة النفس

وليس شعر شكري ببدعة في هذا العصر ، ولكنه نتيجة طبيعية
 لامتداد الشعراء في المنهج القديم ، ولجأجتهم في احتذاء المثال العتيق ،

والضرب على قالب المتقدمين من شعراء العرب : ولو لم يكن شكري
لنبيغ من غيره هذا الشعر الذي نقرأه له اليوم .

وكذلك يختلف أسلوبه الكتابي عن أسلوب حافظ كما تختلف
أغراضهما الشعرية ومناهجهما في استفتاح أغلاق المعاني ، وذلك أن
حافظا شديد العمل ، مفرط التكاف ، كثير التأني وشكري يسحّ بالشعر
سحاً لا يسهر عليه جفاً ، ولا يكدر فيه خاطراً ، ولا يتعهد كلامه
بتهديب أو تنقيح ، وحافظ يكسو المعاني المطروقة الاسمال البالية ،
وشكري لا يبالي أي ثوب لبس بمعانيه مادامت هذه صحيحة لا يقوم
بينها وبين النفوس حجار ، وبعد فان حافظاً اذا قيس الى شكري لكالمبركة
الآجنة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارئ أن يتأمل
ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد ويعرف كيف يقعد الخيال بحافظ
ويسمو بشكري في سماء الفكر ، وكيف يجني التقليد على الرجل
ويغاق في وجهه أبواب التصرف والتفنن ، فان حافظاً قد حدا في شعره
حلو العرب وقلدهم في أغراضهم وفرط عنايتهم بصلاح اللفظ وان
فسد المعنى . وشكري قد صدع هذه القيود وفكها عن نفسه ، لعلمه
ان المقلد لا يبلغ شأو المبتكر وانك مهما قلدت العرب فلن تأتي بخير
مما جاؤا به ، ولأن له من سلامة الذوق وصدق النظر ما يريه غثاة هذه
الأغراض القديمة الدارسة وفسادها ، ولانه وجد من سخاء خياله ،
وخصب قريحته ، وسعة روحه خير معين له على افتراع طريقة بكر
لم يبتلها كثرة الطراق ولا عفى على رسمها القدم .

(٢)

كتبنا عن شكري في العدد الماضي كلمة وجيزة أحفظت بعض

أنصار حافظ وأشباعه ، ولقد عابونا بها على ما باغنا ، وقالوا أجملت ذكر شكري . ومدحته أحسن مدح ، وغمطت حافظا واستهنت به ، وسخرت منه . فكان أصحابنا لم يأموا أنا نقدنا شعر حافظ ، واكن لاموا أنا لم نتفخمه ، ولم ينكروا رأينا ، ولكن أنكروا استضعافنا للرجل واستصغارنا لشأنه ، وهو الذي سار أسمه كل مسير ، وتجاوبت بصدى ذكره المحافل ، ولعمري كيف أجاه ولا قدر لشعره في نفسي ، وكيف أعظمه ويس عندي بالعظيم ، أو أكبر شعره ولست على يقين من انه سيبقى على الزمن الآتي .

ولقد بلغنا ان حافظا بسط لسانه فينا وندد بنا ، وتناولنا بالدم والتنقص ، وهذا مظهر عجيب من مظاهر الأنانية وجنونها ، وشاهد صادق على ضيق الروح ، وعامية النفس ، لأن العظيم لا يحب المدح لذاته ، ولكن لأن فيه اعترافاً بالحق الخالد والجمال الأبدي وهو لا يحب نفسه أكثر من حبه لمظاهر هذا الحق لأن فطنته لمعاني الحق والجمال تكسر من غاواء أنانيته ، وليس أدل على العظمة ، وسعة الروح من أن الرجل يستطيع أن يصبر على مظل الأيام وتواني الشهرة عنه وانه لا يقبل على الناس باللوم من أجل أنهم لم يشكروا له عملا ولم يشعروا بفائدته ، ولا أحسوا بالحاجة اليه . وأخلق بمن طال ذكره لنفسه أن ينسأه الناس ويمن يستعجل الشهرة أن لا يظفر منها الا بنصيب وشيك الزوال ، وادا كان طالب الشهرة لا يستلذ عماله الا بقدر تمداح الناس له فما أخلقهم أن لا يجدوا فيه شيئاً حقيقياً بالمدح والثناء ، وجهل بين ، وغرور كبير في الرجل أن يتوقع الثناء على عماله من أجل انه عماله ، لا على قدر ما فيه من الحق والجمال .

أرى طول عهد الناس بالملق والمغالطة والمصانعة قد أنساهم حلاوة الصدق ، ولكنهم خليقون أن يروضوا أنفسهم على تذوقه ، فان ذلك أجدي عليهم ، وأدك على كرم الشيمة ، وشرف المنزع ، ونحن فلا نرى بأساً من ارضائهم بمجاوزة الاجمال الى التفصيل وان كافنا ذلك اغضاب حافظ وهو مالا نحب فان الرجل ليس من أعدائنا وان لم يكن على ذلك من اصدقائنا ..

قلنا ان شكري أسمح خاطراً . وأخصب ذهننا وأوسع خيالاً ، وان سبيله غير سبيل حافظ ، فهل يرى القارئ أنا بعدنا عن مرمى السداد ، أليس شعر حافظ قاصراً على المدح والثناء ، ونظم منشور الأخبار ، وصوغ مقالات الجرائد . وهل خرج حافظ عن الطريق القديم الدارس أو قال غير ما قانت فيه العرب : هذا ديوانه هي « مكتبة الاصلاح » فليبتعه من له به عهد ان كان في شك مما نقول ، وهل أدل من ذلك على التقليد ووهن السليقة وقصور الباع ؟ واذا لم يكن التقليد عنواناً على العجز عن الابتكار فأبي شيء أدل منه وأبلغ في اظهار العجز والقصور ؟ على أنهم يقولون ان التقليد ليس بعيب ونحن نقول مهما يكن من الأمر فانه في كل حال دليل على ضعف الخيال ، وعدم القدرة على الابتداء ، وفقدان الشخصية ، وفنائها في غيرها . . . ولعلك وأجد من يقول لك أن حافظاً طرق أبواباً من الشعر لم يسبق اليها فقال في رازال « مسيما » وحرب « اليابان » والحرب انطرابلية وفي الحوادث الجسيمة مثل قضية الزوجية ! وحريق ميت غمر و « ودنشواي » وغلاء الأسعار وزاد في الأوصاف وصف الجرائد ونعت البورصة والفونغراف كأنه لم يسبق الى ذلك أو كأن العرب لم

تجعل شعرها ديواناً لاخبارها وأيامها ووقائعها ؟ هاتوا قصيدته لحافظ
حقيقة بهذا الاسم نأتكم بيت واحد من ديوان شكري يفضل كل
ما قاله حافظ واضرابه . وبعد فبماذا يفضل حافظ شكري ؟ أبسرقاته
التي لا تحصي واغاراته التي يكاد يخطئها للعد ؟ أم بتشبهه بصفر
مسلول ؟ تنسى اليهود الذهب ، أم بسقم خيانه الذي زين له أن يقدف
بالوابور من فوق الجسور ليحض الناس على البذل لجمعية رعاية
الأطفال ومؤاساتها بالمال أم بقوله يصف الجرائد .

جرائد ما خط حرف بها .

لغير تفريق وتضليل

يحولوها الكذب لأربابها

كأنها أول إبريل

وفيها من ثقل الروح ، وبرود الفكاهة ، وجمود الخيال ، مالا
يخفي على العامي فضلاً عن الأديب . أم بقوله ينعت الفونوغراف .

وجدوا السبيل الى التقاطع بيننا

والسمع يملكه الكنوب الحاذق

لا تجعلني الواشين رسلك في الهوى

فلأصدق الرسل الجماد الناطق

وفيها من السخافة والبعد عن الفرض ما فيهما . وأين يقع هذان
وأين يقع هذان البيتان من قول شكري في الفونوغراف .

هل علم الغريد في وكره

شأن السدي خفض من قدره

وهل درى المطرب ماذا الذي
 يستحضر الماحود من قبره
 يا عجباً من ناطق أبكم
 تألف الألحان في صـاره
 يستخرج اللحن بمسونة
 تزيل داك اللبس عن امره
 تخط في اعطاف احرفاً
 كأنها تبحث عن سره
 يروي أحاديث اناس مصوا
 كأنها مرت على فكبره
 وأنت أيها القارئ فقل أيهما أبعد غاية ، وأرشق معنى ، وأرو
 فكراً ، وألطف تخيلاً . ولكننا نقول مع شكري :
 كم وردة ليس لها ناشق
 يخفيها الروض بواد سحيق
 وخامل والفضل من حظه
 قد اخرجوه بالأذى والعقوق

(٣)

قال لي صديق « لقد تاب حافظ عن قول الشعر ، وزجر غراب
 غروره ، فهلا أقصرت أنت أيضاً عن نقده ؟ » فقلت « لئن كان حافظ
 قد تاب فإن الناس لم يتوبوا ، وما زال فيهم من يعده في الشعراء .

ويسميه شاعر النيل وشاعر الشرق ، ولن اكف عنه حتى يثوب الناس
إلى رشدهم ويعلموا انه لا يعدّ الا في رجال المكتبة الخديوية .

ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسيء ، وتكافئ المحسن
لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر ان يبتاع ما اشتراه الناس
من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جنائية على الأدب ، وأنت فقد تعلم
ان من الشعر ما يكون أثماً ، ومنه ما هو برىء صالح ، أما الآنم فلذلك
الذي يفسد الذوق ، ويعود الناس الكذب ، ويضلل النفوس ، وشعر
حافظ من هذا النوع .

وذلك لأن حافظا ليس صادقاً في شعره ، فهو يذم اليوم ما امتدحه
بالأمس ، وانما تراه يفعل ذلك لأنه ضعيف الذهن لا رأى له في شيء ما
وسيله اذا أراد أن يقول شعراً في (حادثة) ان يغشى مجالس أهل
الحصافة ويذاكرهم الحديث ، اعرف ما ينبغي أن يكون رأيه ، رغبة فيما
يتبع ذلك من طيب الثناء ، وجميل الذكر ، ومن كان هذا شأنه فليت
شعري كيف يعد في الشعراء ، ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد
الحميد قبل المستور ثم صرف بعده الثناء الى رجال تركيا الفتاة وجعله
وقفاً عليهم ؟ وهل أدل من ذلك على انه ليس بصاحب رأي وانه انما
يتابع الجمهور ويجاريهم في آرائهم وأمياهم ، لا لرياء في طبعة ، ولكن
لعجز وضعف في ذهنه ، وهل اشنع من هذا الصنيع ، وأفسد للنفوس ،
واقتل للعقول . أو اسوأ منه في رياضة للناس على الملق والتفاق والافك .
وصدهم عن تونخي الحق .

وعلى ذكر عبد الحميد نقول إنا ما رأينا أفحش من غاو حافظ
ومبالغته ولكن مبالغة حافظ تشف عن قصر في النظر ، وعجز في

الخيال ، ومبالغة غيره تشف عن قوة في الدهن ، وبعد في مرمى
النظر فأني ما قرأت قصيدته في تهنته عبد الحميد بعيد الجلوس الا
استغرب علي الضحك حتى خشيت على نفسي منه . وأي شيء اسخف
من قوله .

سلوا الهلك الدوار هل لاح كوكب
على مثل هذا العرش أو راح كوكب
وهل أشرق شمس على مثل ساحة
الى ذلك البيت الحميدي تنسب

وهل قر في برج السعود متوج
كما قر في يلديز ذاك المعصب

فقد لاحت الكواكب على خير من هذا العرش وطلعت الشمس على
أبدع من ساحة ذلك البيت ، وقرت ملوك لا يقاس بهم عبد الحميد ،
كما لا تقاس أنت يا حافظ بشكري :

ثم تأمل بالله قوله من قصيدة يرثي بها الأستاذ الشيخ محمد عبده .

. فمال الى الثرى

ومالت له الاجرام منحرفات

وشاعت تعاويذ الشهب باللمح بينها

عن النير الهاوي الى الفلوات

بكي الشرق فارتجت له الأرض رجة . . .

وضاقت عيون الكون بالعبرات

من هو الشيخ عبده أو غيره حتى تميل لموته الأجرام . وتشيع من
أجابه تعاويذ الشهب ، وترتج لحينه الأرض ، وتضيق لمصرعه عيون .
الكون بالدموع ؟ لقد مات النبيون والمنصاحون ومات العظماء وأودى .
رجال السيف والقلم ، والكون ما زال على عهدهم به أيام كانوا
أحياء يرزقون . ولو فني الكون كله انتظن ان مبدعه يعبأ بثلاث شيتاً ؟
أليس من عرور الانسان ان يحسب ان الكون يكثرث لما يصيبه وأن
يتوهم انه اكبر شأنًا من النبات والجماد وسائر الظواهر الطبيعية ؟ ألا
ترى أيها القارئ أن في مثل قول حافظ هذا تضليلاً للنفس ، وتدليساً
عليها وتغريراً بها ، وزجراً لها عن أبصار الحق ، وعن عرفان قدرها
أما فساد ذوق حافظ فحدث عنه وكفى بقونه .

وأصبحت مكدن يا قوتة

يغار منها الدر والجوهر

دليلاً على سقم ذوقه وخشونة نفسه التي اרתه في منظر الدماء ما
يغار منه الدر والجوهر . ولو أني كنت أجهل نشأة حافظ الأولى لكان
هذا البيت وحده كفيلاً بالدلالة عليها .

وعلى ذكر هذا البيت اقول اني لا أعرف قولاً ادل على الخمول
والفضالة ، ولا أغري للناس بالقعود والتكؤ والأحجام عن خطيرات
الأمور من قول حافظ ..

اتني على الشرقي حين اذا

ماذكر الأحياء لا يذكر

ومر بالشرق زمان وما

يمر بالبال ولا يخطر

حتى اعاد الصفر أيامه
فانتصف الأسود والأسمر

لأنه ليس في انتصار اليابان ما ينخر به الهندي أو الصيني أو المصري
لأن فخر الرجل بجاره دليل على عجز همته ووهن عزيمته ، وفي هذا
الفخر باعث على التواكل والتخلف . وأنت أفتظن أن الفرنسي يباهي
باستظهار الألماني على الانجليزي أو الانجليزي على الألماني . كلا !
وانما كان هذا كذلك لأن الأخوذي صاحب الهمة القصية لا يعتر
الا بما يدرك هو من الغايات على أن البيت الثاني مكرر للبيت الأول
فهو حشو .

حسبنا اليوم ما أخذناه على حافظ وانما ترانا أيها القارئ نعني
بنقد شعره لأن جنابة الأديب أشنع من جنابة القاتل وليس لنا عنده كما
توهم بعضهم ثأر نجزيه به فإن الرجل كما أسلفنا في كلمتنا الثانية
ليس لنا بصديق ولا عدو ، ولسنا نحترقه كما توهم آخرون ولكننا
نحترق شعره ونزدري مظاهر نفسه ، فإن الرجل ظريف مليح
النكتة، عذب المحادثة ولا عيب فيه الا أنه يحاول أن يقول شعراً ،
ويعالج ما ليس في طبعه . رحم الله الأستاذ الأمام فانه هو الذي ورطت
وزين له هذا المحال .

(٤)

(سرقاته)

كتب الى من لست أعرفه يلحاني أجل أنني أنقد شعر حافظ زاعماً
أنه لا يمكن أن يكون قد نال ما نال من الشهرة بغير حق ، وأنه كان

أولى بالنقد الكاشف وغيره ممن لا يكادون يقيمون وزن الشعر -
قال :

« وهؤلاء بعد خير مثال يضرب لنصوب القريحة ، وتخلف
الطبع ، وجمود الخيال ، وسقم المخاطر ، ان كنت الى هذا قصدت ،
أما حافظ فان له براعات مأثورة ، وآيات سائرة ، أراك تؤثر الأغضاء
عنها ، وتحمي ذكرها » الى آخر ما ورد في كتابه .

فأما أن الشهرة ليست دليلاً على الفضل ، فهذا مالا ريب فيه ،
وأما غرضنا الذي قصدنا اليه من النقد فهو تصحيح خطأ الناس في أمر
حافظ والناس لم يختلفوا في أن الكاشف ليس في العبر ولا في النفي ،
وأما أن لحافظ اجادات معروفة فهذا مانحب اليوم أن نظهر بطلانه .

قلنا أن حافظاً نكد القريحة ، ونقول اليوم انه لزمانة سليقته يلجأ الى
السرقه ، وانتحال شعر الأوائل ، وليس أدل من كثرة السرقات على
على جمرد المخاطر ، على انه لا يحسن السرقه لانه لا يعتمد إلا الى المعاني
الصغيرة فيطلق يده فيها إذا كانت روحه لا تسع المعاني الجليلة ، فهو
كثير الأسفاف ، قليل السمو ، حتى في سرقاته . ويذكرني حافظ
بحكاية قديمة ، قالوا أن « كانوفا » كان من عادته إذا أراد أن يصنع
دمية أن يعتمد الى ما حوله من التماثيل فيأخذ من واحد أنفه ، ومن ثان
رجله ، ومن ثالث يده ، حتى تتم له الصورة التي يريد أن يصنعها »
قال حافظ :

جنيت عليك يا نفسي وقبلي
عليك جنى أبي فدعي عتابي

وهو مأخوذ من قول المعري :

هذا جنّاه أبي على (م) وما جنّيت على أحد

وقال :

ليست شعري هل لنا بعد النوى

من سبيل للقائم لات حين

أخذه من قول بشار

يا ليت شعري وقد شط الزار بهم

هل تجمع الدار أم لا نلتقي أبدا

وقال :

لست أدعوك بالتراب ولكن

بقُدود الملاح والأجياد

بخُدود الحسان بالأعين النجل

بتلك القلوب والأكباد

نظر فيه الى قول المعري

خفف الوطأ ما أظن اديم الأ

رض لإامن هذه الأجساد

ولا يفوت القارىء تأمل ما في قوله بتلك القلوب والأكباد من القلق

والركاكة .

وقال :

رحم الله منه لفظاً شهياً كان

أحلى من رد كيد العدو

أخذه من قول الخوارزمي
وكيف ونظرة منها اختلاصاً
ألذ من الشمانة بالعدو

وقال :

وكنيت اذا عمدت لأخذ ثار
أسلت البر بالأسد الضواري
أخذه من قول ابن المعتز
سألت عليه شعاب الحي حين دعا
انصاره بوجوه كالدنانير

وقال :

اني فتاك فلا تقطع مراصلي
هنيئتي جنيت فقل لي كيف اعتلر
أخذه من قول جميل
فان لم يكن قولي رضاك فعلمي
نسيم الصبا يابثن كيف أقول

وقال :-

لا تعيين يا شقيب ديب
انما الشيخ من يدب ديباً
أخذه من قول الشاعر
زعمتني شيخاً ولست بشيخ
انما الشيخ من يدب ديباً

وقال :

وحسرة في القلب لو قسمت
على ذوات الطوق لم تسجع

أخذه من قول صردر

قد مربى من صرفه حاصب
لو مر بالورقاء لم تسجع

وقال :

ولولا سورة للمجد عندي
قنعت بعيشتي قنع الظليم

ألمّ فيه بقول امرئ القيس :

ولو أن ما اسعى لأدنى معيشة
كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما اسعى لمجد مؤثّل
وقد يدرك المجدّ المؤثّل امثالي

وقال :

وتمشي السافيات بها حيارى
إذا نقل الهجير الى الجحيم

أخذه من قول مسلم بن الوليد :

تمشي الرياح بها حسرى موهة
حسرى تلوذ بأكناف الجلاميد

وقال في وصف الأرض في حرب اليابان
وأصبحت تشتاق طوفانها
لعلها من رجسها تطهر
أخذه بلفظة ومعناه من قول المعري
و الأرض للطوفان مشتاقـة
لعلها من درن تغسل
وقال من قصيدة يمدح بها البارودي :
تيمتها والليل في غير زيه
وحاسدها في الأفق يغري بي العدا
أخذ معنى الشطر الثاني من قول المتنبي :
ازورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنتني وبياض الصبح يغري بي
وقال منها أيضاً :
كلانا له عذر فعذري شبيبي
أخذه من قول ابن المعتز :
وذاك اذ لي في الصبا عذر
قبل أن يؤمن شيطاني
وقال :
وما الذي تخشاه لو انهم
قالوا فلان قد غدا عبدك

أخذه من قول مهيار الديلمي :

ما على قومك ان صار لهم
أحد الأحرار من أجلك عبداً

هذه طائفة من سرقاته ولو كان في الصحيفة متسع لاتينا عليها جميعاً ،
ولكننا نرجى البقية للاعداد الآتية ، ونرجو ان يكون القراء قد آمنوا
بقولنا واتفقوا معنا على أن حافظاً من ساقه أهل الشعر ومتلصصهم وأنه
لولا مؤازرة الأستاذ الامام له ، وتنويهه به ، وحث الناس على اقتناء
ديوانه ، لكان اليوم نكرة من النكرات ، وغفلاً من الأغفال .

(٥)

« سرقاته »

ما لقيت أحداً الا رأيت على وجهه سمات العجب والدهشة من نقدي
لشعر حافظ والا أخذ على قولي ان حافظاً ليس بشاعر وأنا ما فلست
أرى ان في قولي أن حافظاً ليس بشاعر وأنه كبعض الطيور يأوي الى
عش غيره تنقصاً له ولا زراية عليه والا اضطررنا أن نعد كل أمرئ
شاعراً وان لم يكن في أرث الشعر لثلا يرى في سلبه هذه الفضيلة
« المشاعة على ما أرى » ذما له وثلبا ! ! أو ليس بحسب حافظ أن يكون
رجلاً من أهل الوجاهة والرفعة . وهل من الدم في شيء أن أقول لك أيها
القارئ انك لست بالطويل أو القصير أو انك لا تحسن الغناء أو انك
لا تحفظ حرفاً من اللغة السريانية « وان كانت في ظن العوام لغة الملائكة »
أو أن أقول ان راحتك أيها القارئ ليست غضة بضة كراحة هذه السيدة
المترفة أو تلك ، وان عليها اثرأ من خشونة ما تزاوول من عملك ! وهل

تحسب أيها القارئ ان الثور الذي يعجر المحراث تحت عين الشمس يعز
عليه أن الكلب يرتع في القصور ويجلس على حجور السيدات أو يود ان
يكون من أجل ذلك كلباً ؟

اني ليضحكني جداً رغبة حافظ في أن يعد شاعراً وليس له ما يجعله
حقيقاً بهذا الاسم ، ولجاجة الناس في التغرير به وتشجيعه على الاحتفاظ
بهذا اللقب ، والغيرة عليه ، والذب عنه ، ويذكرني ذلك بحكاية رواها
« هاني » الشاعر الألماني قال : ان ملكاً من ملوك افريقيا السود رغب
الى مصور أن يرسمه فامثل امره ثم انه امسك الريشة وأخذ يصوره غير
أنه رأى على وجه الملك من دلائل القلق والاضطراب ما حمله على
الاستفسار منه عما يقلقه والح عليه في الاعراب عن رغبته فقال الملك
ليتك تستطيع أن تجعلني في الصورة أبيض الوجه ؟ ؟ ؟ فما اشبه حافظ
بهذا الملك ؟ ولنعد الى سرقات حافظ قال من قصيدة يرثي بها الأستاذ
الامام .

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
أخذه من قول الشاعر بلفظه ومعناه .

كنت أخشى صرف الحمام فلما
راح يحببي أصبحت أخشى حياتي
وقال :

سخرُوا من الفضل الذي أوتيته
والله يسخر منهم في النار

أخذه من قوله تعالى : « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا
يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين
واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم
الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

وقال :

نامت بمصر - وأيقظت
لحوادث الأيام سعدا
أخذه من قول بشار .

إذا أيقظتك صباب الأمو
رفنبه لها عمراً ثم نم

وقال :

وكم حاولوا في الأرض اطفاء نوره
واطفاء نور الشمس من ذاك اقرب
أخذه من قول المعري .

ومضطغن عليك وليس يجدي
ولا يعدي على الشمس اضطغان

وقال في مطلع قصيدة يرثي بها بنت البارودي .

بين السرائر ضنة دفنوك

أخذه من قول أبي تمام يرثي امرأة محمد بن سهل

لها منزل بين الجوانح والقلب

وقال في رثاء الأستاذ الامام أيضاً
بكيناً على فرد وان بكاءنا
على أنفسس لله منقطعــــــــــــات

أخذه من قول الشاعر
وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهلدا
أو قول أبي تمام يرثي عمير بن الوليد
لم يود منه واحد لكنما
أودي به من أسودان قيسل
وقال أيضاً من قصيدته هذه :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه
لأنك علينا أشأم السنوات

أُتخذ من قول أبي تمام
 فيا يوم الثلاثاء اصطبحننا
 غداة منك هائلة الورود

وقال يرثي البارودي :

ان هُدْرَكَكَ منكوباً فقد رفعت
لك الفضيلة ركناً غير مهلود

أخذه من قول أبي تمام :
فإن يوه في الدنيا دعائم عمره
فما جسوده فيها بواهي الدعائم

إذا المرء لم تهدم علاه حياته
فليس لها الموت الجميل بهام

وقال يذكر منزل الامام

عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً
تطوف بك الآمال مبتهلات

أخذه من قول محمد أبي عطاء السندي .
فإن يمس مهجور القناء فربما
أقام به بعد الوفود وفود

وقال أيضاً يرثي الأستاذ الامام .
لقد جهلوا قمر الامام فأودعوا
تجاليديه في موحش بفلاة
أخذه من قول محمد بن بشير الخارجي .
أقول وما يدري اناس غلدوا به
الى اللحد ماذا أدرجوا في السائب

وقال يرثي البارودي .
لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة
من كنز حكمته لا جوف أخلود

نظر فيه الى قول مويك المزوم يرثي امرأته
صلى عليك الله من مفقودة
إذا لا يلائمك المكان البلقع

(٦) .

سرقاته أيضاً

أنذرتني أم سعد أن سعدا
دونا ينهد لي بالشر نهدا
ونما الي من العجائب أن حافظ يحرش بنا نظارة المعارف ويرمينا
عندها بأنا كاتبو مقالة « حسن الاختيار » التي نشرها « عكاظ » في بعض
أعداده الماضية عسى أن يصيبنا ما يكفنا عن نقده ، وقد علم الناس أنا
لا نكتب شيئاً الا ذيئلناه بتوقيعنا الصريح ، فليرح نفسه حافظ فان تعبته
ضائع ، وسهمه طائش ، وليعلم أن ذلك لا يرجعنا عن رأينا فيه ،
ولا يحملنا على القول بانه شاعر .

تمناها بجهل الظن سعد
وما هي من مطايا الظن بعد
ان لك أن تشعر بأنك شاعر ، وأن تغش نفسك اذا شئت ، وأن
توهمها أنك أطيع الناس ، وأن الشعر راجع منك اليك ، وأن أبا تمام
كان يصف قلمك حين قال :

للك القلم الا على الذي بشباته
تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

وينعت شعرك بقوله .

أما المعاني فهي أبكار (؟ ؟) اذا

نصت ولكن القوافي عون

وأن البحري كان يقصدك بقوله .

لثمنت في الكتابة حتى

عطّل الناس فن عبد الحميد

وان المثني كان يعني قلمك حين قال .

فصيح متى تجد كل لفظه

أصول البراعات التي تنفرع

وان الشريف الرضي كان يتنبأ بك حين قال .

لك القلم الجوال اذ لا مثقف

يحول ولا غضب تهاب مواقعه

وان السرى الرفاء كان يفكر فيك لا في نفسه حين قال يصف

قصيدة .

نظام من السحر الحلال نجيل

لشامعه . أن الكواكب تنظم

وان مهيارا لم يصف الا قلمك حين قال :

نفثاته السحر المليل لا كما

خبرت ان السحر صنعة بابل

والأ' دواتك بقوله .

لها من سيك التبر ثوب مورس
ووجهه من العاج النصيع وسيم

وان صر در كان يتصور دواتك حين قال .

ياحبدا هي والاقلام واردة
فيها وصادرة سحيم المناقير

وأن الايوردي كان ينطق بلسانك حين قال :

كلماتي قلائد الأعناق
سوف تغني الدهور وهي بواق

وانك أنت حامل واء الشعراء . . . لا امرؤ القيس ، لك أن تتصور
كل ذلك اذا خلوت الى نفسك في المكتبة الخديوية وأحاطت بك دواوين
الشعراء وأقبلت جماجمهم تمسح رأسك وتقتل منك في اللزوة والغارب
رجاء أن تأمر باستنساخ شعرها وصيانتها من أيدي البلى ، ولكننا لا نرى
لك علينا سلطانا يضطرننا الى مصانعتك كما اضطرت هذه الجماجم أن
تحمل نفسها على مكروها .

على اني أيها القارئ أحب أن أقر لحافظ بشيء من الشعرية ولكنني
كلما حاولت ذلك طلع على مثل هذا البيت :

فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا

أن المصاييح لا تغني عن الشهب

فأخرسني ، لأن أطفال هذه الكتائب تعلم أن المصاييح تغني عن الشهب

ولكن الشهب لا تغني عن المصاييح ، وليت اختراع حافظ يصح ، إذأ
لكافأته الحكومة ببعض ما تنفقه على ائارة الطرق وكافأه الناس بنصف
ما يتاعون به صفائح الغاز ، أو ربه ، لان في البيوت زوايا لا يصل
اليها نور الشهب .

وليت حافظاً كان حاضري وقد التفت بي أرواح شعراء العرب
وانتبرت (١) كل روح ديوانها وأخذت تخطب محتجة على ما سلبه حافظ
من معانيها، وانتحله من أفكارها، ومسحه من شعرها ، إذأ لسمع روح
الشريف تقول بعد ديباجة طويلة أبانت فيها فضلها وسبقها ومكانتها

لنا كل يوم منه ذئب عمرّد
دم الشعر في انيابه والبرائن
فقد أخذ حافظ بيتي .

تساقينا التذكر فائثينا
كأننا قد تساقبنا الطلاب

فقال :

سقاني في منادمة حديثاً
نسينا عنده بنت الكروم

وقلت :

أخي لا رغبت عيني ولا أذني
من بعد يومك في مرأي ومستمع

(١) اتخذت منه متبراً .

وكررت في موضع آخر فقلت .
فبعداً لطيب العيش بعد فراقكم
فلا أسمع الداعي اليه ولا دعا
فأخذ المعنى وقال :
أبعد عثمان أبغي مأرباً حسناً
من الحياة وحظاً غير منكود
وهنا قاطعتها روح مهيار وقالت : انه اخذ هذا
المعنى من قولي :
ابعد ابن عبد الله احظي براجع
من العيش أو أسي على اثر ذاهب
وقلت ايضاً .
سلام على الأفراح بعدك انها
وان عشت ليست اربة من مأربي
فسرقه وقال :
فأمسكا الراح اني لا اخامرها
وبلغنا الغيد عني سلوة الغيد
فقامت على أثر ذلك ضجة شديدة وصارت كل روح تدعي المعنى
فقلت انه سرق منكما فسكتنا واستأنفت روح الشريف الكلام فقالت :
وقلت : كتتم نجوماً لدى الدهماء زاهرة
تضي منها الليالي السود والدرع

فأخذه وقال :

لقد كنت فيهم كوكباً في غياهب

وقلت :

رزآن يزدادان طول تجدد
ابسد الزمان فناؤها وبقائي

فأخذه وقال :

انسي ليحزني ان جاء ينشده
داعي البنون واني غير منشود
فعادت روح مهيار الى مقاطعتها وقالت بل انه أخذه مني أنا فقد
قلت .

اذا كان سهم الموت لا يبد واقعا
فياليتني المرمي من قبل صاحبي
ولكنني حكمت للشريف في هذه المرة ثم قام التميمي
فقال : وأنا أيضاً قنت :

أما القبور فانهن أوانس
بجوار قبرك والديار قبور

فأخذ المعنى وقال :

ليبك يامؤنس الموتى وموحشنا
يا فارس الشعر والهيجاء والجدود

فنهض ابو تمام فقال انه أخذ الشطر الثاني من قولي
يعزون عن ذو نعزي به العلى
ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وقلت أيضاً .

إذا ظلمات الرأي أسدل ثوبها
تطلع فيها فجره فتجلت
فأخذ المعنى وقال :

ذامس خلد الطرس فاض جبينه
بأسطار نور باهر اللمعات
وقلت :

ليهن امرؤ يشي عليك فانه
يقول وان أوبى ولا يقول
فأخذه وقال :

عذب القريض قريض بات بهـ
ذكر ابن توفيق عن اخو وعن كذب
ثم تلاه الحمداني فقال وأنا أيضاً قلت .

الذنب للأيام لالى
فاعتب على صرف الالبالي
فأخذه وقال :

لا تلسم كفى إذا السيف نبا
صح مني العزم والدمر أبى

ثم قام آخر وقال وقد سرق مني قولي .
فالتاس مآثمهم عليه واحد
ففي كل دار رنة وزفير
فقال :

ففي الهند محزون وفي الصين جازع
وفي مصر باك دائم الحسرات
وكرره في موضع آخر فقال :
أنى حلت أرى عليك مأتما
وتلاه آخر فقال اني قلت .

قلله در الدافنيك عشية
أما راعهم مثواك في القبر امردا
فأخذه وقال :

تركوا شبابك فيه نهبا للبي
واهأ لغضن شبابك المتروك
وتلاه الجرمي فقال ، وأنا قلت :
أحقا عباد الله أن لست رائيا
رفاعة بعد اليوم الا توهم

فاغار علي وقال :
فهوا لهفي والقبر يني وبينه
على نظرة من تلكم النظرات
ثم انفضت الجلسة .

(٧)

كنت أحسب أن الخلف بيني وبين الناس هي أمر حافظ قد ذهب كل مذهب ، واني على الباطل وغيري على الحق حتى لقد هممت أن أعتلر لحافظ بك من نقدي لشعره ، واستسخافي لنظمه ، واستضعافي لسليفته ، ولكنني استحييت من أن ألقى إليه معاذيري في صحيفة يطالها كل هذا السواد الأعظم ، وأشفقت مما عساه يتبع ذلك من تضاحك الناس بي ، وسخرهم مني ، فقلت اكتب اليه كتاباً « خصوصياً » افتتحته بما يأتي :

« الحمد لله الذي هداني الى الحق ، وبصرني وجوه الرشد ، وأوضح لي معالم التقصد ، والصلاة والسلام على خير بريته ، والمصطفى من أمته ، محمد سيد المرسلين ، وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين ، وآله الاخيار أجمعين ، وبعد فكفي بالجهل داء ، وبالغبوة حنة وبلاء ، وبخلوص النية شفيعاً وبالاعتذار من فارط الذنب . . . »

وهنا أعيتني السجعة ، فوضعت القلم وجعلت أفكر في كلمة صالحة ، فمرت بالذاطر ألفاظ كثيرة أذكر من بينها « رجوعاً » و « نزوعاً » و « تقريراً » ولكني لم استلمح واحدة منها ، ففتحت ديوان بعض الشعراء المكثرين عند قافية العين كما يفعل حافظ وأشباهه اذا نظموا لعل أظفر بطلبتي ولكن رائد التوفيق اخطأني في هذه المرة أيضاً ، فيست من كتابة الاعتذار ، ومما كنت ارجوه من الصفح ، واتوقه من الغفران ، واني لفي هذه الحيرة الشديدة واذا بعدة رسائل قد جاءني ففتحت الاولى وبي من الكسل والملل مالا يخفي عن القارئ فاذا كاتبها يقون بعد الديباجة .

« أراك قد أطلت في إيراد سرقائه (يعني صاحبنا بالطبع) حتى ضايقتنا وامللتنا . حسبك ما أخذت عليه من ذلك ، لانه ليس بالشاعر المكثّر حتى تغمر له كثرة سرقائه من أجل كثرة حسناته وعنى انه حتى في اعتذاره من اقلاله لم يأنف من السرقة والانتحال ألا ترى كيف أخذ قوله .

وأنشد أشعاري وان قال حاسد
نعم شاعر لكنّه غير مكثّر
من قول البحري يرد على عبيد الله بن طاهر .

والشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهذّار طولت خطبه
وأخذ البيت الذي بعده وهو

فحسبي من الأشعار بيت أزينه
بذكرك يا عباس في رفع مقداري (١)

من قول الشريف الرضي يمدح الطائع .
قليل مدحك في شعري يزينه
حتى كأن مقاتلي فيك تغريد

أقول كفى ما أظهرت من سرقائه وانما ينبغي ان تكشف للناس عن
فساد معانيه وقلق اسلوبه وركاكة تعابيريه فان الناس « يتهمونه » بحسن

(١) لا ينبغي أن يفوت القارئ ما في قوله في رفع مقداري من الشرف والحسن والطلاوة وكثرة الماء وان كان قد ذهب بمضمم الى أن هذه العبارة قلقة لا يقرها قرار في هذا الموضع ! !

الديباجة ، وانسجام التراكيب ، وسلامة الدوق في الصناعة ، ولا
يصدقون انه قاتل هذا البيت .

أرى سمو خديرينا وقد بسطت
بالعدل والعدل يمناه ويسراه
وليت شعري اين كانت فصاحته وبيانه وذوقه حين قال « سمو
خديونا » وأين كانت يقظته وفطنته وذكاؤه وعلمه حين قال .

أرونسي نصف مخترع !!
أرونسي ربع محتسب !!
فأنا ما علمنا ان في العالم نصف مخترع ولا ربع محتسب وما يدرينا
لعله يقول بعد ذلك ثلث فيلسوف وسدس وطني وسبع شاعر وعشر كاتب
وخمس رجل ، وما الذي منعه أن يكتب البيت هكذا .

أرونسي ٢/١ مخترع !!
أرونسي ٤/١ محتسب !!
وعلى أن البيت بعد لا يساوي واحدا « صحيحاً » !!
وما عساك تقول اذا سمعت قوله في مطلع قصيدة يمدح بها الجناب
العلي ويهنته بعيد الفطر .

مطالع سعد أم مطالع أقمار
تجلست بهذا العيد (أم تلك أشعاري)

فان في قوله (أم تلك أشعاري) من السماجة وسقم اللوق والغرور
مالا يطاق ، وليت شعري اكان حافظ يمدح الجناب العالي أم يفاخره
ويتبجح عليه بقوله من هذه القصيدة بعينها .

كنا فليكن مدح الملوك وهكذا
يسوس القوافي شاعر غير ثرثار »

إلى آخر ما كتب هذا الناقد الثرثار ، غير أنني لا اكتمك أيها القارئ
ان هذه الرسالة اعادت الى ثقتي بنفسي ، واذهبت عني القلق
والاضطراب فقلت اطوي كتاب الاعتذار الذي كان العزم أن ارسله
لحافظ وأشتر هذه الرسالة .

ثم فضضت الرسالة الثانية فاذا فيها سؤال هذا نصه :
« ماذا يعني حافظ بقوله .

رأيت فيها بساطا جل ناسجه
عليه فاروق هذا العصر يختال
بمشية بين صبي حكمة وتقى
يعجبها الله لانيه ولا خال ؟ »

والجواب على هذا - بعد مراجعة البيتين - هو اني لا أظن حافظاً
يعني شيئاً ، وانما هي العاظم مرصوفة لا يعلم الا شيطانه البليد الذي وكله
به ابليس كيف وفق بينها ، أما الذي أعلمه أنا فهو انه اراد ان يمدح
الأستاذ الامام ويصف حضرته كما يزعم شارح الديوان ، وان كنت
لا أفهم من البيتين الا انه قصد الى مجائه ، والتهكم به ، والسخرية منه ،
لأنه يقول انه رأى في دار الأستاذ بساطا جل ناسجة (اعتذر للسائل من
عجزني عن تفسير قوله جل ناسجه !) وانه رأى الأستاذ الذي هو عمر
هذا العصر يتبختر على هذا البساط ويرفع يديه ويضعهما في المشي
اختيالا (وهو المفهوم من قوله يحتال) وانه كان يمشي بين صفيين

صف حكمة ، وصف تقى ؛ كما يمشي الضابط بين صفوف الجنود
وان الله يحب هذه المشية التي ليس فيها لاثية ولا خيلاء (مع انه قال أنه
رآه يختال) هذا ما أفهمه وهي صورة مضحكة جداً اذا كان الغرض
منها المدح ، ومن لي بمن يعلمني هذه المشية التي يحبها الله ؟ ! ! !

أيها القارئ : ألم تشهد مرة ليلة عرس وقد ارتقى بعضهم كرسيا
وجعل يتنطح بفضول الكلام ، ويتكثر بلغو المقال ، ويرسل على الناس
طوفاناً من الهذر والهراء ويقرع آذانهم بمثل هذا الشعر :

انسي أرى عجباً يدعو الى عجب
الدهر أضمره والعيد أفشاه

هل ذاك ما وعد الرحمن صفوته
روض و حور و ولدان و أمواه

أم الحديقة ذات الوشى قد جليت
في منظر يستعيد الطرف مرآه

أرى المصاييح فيها وهي مشرقة
كأنها النور والوسمى حياه

أرى بنى مصر تحت الليل قد تسلوا
الى سعود به ضاح حياه

أرى على الأرض حلياً قد نسيت به
حلى السماء وحسنا لست أنساه؟

ولن تظن هذا الشعر الذي أوردته بكرهي ؟ أخشى أن أقول لحافظ

فتقول اني أقوله ما لم يقل ؟ ولكنني أقسم لك بكل مخرجة من الايمان ،
ومؤكد من الأقسام ، وبكل ما يحلف به البر والفاجر انه له ،

سيقول بعض أنصاره انه قال هذا الشعر في أول نشأته فليس
بمستغرب أن يكون تافهاً بشعاً في اللوق ، ولكن أنظر ما قال بعد أن
بلغ كمال البنية والعقل ، فليكن ما تريدون . قال حافظ في الصفحة
الثامنة والتسعين من الجزء الثاني من ديوانه بعد أن بلغ كمال البنية
والعقل ، وارتفع عن سن الحداثة ، وصار عليمًا بأسرار اللفظ
واشتقاقه عارفاً بفصيحته وركيكه ، ومأنوسه وغريبه ، وبعد أن
« أغرى أقلامه بالغوص على المعاني » حتى .

شكى عيان وضج الغائصون به
على الآلى وضج الحاسيد الشاني

يمدح الجنب العالي .

أغليست بالعدل ملكاً أنت حارسه
فأصبحت أرضه تشري بمنيزان
جرى بها الخصب حتى أنبتت دهباً
فليست لي في زراها (٢/١ فدان (١)

بحقي عليك يا حافظ ؟ وبمالي عندك من حرمة ؟ ؟ لثري هذا
الميزان الذي أصبحت الأرض تشري به ؟ انه لم يبق عليك الا أن تقول

(١) آليت لا أكتب النصف والربع والعشر كلما أخذت عيني شيئاً من ذلك في
شعر حافظ الا هكذا ، وليت شعري ما هذا الولع بالحساب وما هو السر في ذلك
أكان حافظ في صدر أيامه « شاطراً » في الحساب

انها تباع بالرطل كاللبن والعجين ؟ ؟ ولتقولن لي هل كنت تمدح الجنب
العالى أم . . تمازحه وتضحكه وهل من أدب المديح أن تذهب مذهب
الهزل ، في موقف الجد ، وأن تجعل ختام قصيدتك هذا البيت
هكذا هو الملك فليهنأ مملكه

وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى

كأنك تجاذبه جبل الفخر وبينك وبينه على ما أعلم

« أبعد مما بين بصرى والحرم »

أخلق بمن كثر ذكره لنفسه أن ينساه الناس ، وانت أيها القارئ أنظن
أن روائيل كان يفكر في نفسه حين صور العذراء وولدها ، أو أن
شاكسبير حين كتب هملت وعطيل كان يفكر في سواهما أو أن ممثليهما
يكترثان لجمهور النظار والمتفرجين ؟ كلا فإنه ينبغي لمن يريد أن يكبر
في عيون الناس أن يتضاءل أمام نفسه .

سيقول البعض أنه يسمت سمت العرب ويجري على أسلوبهم ،
ولكن العرب قد ذهبوا في سبيل العصور الخالية ونحن اليوم في عصر
له آدابه ومطالبه وليس ينبغي لنا أن نقلدهم ، وإن كنا نجلهم ونعظمهم
وانما مثل من يقلدهم مثل الساجد أمام دمية خفيت معارفها ، وطمست
محاسرها ، ولم يبق منها إلا الحجر الذي نحتت منه ، والا المصباح
المعلق فوقها ، أو مثل من يهب قلبه لا امرأة حطمتها السن حتى أصبحت
لا يحمل بعضها بعضاً .

وقال حافظ .

غمضت عينيك عنها وازدريت بها

قبل المات ولم تحفل بوجود

فأخطأ في قوله ازدريت بها لأن الفعل يتعدى وليست به حاجة الى حروف الجر فهل لا يعرف حافظ الفرق بين الللازم والمتعدي وأي فائدة في قوله « قبل الممات » فهل رأى حافظ أحدا من الناس يحفل بعد موته بشيء حتى خاف اللبس وأراد أن يجتنبه بقوله قبل الممات ؟ ما أكثر غرائب حافظ لكأنني به لا يفهم الموت ولا يعرف الفرق بينه وبين الحياة . لو لا اني أحب له طول العمر ليقف على حقيقة أمره وليعلم انه ليس من الشعر ولا قلامة ظفر لدعوت الله أن يذيقه الموت حتى يجربه ويعلم انه كان مخطئاً حين قال « قبل الممات » فلا يعود إلى أمثال هذه السخافات !!! نعود الى ما كنا فيه فنقول: أن حافظاً كثير الخلط بين الأضداد واني ما قرأت له قصيدة الا رأيت فيها مثلاً لذلك كقوله .

هبوا الاجير أو الحراث قد بلغا

حد القراءة في صحف وفي كتب

فان قوله قد بلغا من مستغربات الزمان ، وذلك انه جعل « أو » بين الأجير والحراث فكان ينبغي أن يقول بلغ وقد كان يجوز له أن يقول بلغا لو أنه عطف بالواو لا بأو ولكن حافظا كما قلنا لا يعرف فرق ما بين الواو - وأو

ومن أمثلة هذا الخلط قوله يهنئ شوقي بك للانعام عليه برتبة

قد كان قلبك لا يحسد نباهة

وسعادة فغدا بها محلودا

ما ترى في رجل يريد أن يمدحك فيقول لك أن قلبك ونياحتك وشرفك وسعادتك لم يكن لها حد تقف عنده ولكنها الآن أصبحت

مجلودة. لا تجاوز جداً بعينه ؟ أليس هذا أشبه بالنم منه بالمدح ، وأقرب
الى المصحاء والطعن ؟ أليس هذا دايلاً على أن حافظاً يجسد شوقي على
متزلته. وينفس عليه أدبه وعبقريته ويتمنى لو كان له مثل طبيعه وسليقته
وهل الجسد دليل على سعة الروح وعظم الثقة بالنفس واحتقار المظاهر
اللذين هما نتيجة لعظم الروح وجلال النفس ؟ ؟

(٩)

أنشر في هذا المقال الرسالة الثالثة برأ بالوعد ، ووفاء بالعهد ، وقد
جاءتني من صديق أظنه توقع أن أنشرها لما فيها من صدق النظر ، ودقة
الفكر ، وسلامة الذوق ، كما فعلت بغيرها فسألني أن لا أعلن اسمه إذا
خطر لي أن اذيع ما فيها من النقد قال :

« أنا كما تعلم صديق حافظ ، ولست أحب أن اوغر صدره عليّ
فانه على سخافة شعره ، لطيف ظريف ، ولست شعره كحديثه ، ولكنه
يتكلف في شعره ولا يتكلف في حديثه ؛ ولعل هذا هو السبب في ثقل
ظل الأول وخفة روح الثاني . » ثم انتقل من ذلك الى الكلام على شعره
فقال :

« كأنني بحافظ قد أدرك انه شعور متكلف ينظم بالصنعة (ليت
شعري ماذا يقول حافظ عني اذا قرأ قولي انه شعور وعلم ان صديقه
الذي لا يستريب به أول من وصفه بذلك واطلق عليه هذا اللفظ —
لا أدري ولكني أرجو مرة ثانية ان لا تذيع اسمي اذا ادعت رأيي ؟)
أقول كأنني به قد عرف انه ليس من الشعر في شيء فهو لا ينفك يتنازل
لكل شاعر يظهر عن ملكه الذي اغتصبه — فقد قال لما صدر الجزء الأول
من ديوان شكري :

شهدت . بأن شعرك لا يجارى
 وزكيت . الشهادة . باعترافي
 لقد بايعت قبل الناس شكري
 فمن هذا يكابر بالخلاف
 وقال يقرظ ديوان الرافعي :
 وهذا الصولجان فكن حريصاً
 على ملك القريض وكن أميناً
 كأن هذا المسكين لا عمل له الا ان يبايع الشعراء ويشهد لهم بالسبق
 والمزية ، أو كأنه فطن الى ان ملكه هذا أسمى فتنازل عنه في حياته قبل
 ان يُتْرَ له عنه الموت بكرهه ؟
 وعلى ذكر الموت والحياة ارجوك (لاني كما اسأفت صديق حافظ)
 ان تهيبه ثلثمائة عام من خلودك - كما فعل فولتير - فان حاجته والله
 الى يوم واحد لشديدة على أن يفسر لك هذا البيت :
 ذرّ الكتائب منشياً بلا عسدد
 ذرّ الرماح بعين الحاذق الأرب
 فهل حسب جنابه ان الرماد المنزور في عين الحاذق الارب لا يد أن
 يكون أكثر من الرماد المنزور في عين الأبله السخيف حتى تمثل به أو
 أن عين الحاذق أوسع من عين الغبي - وهذا البيت أيضاً .
 ومن يطل على الافلاك يرصدها
 بين المناطق عن بعد وعن كسب (١)

(١) عن كسب أبي من قزيب .

ليس في العالم طفل لا يعلم ان علماء الافلاك لا يرصدونها الا عن بعد فهل رأى جتاه أحدًا صعد في طيارة ورصد الافلاك عن قرب - ان الوقت الذي تطير فيه الناس بين الكواكب لم يأت بعد . . . وهذا البيت أيضاً .

متى نراه وقد باتت خزائنه

كثرا من العلم لا كثرا من الذهب (١)

تضحكني جداً هذه الغفلة من حافظ فقد أراد ان يغني بلدنا فافقره وذلك لأنه متى ان يرى خزائنه مملئ من العلم - فارعة من الذهب . وليت شعر حافظ أي خير في العلم اذا لم يكن لدينا الى جانب مال نستلذ به منافعه ومرافقه ؟ لا خير مطلقاً : كما انه لا خير في ما يعرف حافظ من مفردات العربية ما دامت خزائنه معانيه فارغة ، ومن غفلة حافظ قوله :

لا نحن موتي ولا الأحياء تشبهنا

كأننا فيك لم نشهد ولم نعب

أراد أن يقول لا نحن موتي ولا نحن نشبه الأحياء فقال ولا الأحياء تشبهنا وهذا يشبه قول القائل .

« أما في عقلهم رأس »

« مطلي به القار »

أو قول القائل

(١) الضمير في يراه يعود على «بلد» في البيت الذي قبله - والبلد المقصود هو مصر .

يريد « مطلياً بالقار » أو قول الآخر :

ومهمه مغبرة أرجاؤه

كأن لون أرضه سماؤه

أقول هب حافظاً ثلاثمائة عام من خلودك فان حاجته اليوم الى الخلود
أشد من حاجته الى غيره . فان ادركك الحرص فاعطه مائة ، واجمع
من العقاد وشكري مائتين ، وفي مرجوى أن لا تضن عليه بهذا الرفد
الفضيل والسلام » .

أشكر لصديقي ظنه بي وثقته بكلمي ولكني لا استطيع أن أصل
رجلاً يقول :

ولا تنس من أمسى يقلب طرفه

فلم ترالا « أنت » في الناس عيناه

فان طلاب الجزء الثالث من كتاب النحو يعلمون ان الصواب أن
يقول (الا اياك) أو (الأك) لا الا أنت (راجع باب الاستثناء) ولا
يأنف أن يقول .

فما مطوقة قد نالها شرك

عند الغروب اليه ساقها القدر

باتت تجاهد هماً وهي آيسة

من النجاة وجنح الليل معتكر

وبسات زغلولها في وكرها فزعا

مروعاً لرجو الأم ينتظر

منسى بأسوأ حالا حين قاطعني
هذا الصديق الخ

- فان قوله في البيت الأول « عند الغروب » لا معنى له فهل كان في بعض أيامه بومة أو غراباً فعلمته التجربة أن الوقوع في الشرك عند الغروب أصعب منه في العصر ، أو في الظهر ، أو في منتصف الليل - هذا الى أنه أخطأ في قوله « لرجوع الأم ينتظر » والصواب حذف اللام واسقاطها من رجوع لان الفعل متعد ولكنه كما قلنا في المقال السابق لا يعرف الفرق بين اللازم والمتعدي ثم أن الفزع والمروع بمعنى واحد فكيف أمنحه يوماً واحداً ؟ ؟ .

على أن الأبيات مسروقة من قول المجنون .

كأن القلب ليلة قيل يغدى
بإيلي العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت
تعالجه وقد علق الجناح
لها فرخان قد غلقا بوكر
فعشهما تصفقه الرياح

فلا بالليل نالت ما ترجى
ولا بالصبح كان لها يراح
لا تزال الرسائل تأتيني من أعرف ومن لا أعرف كأني أهاجم حصنا
منيعاً وأنا وان كنت في غنى عن هذه الأمداد لان هذا الحصن قاعدته
من الرمل وآجره من الهواء الا أنني على ذلك أشكر لمن يكاتبوني تفضلهم

بمؤازرتي وتبرعهم بمحالفتي وسأُنشر ما يأتي من الرسائل اعترافاً لأصحابها بالفضل واليك الرسالة الرابعة قال كاتبها الفاضل بعد الديباجة :

« أليس من التطفل أن يكتب حافظ في مسألة الزوجية وأن يتدخل فيما لا يعنيه لأن المسألة شخصية لا يجوز لأحد أن يتناولها بقلمه . ثم هي بعد ليست مما يقال فيه الشعر وأي شأن لحافظ في جنون صاحب المؤيد بينت النبي أو بينت غيره من الناس وهل حرم الله على الناس أن يعشقوا بنات النبي ؟ ولماذا « يضج العرش والحاملوه ويضج قبر النبي » من أجل ذلك ؟ وماذا على حافظ من كل ذلك وماذا يعنيه ان كان المؤيد لصيقاً ببيت الرسول أو غير لصيق به ؟ هل هو موكل بحراسته وهل ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « آتينا حراسة بيتنا ؟ » أليست هذه القصيدة أدخل في باب الرقاعة منها في باب الشعر ؟ ؟ »

وهذه هي الرسالة الخامسة :

« سيدي »

كن عديري اذا أنا أخذت عليك واحدة في نقدك شاعر النيل — حافظ — فليس من شروط النقد الصحيح لا ولا من العدل أن تعدد سقط الرجل وسرقاته وتغفل حسناته . . . فأنا مهما مجردنا الرجل من الشاعرية فان له على الرغم من ذلك شعراً جيداً عذباً وخوطراً مستحثة رائعة . . . وأين أنت من قصيدته التي بعث بها الى « البابلي » يعاتبه بها وتودد اليه فيها والتي لوقرأها ابن الرومي لخجل من همزته التي يقول فيها :

(*) يشير الكاتب الى واقعة زواج الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد من ابنة أحد الأشراف وفسخ هذا الزواج فيما بعد بحجة عدم أهلية الشيخ علي « العالمي » للزواج من « سلاله الأشراف » لأنه غير كفوء . م.ك.خ

ياأخسي ياأخا الدماعة والرقعة
(م) والظرف والحجا والذكاء

أنت عيني وليس من حق عيني
غص أجفانسانها على الأقداء

أعني قصيدته التي يقول في مطلعها .
أدلال ذاك أم كسل
أم تناس منك أم ملل

والتي يقول في ختامها :
أم وشى واش اليك بنا
فاحشواك الشك (يا بطل)؟؟

ياصديقي لا مؤاخذه
انت يا ابن البابي (. . . ل)

فما عساك قائل بعد (يا بطل) ؟ أو لم يبرز الرجل في النكتة على
« الفار » والسيد قشطه وكامل الأصلي ؟ ؟ «

أقول ان شراً من قوله يا بطل وافطع وصفه لصديقه (بالخول)
وان كان قد حذف الخاء والواو ولم يبق من الكلمة الا اللام ولكن القارىء
لايه أن يفهم المراد ؟ وشر من كل ذلك أن ينشر هذه القصيدة مع سائر
شعره ولكن الآداب في مصر غير مرعية ! والا فأني شيء أهتكت لسر
الحياة وأخذش لوجه الادب من قوله ياخول ؟

على أنا لا نريد ان نحاسب حافظاً على نكاته العامة وانما نريد أن
نظهر للناس ان جده ليس خيراً من هزله — قال حافظ :

وافسى كتابك يزدرى
بالسدر أو بالجواهر
فان قوله يزدرى بالسدر خطأ والصواب يزدرى وقد وقع في هذا
الخطأ في موضع آخر ونبهنا عليه :
وقال حفظه الله .

يا هماما في الزمان له
همة دقت عن الفطن
فان قوله دقت عن الفطن من المضحكات وذاك لأن الهمة التي تدق
عن الفطن لابد ان تكون ضئيلة جداً لا تبين للمتوسم وهو يريد أن
يصفها بالعظم ، ولكن حافظا كما قلنا غير مرة شديد الغفلة اذا أراد
الدم مدح وان أراد المدح ذم انظر قوله للامبراطورة يوجيني :

ان يكن غاب عن جبينك تاج
كان بالغرب اشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج
لا يدانيه في الجلال مداني

فقد اخطأ في قوله غاب عن جبينك لأن التاج لا يكون على الجبين
ولكن فوق الرأس وبين الرأس والجبين بون وأخطأ في ظنه ان في المشيب
عوضاً من التاج وانما المشيب يريد القناء ورسول الموت وأي شيء أبغض
عند النساء من المشيب ولكني لا اظنه يفهم شيئاً من ذلك . وقال أيضاً :

أو كان (في) ظبي الحمى مغرماً
أما هذا الظبي من مرتع

والصواب ان يستبدل (في) بالباء لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال
مغرم فيه وقال أيضاً :

وعين اليم تنظر للبخار
بنظرة وأجد قائق الرجاء

أخطأ في قوله بنظرة وأجد والصواب حذف الباء — وبعد فمن لي بمن
يسأل حافظاً عن هذه العين التي استعارها للبحر ؟ ومتى كان للبحر عيون
كعيون السماء مثلاً ؟ ومن لي بمن يقول لي لماذا ينظر اليم إلى البخار نظرة
وأجد قلتي الرجاء ؟ ؟ إلا أن حافظاً لا يزال يأتينا في كل يوم بما لم يسبق
إليه من السخافات وقال :

هذا هو العمل المبرور فاكتبوا
بالمال إن اكتبنا فيه بالأدب

ليس أثقل على النفس من قوله اكتبنا ولكن حافظاً لا يعرف الفرق
بين همزة الوصل وهمزة القطع ألم يكن خيراً من ذلك أن يقول «إنا»
اكتبنا .

وقال يمدح المولحي :

« لك في دمي حق أردت وفاءه »

فهل للمولحي عنده ثأر ؟ والا فماذا يعني بقوله في دمي ؟ لست
ادري ولا المنجم يدري ؟ ولا حافظ نفسه فيما أظن : لقد كان الصواب
أن يقول في ذمتي وقال أيضاً :

لئن غدا الدهر بنا مدبراً
لا بد للمدبر أن يقبل

من أعلم حافظاً ان المدبر لابد أن يقبل ؟ — هل يقبل الشباب بعد

ذهابه وهل يعود الأمس وهل يحيا الميت وهل وهل ؟ ؟ ؟ ؟ أم تراه
أخذ ذلك من حركات الطابور ؟ ؟

(١١)

بلغنا أن حافظ بك ابراهيم يتوعدنا ويزعم أن كلمة تخرج من فيه
تكفي لطردها من النظارة ، أو احراجنا فيها على القليل ، ونحن لا يعنينا
هذا القول ، ولا يفزعنا هذا الوعيد ، وما كان ليميلنا تهديده عن رأينا
فيه أو يمنعنا من اعلان سخافاتنا واطهار المخزيات المنديات التي جاء
بها في شعره ، والا فانا نعلم مكانته من صاحب العطفة ناظر المعارف
ولا نجعل جاهه العظيم جداً جداً ، ولو كنا نتخشى شيئاً لما أقدمنا
على نقد شعره ، وهبه استطاع أن يلحق بنا ضرراً فهل ينبغي ذلك أنه ليس
بشاعر ، ولكن وزان تفاعيل ، ومقطع أبيات ، وانه أخطأ أفحش الخطأ
في قوله من قصيدته في حريق ميت غمر :

رب ان القضاء انحى عليهم

فاكشف الكرب واحجب الاقدار

وذلك انه كان ينبغي أن يجعل « الأقدار » موضع « القضاء »
والقضاء موضع الأقدار ، لان الاقدار ، هي التي تقدر القضاء ، فاذا
انحى القضاء على قوم لم يغن حجب الأقدار شيئاً وانما يجدي حجب
القضاء لو كان الى ذلك سبيل — وفي قوله من القصيدة بعينها .

غشيتهم والنحس يجري يميناً

ورمتهم والبؤس يجري يساراً

لان الصورة المودعة في البيت مضحكة وأغلب الظن أنه أخذها من
حركات « الطابور » وأوامر اليوزباشية ، وأي شيء اسخف من قوله
النحس يجري يمينا والبؤس يجري يسارا ؟ ولماذا كان هذا كذلك ؟
أليس هذا أشبه بالجنود الهاربة من وجه أعدائها ؟ على ان الشطر الثاني في
معنى الأول فهو اذاً حشو وتكرار . - وفي قوله .

أكلت دورهم فلما استقلت

لم تغادر صغارهم والكبار

لست أدري لماذا كان هذا الترتيب ؟ هل حسب حافظ ان كل شيء
يشبه نظام الجيوش .

فانه اذا صح ما يقول فقد كان ينبغي أن تأكل النار الناس ثم تأكل
بعد ذلك دورهم ولا فإنه لا يعقل أن يكون الناس قد انتظروا في دورهم
حتى أكلتها النار - على انه ليس من الضروري اذا احترقت البيوت أن
يحترق سكانها أيضاً وفي قوله .

أخرجتهم من الديار عراة

حسرو الموت يطلبون الفرار

فاني لا أفهم لماذا أخرجهم من ديارهم عراة لا ثياب على أجسامهم ؟
فهل حرقتها النار أيضاً ؟ وهل ظن أن احتراق اللور يستلزم احتراق
ثيابهم على أن في البيت خطأ آخر وذلك أن خروجهم من الديار هو
فرار فلا معنى لقوله بعد ذلك أنهم يطلبون الفرار ثم كيف يوفق بين
قوله انهم خرجوا يطلبون الفرار حذر الموت (أي أنهم أحياء) وقوله

في البيت الذي قبله ان النار لم تغادر صغارهم والكبار (أي انهم ماتوا جميعاً) — وفي قوله أيضاً .

أيها الرافلون في حل الوشي

(م) يجرون للذيول افتخارا

فقد أخطأ في قوله يجرون للذيول والصواب اسقاط اللام لان الفعل متعد ولكن حافظاً كما أسلفنا غير مرة لا يعرف فرق ما بين اللازم والمتعدي هذا الى انه أخطأ في قوله افتخارا واحسبه اراد اختيالا — والافتخار والاختيال كما يعلم كل واحد ليسا شيئاً واحداً — وفي قوله . « مر بألف لهم وان شئت زدها » .

فانه لا معنى لهذا التحديد ولماذا لم يخله وشأنه فان شاء وهبهم ألفاً وان شاء زاده ؟ ألا ترى ان قوله مر بألف هو غاية ما وصل اليه الانسان من التحكم البار .

وفي قوله :

سال فيه النضار حتى حسبنا

ان ذاك الفناء يجري نضارا

لان معنى البيت : (سال) فيه النضار حتى حسبنا ان ذاك الفناء (يسيل) نضارا او أي شيء بالله أسخف من قوله ان الذهب سال حتى حسبناه سال ؟ ؟ ؟ — وفي قوله :

يكنسون السرور طورا وطورا

في يد الكأس يخلعون الوقارا

من لي أن أراه لابسا « رد نجوت » منسوجة من خيوط السرور
ومن لي بمن يفسر لي قوله في يد الكأس ؟ فهل يعني ان الناس كانوا في
يد الكأس ! أم يعني انهم خلعوا الوقار في يد الكأس ؟ وكلاهما لا معنى
له . الحقيقة ان حافظاً لم يعن شيئاً ولم ينظر الا الى المطابقة بين اكتسى وخلع
وفي قوله .

رب ليل في الدهر قد ضم نحسا
وسعدا وعسرا ويسرا
فهل يعرف ليلا في غير الدهر حتى قال « في الدهر » وهل رأى ليلا
لا يضم سعدا ونحسا وعسرا ويسرا حتى قال « رب » أم تراه لا يعرف
معنى رب ؟ ؟ وهل تعد من الدهر ليلة لا تضم السعد النحس .

وبعد فأى شيطان غيبي أملى عليه هذه القصيدة التي لا يخلو فيها بيت
من خطأ ولا يقع فيها القارئ الا على مترقع ولكننا ندعها الى سواها قال :
رجوتك مرة وعتبت اخرى
فلا أجدي الرجاء ولا العتاب

الصواب أن يقول (فما) بدل (فلا) وقال .

وأكبر ظني أن يوم جلائهم
ويوم نشور الخلق مقترنان
أخذه من قول الشاعر :
ويا سلوة الأيام موعذك الحشر

أو من قول ابن الرومي :

فكأن ليلتنا على لطلوها

ثبتت تمخض عن صباح الموقف

أو من قول العاري .

سسهرت ليلي فنوم العين متبول

كأن ليلي بيوم الحشر موصول

وقال :

ظبي الحمى بالله ما ضركا

إذا رأينا في الكرى طيفكا

فأخطأ لأن حبيبه لا حيلة له في نقرر طيفه كما يعلم الناس وكما
لا يعلم حافظ على ما يظهر وهو لا يمنع طيفه أن يزوره في المنام فبيته
لا يدل إلا على السخف والغفلة وماذا يصنع حبيبه إذا كان طيفه لا يحب
حافظاً ولا يأنس به وإي ذنب لحبيبه حتى يعاتبه على جفوة طيفه !
وهل يلام حبيبه من أجل ذلك ! ! أم هل حبيبه عدوله في طيفه ! ! !

وقال :

وسكنت القصور في بيت خلد

وسكننا عليك بيت الحداد

فأخطأ في ثلاثة مواضع في بيت واحد الأول أن القصور كما يعلم
الاطفال الصغار لا تكون في البيوت والثاني أنه لا يقال بيت خلد ولكن
جنة خلد والثالث أنا سمعنا بثوب الحداد ولكننا لم نسمع ببيت الحداد ؟
لأن الناس لم يروه أبدا .

(١٢)

علم الله أنا لا نحتقر من حافظ الا شعره ، ولا نناكر الا مذهبه ولا نناصب الا قريحته ، والا ألفاظه الرثة ، وأساليبه القلقة ، ومعانيه السقيمة وذوقه الفاسد ، وأغراضه المبتذلة المطروقة ، وقوالبه المشوشة ، وتكلفه الشديد ، ومن ذا الذي يحق له أن ينكر علينا ذلك أو يعيننا به أو يذمه إلينا ، أو ينعي علينا مقتنا لما يستحق المقت ، وأنت فقد تعلم أن الطبيعة البشرية مبنية على التعادي ، وأن الفكر والعمل يبطلان اذا لم يجد الإنسان ما يبغض ، وأن الحياة لولا تناطح العواطف ، وتزاحم الأضداد ، ما آجبن آسن ، وان بياض النهار لا يوضحه الا سواد الليل ، وانك ان لم تجد ما تكره ، فأنت حقيق أن لا تجد ما تحب ، لأن حسن الجميل لا يظهره مثل قياسه الى قبح القبيح ، وكذلك عبقریات الفحول من الشعراء وبراعاتهم وعقائهم لا يكشف لك عن حسنها ونباهتها مثل سخافات المقصرين والمتخلفين أمثال حافظ الذي اتخذت من شعره « توابل » أشحذ بها شهوة الدهن الى ما يعرضه علينا الفحول من شهى الألوان وكريم الطعام ومستطرفة : هذا هو ما دفعني الى تذوق شعر حافظ لا ما ذهب الناس اليه وتوهموه بيننا من العداء ، غير أنني لا أرى بداً من الاعتراف بأن حلقي لم يسخ هذه التوابل البشعة الخبيثة فلفظتها ، وخفت أن يصيب الناس منها ما أصابني ، فأعانت حربي عليها ، وأوضحت لهم ما عساه يحل بهم من المكروه اذا هم تطعموها ، وهذا هو الحامل لي على نقد شعر حافظ ولقد كان بودي أن أجد لحافظ شيئاً لا تنقبض منه النفس ولا ينبو عنه اللوق ، ولكن البحث قد أعيانني حتى يئست مما أطلب فان كان لحافظ شيء من الحسنات فليبعث بها من يعرفها إلينا وسأمضي في ايراد اساءاته حتى يوافيني الناس باحساناته ، فمن ذلك عدا

ما ذكرنا في مقالاتنا السالفة قصيدته التي يصف فيها « هيجو » الشاعر
الفرنسي الذي مسح حافظ من كتبه « البؤساء » والتي يقول في مطلعها :

أعجمي كـأد يعـلـو نجـمـه
في سماء الشعر نجم العربي

هذا البيت شر ما تفتتح به قصيدة يراد بها المدح وذلك لان قوله
أعجمي يشعر بشيء من الاستصغار بشأن المدح واستضآله وقد مضى
الزم الذي كان العرب يتوهمون فيه أنهم خير الأمم وأن ما خلاهم همج
وأعاجم لا قيمة لهم ولا وزن ولكن ذلك دأب حافظ فانه كما أسلفنا
كثيراً ما يلزم من يريد مدحه ، ويطري من يقصد إلى تنقصه وعلى أني لا
أظنه أراد المدح أو الذم بل الأغلب في الظن انه انما جعل باله الى المطابقة
بين الأعجمي والعربي فالبيت على ذلك لا ينطوي على شيء من المعنى .

بيد انه ليس أدل على جهل حافظ بشعر هوجو وبشعر المعري أيضاً
(وان كان من المعجبين به والمدعين قراءة شعره) من قوله في البيت
الذي بعده هذا :

صافح العلياء فيها والتقى
بالمعري فوق هام الشهب

وذلك أن القارئ خليق أن يفهم من هذا البيت أن المعري وهوجو
سواء في المذهب والرأي والا فاماذا جعلهما ياتقيان فوق هام الشهب .
على أن الحال على خلاف ما وصف والأمر على عكس ما خيل إليه لأنه
ليس ثم أشد اختلافاً في المنهج وتبايناً في المنزع من هذين الشاعرين كما
يعلم كل من اطلع على شعرهما ، ولكني لا أظن حافظاً يرى فرق ما بينهما
أو يعاباً بشيء من ذلك

وقال من القصيدة نفسها .

سائلوا الطير اذا ما هاجكم
شجوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أو أرنت بسوى
شعر هوجو بعد عهد العرب

أليس هذا غاية السخف، وضعف الخيال ، وسقم الذوق ،
وجمود الخاطر ، ومن أين علم حافظ ان الطير كانت تتغنى وترن
بشعر العرب حتى ظهر هوجو فعدلت عنه وجعلت بعد ذلك تتغنى
وتتصاح بشعره ؟ وأنت أيها القارىء هل سمعت حمامتين . تتناشدان
الاجنون أو كثير أو المتنبى أو المعري . وهل رأيت مرة في بعض الأوكار
حمامة « عالمة » تقلب بأظافيرها صفحات ديوان واحد من الشعراء
وتقرأ فيها ثم تنقل ما فيها الى لغتها التي لا يعرفها من البشر غير حافظ
وتكتب الترجمة بمنقارها على أوراق الشجر .

وقال حافظ :

أبرىء عنه يعفو مذنب
كيف تسلى العفو كف المذنب
الشران معناه واحد فلا ضرورة اذاً الى أحدهما ، ولست أدري
علة هذا الشغف بالحشو والتكرار تأمل قوله من قصيدته بعينها .
قلت عن نفسك قولا صادقا
لم تشبهه شائبات الكذب

فان قوله : «لم تشبه شائبات الكذب» لاضرورة اليه بعد قوله «صادقا»
 في البيت ولكني أظن حافظاً يحسب التكرار أباغ في التأكيد لا سيما
 اذا أعيا الشاعر أن يتم البيت وانه خير في الجملة أن يكرر الشاعر
 المعنى من أن يختصر البيت هكذا :

كَيْفَ تَسْدِي الْعَفْوُ كَفَ الْمَذْنِبِ

أو هكذا .

قُلْتُ عَنْ نَفْسِكَ قَوْلًا صَادِقًا

ومن أمثلة هذا الحشو قوله :

غَفَى الْمَحْزُونُ وَالشَّاكِي وَأَغْفَى

أَخُو الْبَلَوَى وَنَامَ الْمُسْتَهَامُ

فان معنى البيت نام المحزون والمحزون ونام المحزون ونام المحزون.

وأنظر قوله على لسان اللغة العربية ما أسخفه وأضعفه وأوهى حجته :

وَسَعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً

وَمَا ضَقَّتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتُ

فكَيْفَ أَضْيَقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ

وَتَنْسِيْقُ اسْمَاءَ الْمُخْتَرَعَاتِ

فقد كانت هذه الحجة تصح لو سبق للعرب بهذه المخترعات عهد

أو لو وردت اسمائها في كتاب الله، فأما وذلك لم يكن فلا غرابة أن

ضماقت اللغة عن هذه الأسماء الجديدة والمخترعات الحديثة — على انه ليس ثم لغة تضيق عن العظاات ولا تسعها وانما تضيق اللغة عن اسماء المستحدثات اذا جمدا أهلها .

(١٣)

زلزال مسيني

ليس من فضل ومزية لتصيد من القصائد الا بحسب المعاني التي يريد الشاعر ، والغرض الذي يؤم ، وعلى قدر روعة الموضوع وفخامته ، أورفته ولطافته ، ينبغي أن تكون روعة المعاني وفخامتها ، أورقتها وظرفها ، فانه ليس أدل على سقم الذوق وتخلف الملكة من تباعد ما بين الغرض وطريقة العبارة عنه ، وتعادي ما بين المعنى ولفظه ، وما ظنك بفتاة على رأسها عمامة وفتى يابس أساور وحاقنا . . وانما سبيل الشاعر في ذلك سبيل المصور فكما أن الثاني يلزمه أن يتهللى الى ضرب من التخيير والتدبر في انتقاء الأصباغ وتأليف الألوان وفي مواقعها ومقاديرها وفي كيفية مزجها لها ، وترتيبها اياها ، كذلك يقتضي النظر شيئاً من الحلق والأستاذية وسعة الذرع حتى تستوفي المعاني حظها وتستكمل زينتها . ولايتوهمن أحد أنا نقول ان الشاعر والمصور سواء في كل شيء فان ذلك مالا نذهب اليه ولا نجرأ أن ندعيه فقد يستطيع المصور أن يرسم لك الصورة كما تأخذها عينه ، ولكن الشاعر لا قبل له بذلك ، اذ ليس في طاقة اللفظ أن يغني غناء الريشة ، ولا في وسع الريشة أن تغني غناء اللفظ ، وانما غاية ما تصل اليه مقدرة اللفظ وأقصى ما يقع في امكانه ان يتقل اليك أثر الشيء في النفس ووقعه في القلب ، وما ذلك باليسير لو ظفرت به حيلة ، أو بلغت اليه وسيلة، وهذا سبب خيبة من يحاول أن يتخذ من قلمه ريشة وأن يكون في شعره مصورا .

قدمنا هذه الكلمة الموجزة لنقول أن «حافظاً» لم يوفق في قصيدته التي حاول أن يصف بها زلزال مسيني ، ونبعت حال أهاها . ولست أجهل أن جمهور الناس على غير هذا الرأي وإن السواد الأعظم يعدّها في المتزلة الأولى بين شعره ويضعها في أنحص موضع بين مثيلاتها ، ولكنهم خليقون أن لا يتعجلوا ، فأما اقنعناهم بصحة ما نرى ، وأما صرنا إلى ما يرون . حافظ أشبه بالنوائح اللواتي يجتمعن في المآتم يستبكين النساء ، ويستدررن شؤونهن ، ويصفقن بالأيدي وينقرن على الدفوف ، وحوهن معولات يلطنن حر الخلود ، وهن ما يبضهن جفن ولا تراقهن عبدة .

وأنت فقد تعلم أن كلام النادبات ليس فيه ما يشجي فيبكي ، ولكن المفؤود يحب أن يسك سمعه صدى حزنه وشجوه ، وإن يتوهم أن غيره يشاركه وجده وترحته ، ويقاسمه كمدّه وفجعه ، وربما جاوز ذلك فظن الطبيعة تساهمه أساه . ويخال أن الظلام حداد الكون عليه ، وإن الغمام تبكي لبكائه وإن البرق يومض لناره ، وإن الرعد صدى تهزم الوجد في فؤاده وإلا فكيف تؤول قول الشاعر .

علي والا ما نواح الحمائم
وفي والا ما بكاء الغمام
وعني أثار الرعد صرخة طالب
بشار وهز البرق صفحة صارم

وما زالت الطبيعة منذ القدم وحي الشاعر ، ترفع مرآتها لعينه فيجتلي في صقالها أعماق نفسه . وذلك أن قلب الإنسان لا يحاول البث

والافضاء بنجواه ما دام لا يدري غير شجوه وألمه ، وربما كان في مثل هذا الألم الذي لا يعرف له شبيها ، شعرا صامتا ، ولكنه ما حرك النفس ودفعها الى العبارة عما تجدد والكشف عما تعجن ، ولا أطاق الألم وفتح فم اليأس الصامت مثل مشاركة المرء آلام غيره والاطلاع عليها والعالم بها غير أنه اذا أحس أن همومه أكبر من أن تقاس اليها هموم غيره من البشر ، عاذ بالطبيعة وناجها واجدا في شجوها الصامت مثالا جليلا لما يجده في نفسه ، ويحسه في قلبه . . . يزحف الليل فيفنى ظلام صدره في ظلامه الشامل وسواده المحيط ، وتعود الشمس الى الطلوع فيذكر أيامه العذاب السوالف من أحسن عهد مضى وأحلى وأندى ويتبعها قلبه « في حيثما سقطت من الدهر » ويرى الشمس تلثم الفجر فيحلم بما اختلسه من ساعات الوصل في غفلة من الرقباء وأمان من الزمان ، وتجنح الشمس الى الأصيل فيتبعها رسل النظر حتى يخبو ضرامها ويعلو رماد الطفل وهيجه فيشيم غشايل الرجاء في حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها .

بلى ان في قلب الطبيعة لهموما لا يطلع عليها الأكل من يفهم لغة الحزن الصامت . ولقد كانت هذه الهموم منبع الشعر وما زالت الى اليوم معياً لا ينضب . تأمل قول « وردز ورث » .

« أن في مطامع الفجر للهيبة متوهجاً قصير العمر يشب للشعراء ، ولكم اضطرم قلبي له حين أطلقت نفسي من عقال النوم » .

أما حافظ فليس من هؤلاء الشعراء الذين عناهم وردز ورث ولا قلامة ظفر ، غير انه ان فاته ذاك فلم يفته أن يكون نائحة البلد ونادية القوم ، يقولون له نح فينوح ، وابك هذا الراحل فيبيكيه ، وانذب هذا

الحظ فينديه ، وما أظن حافظاً ينكر علينا هذا الرأي وهو القائل في ختام قصيدة وداع اللورد كرومر بعد أن سرد آراء الناس فيه .

فهذا حديث الناس والناس ألسن
إذا قال هذا صاح هذا مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم
لسـجـلت لي رأيا وبأغت مقصدا

ولكن دموعه أجف من أشعة الشمس لا يستبرد بها قلب ولا
يستروح لسكبها فؤاد كأنها قطع البرد المتساقطة ، وانما كان هذا
كذلك لانه لا يفضي الى القارئ بعاطفة يجيش لها صدره ، ويضطرب
بها جنانه ، ولكن بما يظن أنه أبلغ في التأثير ، وأوقع في تحريك
النفوس ، ومن أجل هذا ترى ابتسامته في شعره جامدة كابتسامة
الموتى ينتفض لها البدن ، ودمعته فاترة لا يتحرك لها شجن ، وزفرته
باردة كفاس ليلة ذات شبم(١) وأناته كصرير الباب طال عليه
القدم .

(١٤)

ذلال مسيني

ترى ما عسى قول حافظ يكون لو سأله سائل : ماذا ذهبت اليه
في هذه القصيدة ، والى أي غاية نزعته : وأي صورة قصدت تصويرها
وأي حقيقة أردت تقريرها ؟

(١) أي باردة .

لا أدري بأي شيء كان يعجب ، على أنه مهما يكن جوابه ، فاني لا أحب أن أجشمة مالا يطبق ، ولا أن اطالب المحال أو أحدث النفس بما لا يكون ذلك لان القصيدة من أولها الى آخرها لاغرض لها ولا مرمى ، وما أرى « حافظاً » فيها الا كمن أراد أن يصف البحر فجعل يحث الحكومة على بناء الأرصفة على ساحله لئلا يغرق فيه الاطفال ، وليست هي بحيث اذا حذفت عنوانها ثم اردت أن تبين غرضها من فحوى بيوتها ، وتتوسم موضوعها من معاريف لفظها ، وجدت ذلك ممكناً ، وألفيته مرأماً هيناً ومطاباً لياً .

ألا ترى كيف أني لو انشدتك هذين البيتين .

ليتها امهلت لتقضي حقوقاً

من وداع الالذات والجيران

لمحة يسعد الصديقان فيها

باجتماع وياتقي العاشقان

ولم أقل لك أنهما من قصيدة له في زلزال مسيني ، لما جرى ببالك أنه يعني بلدا لأن ذلك بعيد عن المعقول ، ولكان أسبق الخواطر الى ظاك ، وأوقعها في خالك ، وأشدها تمثلا في نفسك ، وارجحها في رأيك ، انه يذكر فتاة عجائز بها حمة الفراق واسرع بها قدر الزوى ولو اسمعتك هذه الأبيات على غير معرفة بما يحاول الشاعر .

لا رعي الله ساكن القمم الشم

(م) ولا حياط ساكن القيعان

قد اغارا على اكف براها
بارى الكائنات للاتقان

كيف لم يرحما اناملها الغر
(م) ولم يرققا بتلك البنان

« يريد النور والحيتان » أكان يتراءى لك انه يصف الزلزال ؟ كلا
وانما كان هذا هكذا لان ما اوردت من أبياته يصاح ان يكون لهذا كما
يصلح أن يكون لغيره ، ويصح ان يقال بمناسبة الزلزال ، أو بمناسبة
الحرب وفي هذا دلالة على انه حاد عن القصد ، وخرج عن الغرض ،
وملأ القصيدة بالحشو ، وكظها بما هو أجنبي منها ، وما هو مستكره
على مواضعه فيها . والا فما ذنب النور والحيتان وأي جريرة اقترفت
حتى يلعنها وينجي عليها بالدم ويجعل لسانه عايتها مبرداً ؟ أترأه ظن أن
الخلب كان يكون أيسر والمصاب أهون لو أن هذه الضواري رحمت
ما انتشر على وجه الأرض وانطوى في جوف البحر من الجثث الهامدة
فلم تسرف في جسومها « نقرأ ونهشاً » ؟ وهل « لجرح بميت ايلام »
وما هذا السخف الغريب الذي يذهل المرء عما هو معلوم في بدائه
العقول ؟ وينسى شاعر النيل والشرق جميعاً انه سواء اسرفت النور
والحيتان في « النقر والنهش » أو لم تسرف فان ما كان كان ، ولا حول
له ولا قوة ولا ذنب للنور ولا الحيتان :

وما هذه الغفلة الشديدة التي جعلته يحسب انه لما كانت مسيني
تابعة لايطاليا سياسياً ومن بعض املاكها اليوم فلا بد أن يكون قطانها
كأهل ايطاليا حذقاً في التصوير ، وبراعة في النقش ، ونحت الدمى

والتماثيل ، ومهارة في تشييد « روائع البنيان » ونبوغا في « نصب
جبال الألوان » :

أليست هذه غفلة شديدة منه تدل على انه لا يتدبر ما يقول ، ولا
يتبصر ما ينظم ، والا فمَنْ أنبأه .

ان ذاك الغرار من هذه البيض
(م) وذاك الشرار من ذا الزناد ؟ (١)

حتى قال ان بنان المسينين :

ملهمات من دقة الصنع مالا
يلهم الشعر من دقيق المعاني
من تماثيل كالنجوم الدراري
يهرم الدهر وهي في عنقوان

وما لحافظ واعتناف الأمور واتيانها على جهل والخوض فيما لم يدخل
له في علم ؟ ومن علم حافظاً أن « الجغرافيا » اعذب ما تكون منظومة ،
واحلى ما تقرأ مقروضة ، حتى داهم الناس من حيث لا يتوقعون بهذا
البيت في أول القصيدة .

غليان في الأرض نفس عنه
ثوران في البحر والبركان

(١) البيت للشريف الرضى .

على أنا لو سلمنا جدلاً مع حافظ وأساتذته الذين أخذ عنهم ان
« الجغرافيا » في الشعر أحلى .

« وأعذب من طعم الخلود لطاعم »

وانه لا ثقل لها على النفس ولا تنغيص ولا تكدير ، لكان خليقاً
بالشاعر الذي يريد أن ينظمها أن يأتي بها صحيحة على وجوهها لا
مقلوبة معكوسة النظريات كما فعل « حافظ » في نظرية ثوران البراكين
فقد خلط فيها ما شاء حتى صار أمرها ملتبساً . وذلك أن ثوران البحر
لادخل له في التنفيس عن غليان الأرض، وهو ليس دليلاً من دلائل هذا
الثوران فقد يثور البركان والبحر ساكن ولكن خيال حافظ مضطرب
لا يرى الأشياء الا كذلك .

لو كان لحافظ شيء من سلامة الذوق لفطن الى أنه لا حاجة به الى
هذا البيت الجغرافي بعد قوله قبله :

ليس هذا سبحان ربي ولا ذا

ك ولكن طبيعة الاكوان

وأنت أيها القارئ . فاذا أضفت الى ما ذكرنا من المآخذ أغلاطه
اللغوية والنحوية كقوله :

فاذا الأرض والبحار سواء

فسي خلاق كلاهما غادران

أخطأ في قوله غادران خطأ لا يغتفر ، وذلك لانه لا يصح أن
تقول محمد وعلى كلاهما مصيبان أو غادران ، بل الصواب أن تقول
مصيب أو غادر كقول الشاعر .

لا تحسبن الموت موت الباسى
فانهما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا
أشد من ذاك على كل حال

وقول ابن الرومي يهجو :
ان ابسا حفص وعشـونه
كـلاهما أصبح لي ناصباً

وقوله :
« خسفت ثم أغرقت ثم بادت »
هذه الألفاظ كلها تؤدي معنى القناء فهي حشو .

وقوله :
« غالها قبلك الزمان اغتيالاً »
لفظة اغتيال لا ضرورة لها بعد غالها - وقوله :
كبف لم يرحمها أناملها الغر
(م) ولم يرفقها بتلاك البنان
الشرط الثاني في معنى الأول فلا ضرورة لأحدهما، وقوله :
رب طفل قد ساخ في باطن الأرض
ينادي أمي ! أبي ! أدركاني
فانه على وفرة علامات (النداء) لا يعقل أن الساخ في باطن الأرض
يستطيع شيئاً من ذلك .

أقول اذا أضفت هذا الى ذاك علمت أن هذه القصيدة ليست من
الشعر الجيد في شيء لما فيها من الاغلاط اللغوية والنحوية والمعاني الفاسدة
والخطأ الجغرافي والتاريخي والشطط عن الموضوع :

اذا حسن البكاء على مصـاب
فان بكـاءه السـمج الثقـيلا

* * *

هذا ما كتبنا نقدا لشعر حافظ ولا ندعي أننا أخطنا بكل صغيرة
وكبيرة فان ذلك ما لم نقصد اليه فضلاً عما فيه من التطويل الممل وانما
اردنا ان نقدم للقارئ « أمثلة » مما نأخذ عليه ونعيبه به من تقليده ونظمه
مقالات الصحف وسرقاته وفساد معانيه واضطراب مبانيه وخطئه اللغوي
والنحوي ولو كان له حسنات لا غفرتنا له ما في شعره من السيئات فان
للمتنبي سرقات كثيرة ولكن حسنانه أكثر فليقس القارئ على ما أوردنا
ما لم نورد وهو بعد ذلك قهين أن يصل الى ما وصلنا إليه .

أما شعره الذي نظمه أخيراً فلا نتعرض له الآن ولكننا نقول له يا حافظ
أن الصدق في العبارة عن الاحساس أو الرأي أول ما ينبغي على الشاعر ولو
كان في ذلك عدو الناس جميعاً، فانه يجب أن يكون المرء مقتنعاً بالرأي
اذا أراد أن يقنع غيره به وان يكون الأستاذ تلميذ نفسه وإلا لم يأخذ عنه
أحد — ولتعلم بعد أن حاجتنا الى الأصوات أشد من حاجتنا الى الأصداء
فان كنت تستعجل الشهرة فان الشهرة ليست للأحياء منا ولكن لمن مات
وفات وهي في ذاتها خالدة لا يؤتاها الفتى حتى تنقضي أيامه ويستوفى
أنفاسه فيحيا في عقول الناس وفي قلوبهم ولتعلم ان الرغبة في الشهرة

تختلف عن الزهو في انها خيال تصوري في التمني والزهو شخصي
لان الراغب في الشهرة لا يطلب أن تتطامن لديه المفارق أو تخشع
أمامه العيون وانما يرجو ان يعرف الناس لعبقرياته حقها وحب الحق عند
الشاعر قبل حبه لنفسه هي أول وله المحل الثاني لان لديه من الشواغل
ما يذهله عن نفسه ويسليه عن حبها والافتتان بها والرجل العظيم خليق أن
لا تستسر عليه معرفة نفسه أو يغيب عنه قدرها وهو لا يتهالك على
الاطراء ولا يتشوف الى حلة يخاعها عليه كاتب أو صديق بخلاف
الزهو المنخو فان الاطراء منتج خواطره ومهوى فؤاده ومطمح
بصره ومن كثر ذكره لنفسه خيف عليه أن ينساه الناس والشهرة
لا تنال بقوه الساعد واذا كان طالب المدح لا يلد ما يكتب الا اذا أثنى
عليه الناس وامتدحوه فأخلق بهم أن لا يجدوا فيه ما يلد لان الناس
لا يستحسنون الا ما يمتزج باجزاء نفوسهم ويتصل بقلوبهم فمن اراد
أن يكون عظيماً فليتضاعل في مرأى عينه لان حب الشهرة عبارة عن
عن حب الاتقان فمن كان حقيقاً بها فلا بأس عليه من ابطائها وتؤدتها
فان الحق لا يبلي والطبيعة لا تخلق والزمن يجرد المرء من كل شيء
ما خلا العبقرية والفضيلة فأما ضجة الثناء الكاذب فانها لا تغني من الخلود
شيئاً اذا لم تكن في الشعر بلرته وما أضال الشهرة الكاذبة اذا قيست بشهرة
تراخت عليها الحقب فأكسبتها وقار السن ومهابته ولا يبتس شعراؤنا
بذلك فسوف يصحبون الأيام الخالية ويخبر الدهر ما عندهم فأما أشاد
بذكرهم فنظم حاشيتي البر والبحر وأما حباهم ببرد الغدوض فصاروا
غفلا من الأغفال .

ابراهيم عبد القادر المازني

الجزء الاول

الثنى ٣٠ ملما

الديوان

كتاب في النقد والادب

يتم في عشرة أجزاء



لؤلؤة

عباس محمود العقاد و ابراهيم عبد القادر المازني

محرر بمجلة الاهرام محرر بمجلة الاخبار

الطبعة الثانية

يطلب من مكتبة السعادة بول شارع درب الجاهيز

من جهة باب الخلق بمصر

ابريل سنة ١٩٢١

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) (فان كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الأدب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم) وقد تجددت دواعي للكتابة في أصوله وفنونه أنخصها الأمل في تقديمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسأل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجارة ذلك الأمل ، وتوقي تلك العلل وهو كتاب يتم في عشرة أجزاء . موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة ورأوا بعض آثاره ونهيات الأذهان الفتية المتهلبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في أجزائه العشرة وبما يايه من الكتب نتمم عملاً مبدوءاً ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين إلى الغاية . وأوجز ما نصف به عملنا إن أفلحنا فيه — انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية أخرى ثمرة لقاح

(*) لم يصدر الكاتبان الا الجزأين اللذين نعيد نشرهما هنا . م.خ

القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
ومصري لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لان
لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب
منذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره الا عربياً بحثاً
يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة
أصناماً عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحاً واجب وأيسر
من وضع قسطاس الصحيح، وتعريفه في جميع حالاته، فلهذا اخترنا
أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا
الأجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح
من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لا قدارها . فان أصبنا
الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياناً .

* * *

شوقي في الميزان

توطئة

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر
 بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضججات في البلد ، لا استصغاما لشهرته
 ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب
 الحقيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففاً عن شهرة يزحف
 اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضمن الشحيح ،
 وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق
 من الناس الذين اذا ازدروا شيئاً لسبب يفترونهم لم يبالوا أن يطبق الملاء
 الأعلى والملاء الأسفل على تبعيله والتنويه به فلا يغنينا من شوقي وضجته
 أن يكون لهما في كل يوم زفة، وعلى كل باب وقفة. وقد كان يكون هذا
 شأننا معه اليوم وغداً لولا أن الحرص المقيت أو الوجل علي شهرته
 المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذبح
 به مذهباً تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان
 عن سلعة في السوق والارتقاء إلى أعلى مقام السمعة الأدبية والحياة
 الضكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة
 أن يشتري السنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على
 لباس التهليل والتكبير والطبول والزمر في مناسبة وغير مناسبة وبحق أو

بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسلم عقوة الخلود ، وعفء بعد ذلك على
الافهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والأنصاف وبعدا للحقائق والظنون ،
وتبا للخجل والحياء ، فان المجد سلعة تقتني ولديه الثمن في الخزانة ،
وهل للناس عقول ؟

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في نتاج المدح لشوقي ممن
لا يمدح الناس الا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق
المنتنة نعني بها بعض الصحف الأسبوعية. وعرف من لم يعرفها أنها ما خلقت
الا لثلب الأعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية
التي تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء ودوي المآرب والحزازات
خبز مسموم تستثمره تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة كما تحرك
الهوام وخنشاش الأرض. في بلد لولم يكن فيه من هو شر منهم لما توا
جوعاً أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الأسبوعية وهذا شأنها وتلك
أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقي في كل عدد من أعدادها ،
وهي لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد
نفسها في تمحل الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة
جديدة والا فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف ، وان لم يكن
شعر حديث ولا قديم فالكرم والاريفية والفضل واللوزعية ، وان
ضاق أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر
فيستطال عليه بالشتم ويعبر بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأنه
وهكذا حتى برح الخفاء وانتهكت الدسيمة . والعجب أن يتكرر هذا
يوما بعد يوم ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتال
شوقي وزمرته على شهرتهم ومن أي ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ،
 ويعلمون أنها آفة وأي آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقييمها
 وتقلدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصري وصمة ، الا شوقي .
 فانه يعتدها آلة شرف وأحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه في تقريظها
 ويستريدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب هجاجات من أوباشها
 للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بَصُرَ به بمدیده
 بالسلام الخفي لأولئك الاوباش في خلوة من خلواته لرآها نقیصة
 يخزي لها ويود ان تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء بغزة العرف
 ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقريه.
 فأما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وان يدعي الناس الى
 المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروعة وان يتنادي
 الى الاحتفاء بناهشي الأعراض كما يحتفى بمهذبي الأرواح وهداة
 العقول ، وان يؤيد نقایة المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر
 وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التي لا يبدو قرارها . . . وواخجله
 مصر ! ! من الذي يصنع ذلك فيها ؟ ؟ شعراؤها — الشعراء في كل
 مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون
 غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يزكي
 شعراؤنا من يعد رفق السجائين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ،
 واتساع المجتمع لهم رزعا . . . ألا انه والله للعار وشر من العار .

ولقد استخف شوقي بجمهوره واستخف واستخف حتى لا
 مزيد . ما كفاه ان يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه
 واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذي

يؤدي يده أجرة سوقه واختلاسه . وأقسم لو فعلها رجل في أوروبا
لا قدر ان يمكث بعدها أسبوعاً واحداً في بيئة محترمة ولئن لم يعرف
شوقي مغبتها أدباً زاجراً وجزاء وافراً يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم
البشر ليكونن بلدنا هذا بلداً يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من
شيء ولا يعبد المرء ان يخلع فيه عارياً الا اتقاء طوارئ الجوع
وعوارض الحر والبرد . أما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرأً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندري مم
يستنكف في سبيل بغيته وأي باب لا يطرقة تقريباً الى طلبته . والحقيقة
أن تهالك شوقي على الططنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد
وأذهله عما ليس يلهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحاً للتفصيل
ولا الفرصة سائحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن
يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم . نقول ان تهالك شوقي
على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة
اذ كان أشبه بملاحق أدبي في بلاط أمير مصر السابق وكانت وظيفته
وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف
المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتحماسي
أن توسع صفحاتها لنقله كما توسعها لنقد غيره . وأنت اذا قلبت
الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات في نقد الأدباء المشهورين
كتاباً كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقي عرضة لمثل ذلك من حملاتها
واستن مقالاتين أو ثلاثاً بدأ بها المويلحي نقله في صحيفته مصباح
الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا أدعى إلى الريبة ، وكان في أمانة شوقي
وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء
فكان شوقي يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب

ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغظوا في المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمناذات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك : أو لهم محمود سامي باشا البارودي (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبري باشا (لانه أحدث عهداً بالباشوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقي بك (لانه بك متميز) ورابعهم حافظ بك ابراهيم (لانه أحرز الرتبة أخيراً) وبلي ذلك خليل افندي مطران (لانه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشائخ وهلم جرا كأنهم يرتبونهم في ديوان التشريفات لا في ديوان الآداب !!! فبذلك وما شاكلة اعتاد الناس أن يسمعوا أسيم شوقي مشفوعا بافخم الألقاب غارقا في صيغ الأطناب والأعجاب وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا أن تكرر تلك الصيغ في كل مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء ومسيد الأدباء ، وليت شعري ما ضرورة هذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟؟ ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صديقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها وردوها — ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعني من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم انما يعرفه بالسماع ويلقته بالاشاعة؟؟ فان كان في الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا — مع ان الأغراق في الثناء احجى أن يغوي بالمنافسة ويكثر من النقد . ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المقلب بمرض الصبى
فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه ان يعال بالدهان ، ويؤكد
له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ،
فلا يروى لاحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا
تقرن الى شهرته شهرة . والا فعتوية من يرتكب جريرة الاجادة معروفة !
وما أطول عذابه ان لج به هذا الرسواس ! ! وان المحنة لتستدر الرحمة
ولكن ارحم الناس خديق ان يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة
ويسد الآذان ويضيئ رجب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لا تمخلنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلا عن جهله
باطوار النفوس فان الاذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الدم اذا شبت
من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس
ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه
من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بن يوم وليلة
وأكبر ذنبه عندها أنها أفرطت في محباته ، فهل يدري شوقي أنه يؤجر
أذنبه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة في مدحه ؟ ؟ إنه لا
يدري ولا يرى المريض أن يدري بدائه وعلى نفسها جنت براقش ،
فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حياتهم
ووهن أساليبهم ونضطرهم الى العلل عن أساليبهم المستهجنة رأساً من
صلاحها في هذه الأيام . اد يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا
تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم . ونقول لشوقي
أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجري بأن
يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكره أن يتنفس

الناس الهراء كما يتنفسه ولا يشتفي الا بأن يصفر الدهر من كل بقية
صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيظها .
وانه ليلد لنا أن نكون نحن حربه وبلاءه وأن نستطيع الإدالة للحق
من الباطل في غرض من الأغراض فانها ائمة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة الملحوضة يكون نفع القدر ولزومه ،
فان أباغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، وأضر ما يكون اذا كان متخذاً
نموذجاً للاحسان وقياساً للاتقان . وليس قصارى الأمر ان يقول عامة
القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن أنها قصيدة رديئة فان اللوق
والتميز اذا اختلا لم يكن اختلاهما في الأدب وحده . وأنت اذا
استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من أمة الى القياس الصحيح في تقدير
الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم مالا مزيد
لما منح عليه . وان الأمم تختلف ما تختلف في الرقي والصلاحية ثم يرجع
اختلافها أجمعها الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية أو بالحرى
الفرق في الشعور وفي صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها
فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر
المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الاصلاح وأعماقها .
وسيتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة أو معني معني حتى نتيين الأثر
جلياً في تحول الآراء وسلامة القياس . وسيرى القراء اننا نغلق له
البلاغ ونصحه صمخاً شديداً . وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والسياسة
والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه

وتسخير المأجورين . على اننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بمانعنا
اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتياال باللين
والمداواة على القارئ ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل أحداً اقتناعه .
ومن كان يحتكم برأيه إلى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه
لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثله كلاماً . وانا لبادئون .

* * *

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده فانها في مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهُتِف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حَجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها. فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبوه الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان وكان سبك الحروف وتراصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعاينه أدياء ذلك العهد لندرة الاساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القاريء « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضي الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول اللواوين
البليلة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التي صاغها
أقرب كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات
العامّة ترديد جملها « النحوية الحاوة » وترجمت الأسفار الافرنجية
أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار
الفني أو الأدبي . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الاسماع
فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ أن يبحث عن المعنى
بل لا يكفي القارئ المطالع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله
فمزية شوقي عند هذا الجيل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما
تخطي المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقي اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لهارة ذلك
المبدى، وطفق أذكاء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في ذيل قصيدة
فيعجبون لتغيره ، اغتراراً بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب
الفخم، ويتساءلون: « ماذا أصاب شوقي ؟؟ » ويغالط قراؤه الاقدمون
أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيراً من هذا الشعر، وقد
يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم
مؤنة المقارنة بين قديمه الذي يعجبون به على الذكرى وحديثه الذي
يغضبون أنفسهم على استحسانه فلا يقلدرون - لعرفوا موضع وهمهم
ولعلموا أن شوقي الأمس هو شوقي اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق
الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا
عجب في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقي محله الاول مع انحدار

شعره في نظرهم. فأنهم يرون منزلة شوقي بالعادة التي لم تتغير منذ قدروه للمره الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذي نما وترقى واتسع اطلاعه. وقد جمد شوقي في مكانه لانه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطاً للنمو. ثم لا تنس ان القارئ يرتقي في الاختيار أضعاف ما يرتقي الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقي الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام الشعر أيام الشباب. واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقي لم يجد من نفسه ولا من الناس داعياً إلى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص وال نوادر.

وقد أحس شوقي بالتغير من حوله فأده أن يستدركه وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويح السلعة كلما خيف عليها الكساد ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد وقرى له في نقدها مالا يجب بهت على ما سمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقي .

* * *

تعود أيها القارئ الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ماهو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم — كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون في الأزقة والسبل . دنيا غرور ، كله فان ، الذي عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئاً التقاه « الخ الخ .

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء :

كل حي على المنية غاد
تنوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرناً فقرناً
لم يلم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم
غير باقي مآثر وأيادي
الخ الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
ونزع فيه إلى الاستقلال بالرأي فمعناه أخط من ذلك معدناً وأقل طائلاً
وأفشل مضموناً . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات
الابتدائية « كالزبيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهام جراً . وأكثره
أنفه من هذه الطبقة ، فالقصيدة إما بيت حذفه وإثباته سواء ، أو بيت حذفه
أفضل ، مثل أخباره بأن جر النعش في مركبة أو حمله على الرقاب
سواء .

لا وراء الجياد زيلت جلالا
منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب أحداً يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة في نفسه هزواً وعبثاً . وذلك حيث
يقول :

كل قبر من جانب القفر يبلو
علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخرية :
« انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى إلى طريق الآخرة
لتلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب الموت ! ! »
ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ابقاظاً ونياماً كأنما الموت
يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة .

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيتيسه من رجعة الميت إلى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير
هذا الزعم. يقول ذلك بلهجة العارف لما يحمله غيره كأنها مسألة خلافية
طال فيها الجدل وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس
يوماً من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن أسانيدها وشواهدا
حتى جاء شوقي ففض الخلاف بيته هذين :

سمر مع العمر حيث شئت تؤين
وأفقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه
في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند
لا يزالون يترجون يوم أوبته ويعلمون أيام غربته ، وكان العلماء في
كل قطر وبلد يتساءلون أفرن مات غرباً عن دياره أيؤب إلى أهله

يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعاً بالعافية أو لا يؤب ؟ ؟ فكان فريق
منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » إلى أن جاء شوقي فأفتى
فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الأشكال وقطعت جهيزة
كل خطيب .

قال ناقد أديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل
المثل العامي « اعطني عمرا وارمني في البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيراً
وأقل ظرفاً اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك العامي يتلطف
ان يجبه اناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد الخواطر معروف
مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يتجشم لاجل الانسانية
أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالي في فض مغلقاتها
وحل مشكلاتها لتحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا
يكلفوه ان يؤبه لمثل هذه الهنات ! !

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقي التي لم يرد في فلسفة
الشحاذين مثلها — فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه ان في العالمين نعشا
واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المطي يرماً وهـلدي

تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعني هذا ويزعم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد لنقل عليه موتها فسيحان من يعلم مراده . والا فان كان
يعني ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تلبى وتجدد فأى
تيء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟ ؟ أية مطية لا تنقل العالمين من عهد عاد

كما ينقلهم النعش ، وما بال أي انسان لا يقول اليوم أو بعد مائة جيل انه
ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟ ؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا
وطوت من ملاعب وجياد

شاعر عصري ولا شك ! ! ألا تراه يدين بكروية الأرض ! ؟
ولكننا نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها
الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك : نحن على يقين
منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ ؟ ان الحقائق الخالدة
لا تتعلق بلفظ أو لغة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها
وأعجميها ، وأنت اذا نقلت هذا البيت الى أية لغة لم يكن معناه الا هكذا :
« هذه الغبراء أسقطت من أيدي الملوكة قضا كثيرة ودثرت ميادين
لا عداد لها من ميادين السباق وأبادت خيالا لا تحصى » - فما أشبه
الحكاماء بالمرورين ان كانت ثروة كهذه تقع من نفس أحد موقع
الحقيقة الخالدة .

ويقول .

تطلع الشمس حيث تطلع نضجا
وتنحى لانجل حصاد

تلك حمراء في السماء وهذا
أعوج النصل من مراس الجلال
اليوم لا نخشى بغتة الأجل في كل حين ! ! فالشمس لا تضرج

بدم قنابلها إلا حيث تطلع صبحا (أي حين تطلع حمراء وفي السماء
أما أن طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا
إلا في أيام الهلة أو المحلق وفيما عدا هذه الأوقات لا قتل ولا حصاد ،
فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا
تصدقوه فان موته باطل . . .

ألا أن شعرا يسف إلى هذا المحال بجريرة لم يجنّها على لغة العرب
إلا زغل الصناعة ، لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا
إليه همهم ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا
فأوجبوا على الاظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الأشياء
فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الأحساس بها على
ظواهرها . نظروا إلى الهلال فاذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها ،
وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي ، لأنه لن يهرب يوما
فنفثي أثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ، وإن كان لا بد من التشبيه
فلنشبه ما يبيته في نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ،
ففي هذا لا في رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر
طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا أن لا بد للخلخال من
ساق فقالوا هو في ساق زنجية انظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق
زنجية فأحبوها وشببوا بها إلى آخر ما تتدهور إليه هذه الأوهام .
وأفتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

أنظر إلى حسن هلال بـ
يهتك ممن أنواره الحنـ

كمنجل قد صيغ من فضة

يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم
والنجوم نرجس ، ولا حصد ذلك ولا محصود فماذا وراء هذا
كله ؟ هذر في هذر . وجاء شوقي فقال انه منجل يحصد الأعمار
فاخطأ حتى التشبيه الحسي لأن الأعمار لا تحصد حين يكون الفمر
كالمنجل فحسب ، وأما في سائر الأيام فلا يكون الفمر منجلا في شكل
ولا في حقيقة . فما المراد بكلامه ؟ ؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة
الأرض :

والغبار الذي على صفحاتها

دوران الرحي على الأجساد

ودلك من قول أبي العتاهية .

الناس في غفلاتهم

ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس ولا بأس بهذا التمثيل ،
واقترض للطحن رحي وجعل المنية الطاحنة فيبلغ حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد . فعر على شوقي الا أن يكون لهذا الطحين غبار وأن يكون
الطحين كاه غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند هذا يركد
المعقل ويجم للكلام .

ولم أفهم البيتين الآتين بعد قواه ٢ تلك حمراء في السماء الخ »

ايست شعري تعمدا وأصررا
أهم أعاننا جناية الميلاد
كذب الأزهرات ما الأمر الا
قـلـد رائج بما شاء غساد

يعني الشمس والنمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جناية الميلاد
وما الفرق بينهما ؟ ؟ أيريد ان يطبق على الارهرين المادة القانونية :
مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟ ؟ وفيهم كذبا وكيف يكون جريان
الشمس والقمر في حيث أرساتهما القدرة المحركة لهما تنفيا للقدر
الرائح الغادي ؟ ؟ وهل التعمد والاصرار وإعانة الميلاد الارواح القدر
وعدوه بما يشاء ؟ ؟ أسئلة لا جواب عايتها ولا لوم في ذلك على شاعر
الانس والجن ، فلعل هذه من أبياته التي صنعها لاختوانا الجن واختصمهم
بها دوننا .

ويقول في نعش فريد أو حقيقة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت
وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقي
ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت فيقول شوقي ان نعش
فريد لو لم يمنعه نفاقه مصر لسعي وحده الى مصر ! فلاته ما أقدر
رائي الشمس على احالة الجنيل مضحكاً والتقديس زراية : نعش
يسعى وحده في البر والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل
وينعطف ، ويمضي ويقف ، حتى يستقر ماها عند قبره ، جاداً لا

يلوي على شيء قبل باوغيه ، والناس يتحون عن طريقه ، تاريخيه
يتهدى لطيته . . أفمن هذه الصور يتترع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟ ؟
ما أصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقي . أراد أن يقول كما قال
البحري :

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
فسي وسعه لسعي اليك المنبر
فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقي الى معارضة المعري في قصيدة من غرر شعره لم
ينظم مثلها في لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا في شعر العرب على خير
منها في موضوعها . والمعري رجل تيمم هذه الحياة محراباً واحتواها
غابا وصدف عنها سراياً - لا بس منها خفايا أسرارها ، واشتف
مرارة مقدارها ، وتتبع غواير آثارها ، وحواضر أطوارها . فاذا هو
نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك بحاله وتلك سبيله .
وأبن شوقي من هذا المقام ؟ ؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة
لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط إلى نفسه من آلامها اعراضه
أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر في فلسفة الموت والحياة .
ولكي لا يسبق الى وهم شوقي اننا نكبر قصيدة المعري تعصبا
للقديم واثيراً للعرب على العجم نلقي اليه ها هنا درساً في الشعر قد
ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لامن
يعددها ويخصي أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك

عن الشيء ماذا يشبه وإنما مزيجته ان يقول ما هو وبكشف لك عن لبابه
وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا في أشواط
البصر والسمع وإنما همهم ان يتعاطقوا ويودع أحسنهم وأطبعهم في
نفس اخوانه زبدة ما . آه وسمعه وخلصة ما استطابه أو كرهه .
وإذا كان كذلك من التشبيه ان تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين أو
أشياء مثله في الاحمرار فما زدت عن أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء
حمرًا بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه ان تطيع في وجدان سامعك
وفكره صورة واضحة مما انصب في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه
لرسم الأشكال والألوان فان الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان
محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لتقل الشعور بهذه الأشكال
والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع
مداه ونفاذه الى: صميم الأشياء يمتاز الشاعر عن سواه ، ولهذا لاغيره
كان كلامه مطرباً مؤثراً أو كانت النفوس تواقه الى سماعه واستيعابه
لانه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرأة النور نورا . فالمرأة تعكس على
البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على
الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صبح هذا التعبير ، ويزيد
الوجدان احساسا بوجوده وصفوة للقول إن المحاك الذي لا يخطيء
في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع الى مصدر
أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء
الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود اليه المحسوسات كما تعود الأغذية
الى الدم ونفحات الزهر الى عنبر العطر فذلك شعر الطبع القوي
والحقيقة الجوهرية (وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو

شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاماً أشرف منه
بكلم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعري التي
اجترأت على معارضتها .

نظر المعري الى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ،
حادثاً متكرراً تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة
العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء وأصحاب الأديان ،
وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني . حرباً سرمدية قائمة بين
قوتين خفيفتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة في طباق الأرضين
وآجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أو هما النور
والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود
لا تغفل ، وأحزان لا تنفي تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها
تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدها اليوم
وغدا ، وتشهدها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير مختصر ما رأى ،
ولا نجواً مقصياً ما أحس ووعي ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء
والفناء قائماً في كل كيان قائم ، متقادماً في كل ركن متقادماً :

كل بيت للهدم ما تبني السور

قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلتان هذا
الفاعل لا محالة في أشرف كواكب السماء وأسمائها ، وأضوأ عوالم
النور وأذكاهها .

رحل أشرف الكواكب داراً
 من لقاء الردى على ميعاد
 ولنار المريخ من حدثان الد
 هر مطف وان علت في اتقاد
 والثريا رهينة بافتراق الشمـ
 مل حتى تعد في الأفراد
 لا بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين في كل حال
 واللييب اللييب من ليس بغة
 ربكون مصيره للفساد
 وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على
 مشهد من ذلك النضال السرمـ ، فوق أفراح الانسان وأحزانه . ولو
 نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :
 غير مجد في ملتي واعتقادي
 نسوح بـاك ولا ترنم شاد
 وشبيه صوت النعي اذا قيه
 ن بصوت البشير في كل نـاد
 إن حزننا في ساعة الموت اضـ
 اف خـرور في ساعة الميلاد

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم .

أسف غير نافس واجتهاد
لا يؤدي إلى غناء اجتهاد
كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو أوسع احساس
قدر لبشري أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟ ؟ لعلك أدري بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئاً يحتاج الناظر في رؤيته
الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوي
المعري بين وكر الوراق ومعاقل العظماء وبين منازل الأرض ودارات
السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففائك مغزى تعميمه وجئت بكلام
لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين الحاضر والبدو من فرق
في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما في حكم الموت . وانما
يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان أحدهما قد يسمع ما ليس
يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الأخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر
والبادي لمثل هذا السبب . وأما قولك بموت من في الحاضرة والبادية
فكذلك الناس اسما اسما وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى أنه
لو صح أن يقال هذا فأني فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب
الحكيم والطبع القويم ؟ ؟ وتقول في القبر أنه منار المعاد .

وزمام الركاب من كل فج
ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟ ؟ وتقول

وعلى نائم وسهرا منها
قدر لا ينام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

ليسد ساقه الردى وأظن الذ

سر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب إلى غيره وعمدنا إلى مقارنة الأبيات
المتشابهة في القصيدتين ألفيناك تخطئ في كل بيت تسرقه من المعري ،
أو تأتي بالهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعري يقول :

رب لحد قد صار لحد مرارا

ضاحك من تراحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين

في طويل الأزمان والآباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب الدفين
بعد الدفين في الموضع الواحد بتراحم الأضداد وقوله أن اللحد يعجب
ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت
بالأحياء وعبث التراحم على الحياة : ويسلط الله عليك نفسك فتسول
لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى كالترايب أحسن عدلا

وقياما على حقوق العباد

نزل الأقوياء فيه على الضع

في وحل الملوك بالزهاد

صفحات نقيّة كقلوب الر سل مغسولة من الأحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لانه يبيدهم جميعاً ! ! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟ ؟ وما الذي لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الأنصاف والصيانة ؟ ؟ وبخيل اليك أنك أبدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد في التراب ، وهذا من فضائل الموت ! ! ، فهل تعني أن الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟ ؟ فان كنت لا تعني ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقلته لغير غرض — أما المعري فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئاً من الصديق أو بلاغة الأسلوب حين قال .

وعزّيز على خلط الليالي
رم أقلامكم برم الهوادي

وهذه هي البلاغة الجادة التي لا لعب فيها .

وعندك إن طهارة القلب هي موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقياً مغسولاً كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟ ؟
يقول المعري .

خفف الوطء ما أظن أديم الأر
رض إلا من هذه الأجساد
وأنت تقول :

والغبار الذي على صفحتها
دوران الرحى على الأجساد

المعري يسأل :

أبكيت تلسكم الحمامة أم غنت
على فرع غصنها المياد
وأنت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغني وتبكي
فتقول .

ضاق عن ثكلها البكى فتغنت
رب ثكل سمعته من شاد
ثم يروقك وأنت تبارى المعري مباراة المضحكين ان تزعج لناجيتك
ولنفسك انك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة في آية من
آياته ! !

على انك قد تعذر بعض العذر في قصررك من هذه الناحية لانك مجبر
فيه لا مخير . أما الأمر الذي لا نعلم لك منه علرا فأنت تروى رجلا كفيرد
بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا ميرته الا عرضا ، وان لا يخرج تأبينك
له عما قد يرثي به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق في مضطرب
القول أو لتقص في بواعث الأسى على الرجل لا خفي تعليله ولكنك تعلم
كما نعلم أن مصر الحديث لم تنجب من دعائها رجلا لقي في حياته
وموته مما يستثير دفاثن الحزن ويظيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد .
فتهاونك في قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود .
فان لم يكن هذا ولا ذاك فلاحتة لا تزال تغلي في نفسك على الرجل بعد
موته : وأنت بأسبابها أعلم .

* * *

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق أن يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو ينوي
الدم فيأتي بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك اغيالا في سقم
الذوق وتغلغلا في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ،
وتخفي عليه مظان الضحك وهو في موقف التأين والرثاء ، والعبرة
بالفناء :

واست أدري أي ماجن من نظامينا قال هذا البيت في رثاء أحدى
القيان :

رحمة العود والكمـنـجـا عليها
وصـلـاة المـزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائلة ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا الموقف ،
أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه أسلم ذوقا في بيته هذا
من شوقي في رثائه لعثمان غالب : لانه تعمد الهزل فقالاه وما كان شوقي
كذلك حين رثي ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء :

ضجبت لمصرع غالب
في الأرض (مملكة النبات)

أمست (بتبجـان) عليـه
من الحداد منكسات

قامت على (ساق) لغيره
 بشه وأقعدت الجهات ! ! !
 في مأتم تلقى الطيب
 حمة فيه يين النائحات
 وترى (نجوم الأرض) من
 جزع موابد . كاسفات
 والزهر في أكمامه
 يينكي بسمع الغاديات
 جاست أقاحي الربي
 والعهد فيها . مومضات ! !
 وشقائق النعمان آ
 بت بالخلود غمشات

بل مما لا مرأ فيه أن صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر
 بوعده لنفسه واغبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات الأنيقة . : :
 لأنه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير موضعها ، ولعمري
 كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله
 والعاشق ليلاه . يذكرهما في غضبه ورضاه ، وفي لهوه وبلواه ، وفي
 فرحة وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته وكراه — ويذكرهما
 حين يصف الصخراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروي
 عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة : وكيف
 يكون مطبوعا على الفن ، ملها بفتن الجمال من اذا وصف

الجثة الجائلة ، لم يقل انها صفراء كالأفحواة . أو المتميز من الحق
يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشقة لم ير انه
يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !
وشوقي لم يوف هذا الغرض فحسب بل أرانا أن الأزهار لا تجري
على سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هي
غرس يده وجني معرفته ونبت نعمته ورعايته : فلو فجعت البلاد
مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة أن تذيل دمة
أسفل فرقة وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل
أسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جموداً لهول المصيبة فيه .
وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقاناً ، ولين
القصدير ذوباناً ، إلى آخر ما هنا لك من الوان العذاب التي تلم بالمعادن
الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم « جيولوجي » لما قال شيئاً من ذلك
بل كان يقول (مثلاً) ان الطبقة الرملية في ناحية كذا تحشو التراب
على رأسها فزعا ورعبا ، وان الطبقة الجيرية في موضع كذا تختنق من
ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو
تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله نفل القضاء في شاعر جليل فانه
أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والإقواء والخبن والستاد
وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قنلت أو تقال من يوم خلق
الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي ألحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ،
وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة في سهيل الخيل
ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان
العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟ ؟

هذا ما نسأل الله اللطف فيه فانا ان احتملنا حداد الألوان والأشكال
فان نطبق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن واأسفاه ! ! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة
في هذه الدنيا الفانية ! ! وليس من السهل ان يقول الانسان ان الأشجار
قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في
مكانها منذ الأزل ولا من الهين ان يحشر الطبيعة « لا أكثر » في مأتم
تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب ان يصل في كل ساعة
الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار — ولا سيما النفيسة
منها — كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول
الرجل القاني منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ،
لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل
الصحيح والشعر الجدي والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقي
على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاسة
حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقي ولا مبالاة . . .
تقول ولكنه مع ذلك كان سخيلاً غثاً صعيماً الملكة مشنوء السليقة . . .
ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتمنن وروى . أجل ! !
انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرتبه أولئك السذج
البلهاء ، الذين يحسبون ان الاختصائين اذا ماتوا فجعوا أحداً غير
المواد التي تفرغوا لدروسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى
أحد أولئك الاختصائين أسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة)
ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب

السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها إلى الطبيعة كلها بارضها وسمائها
وأمواتها وأحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ،
آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي
وافتنانه ، والاشادة بخلافه وبيانه . لولا أننا آثرنا ان لا يفوتنا سؤاله
عن أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها - ماذا كان من
شأن القطن بأصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل
والكراث والملوخية والفشاء في ذلك المأتم العميم الذي كانت الطبيعة فيه
احدى النائحات « فقط » ؟ ؟ انه سكنت عن هذه الأنواع وغيرها فهل
ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم لان من خواص تلك الأنواع
التي يعملها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضیعة للعهد ناكرة للجميل ؟ ؟
أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه
قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟ ؟ أم هو
الصدق في الخبر والأمانة في التبليغ أوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت
عن فريق : رأى الرجل الاقاحي باهتة ذابلة على غير عهدا وأبصر
شقائى النعمان تخمش خلودها فابراً ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن
ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئاً فرباً بشعره عن شهادة الزور والتخرص
وسجل عليها ما سجل من جمود الطبايع وقسوة القلوب ؟ ؟ تلك أسئلة
ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا أننا تعلمنا مذ الآن ان نرقب
أعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلال الانباء
واستطلاعاً لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها

النجايون ، ولولا أننا عرفنا ماذا ينبغي ان تحذر الأمة من موت
الاخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسئولة ان تبصن بازواجهم مخافة ان
تمتقع نرجسة أو تسود فحمة . . .

انتقل شوقي من رثاء العالم النباتي الى رثاء العالم الطيب فقال مفصلاً
مقسماً :

أما مصاب الطيب في —
ففسيل به ملأ الاسبابة
أودى . الحمام . بشيخهم
ومآبهم . في العضلات
ملقني الدروس المسفراً
ت عن الغرور المشنرات

والقاري يرى انه لم ينح نحوه الأول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجاناً له أو توبة عنه . وانما خائنه القريحة وخلله الاختراع .
والا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة — مثل
هذه الأبيات .

طنربت لمصرع . غالب
في الأرض . رسل الحميات
قد مات (غالب) جندهما
فتمردت . بعد (الممات)
أمت جراثيم الملا
ريسا من سرور (ظاهرات)

وتفسق التيفوس والـ
تتفود في كل الجهات
وتألب المكروب والـ
بكتيريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيا
دل بالدموع السائلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد .
ومن لم يعجبه تقليدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء
وندنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتياز » الأصلي يعرض بنانه
ندما على قواف هذه التتمة الصالحة فإنه ليس أغص للنفس من فرصة
يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها

كذلك يؤنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتكهمون ؟ ؟ وأما والله
لو توخي هذا الذي شمر لتأين عثمان غالب أن يمازح الرجل بكلام
يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا في الذعابة مستهترا بالمجون
متبسطا في الفكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه النغمة . فليت
شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟ ؟
أبدوق الشاعر المقطور الذي يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر
والذي لا تدق عنه أنحف همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفي
ألوانها ؟ ؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة
مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغي أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من
خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة . لما أخطأنا فما ظنك بأميز شعراء

لا يميز بين احساسين اثنين صخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان
أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط
والانشراف : والثاني انما يخامرها في أقدمس مواقف الموت وأجائها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . ! ! ألا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن في دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتقرز منه النفس تقرزها
من الشاعرات الجسدية . وهذا السخف الذي تمنونا بلاده الأغبياء
بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقدره لانه كالورم الذي يخيل الى
الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهو الى يقبله
ويرمقه ، وحسب الطبع تقرزاً أن يرى الدماطل مقبلة مرموقة .

ومن نظر إلى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من
رؤية عاهاتهم ومقادرهم خليق أن يدرك اشمأزناً حين ننظر فترى
حولنا العشرات والمئات من ذوي العاهات النفسية البارزة يستحسنون
مثل هذا الشعر على غثائته وعواربه بل هو لا يروقهم الا لما فيه من
غثائه وعوار — خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج في
طبائعها وأذواقها أنها تافقت لفرط ما أدخلت إلى الكسل والضعف
وتلوث بلقارة المشاغل التي بقي لها أن تعني بها وتكثرت لها ونغلت
لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر ودل الحوادث والحاح الاحساس
الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء للزب شر ما تمنى به
نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجدل والتمادي في الهزل
واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من

الحقائق ديدناً لها بل كادت تكون خلقاً ثابتاً فيها . وساء فهمهم للنوق السليم فأصبح جهد النوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخت الترف المؤث ، وما كان اللين والترطب قط عنواناً على ارتقاء النوق الانساني وحسن استعداده وانماهما تقيض هذا النوق وأقرب إلى الوحشية منهما إلى الانسانية — ألا ترى إلى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ في دماهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذدون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذد بما تأكل وما تشرب ؟ ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد ! ! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق ما لم يروه الرايون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

* * *

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد النوق فانتقل إلى عيب آخر من عيوبه يرفيه قسطه من الدلائل والعلامات . ألا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفى هذه المرة إلى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية
الله أحياء الموميات

يأمر الشاعر المراثي أن يقوم من الموت . ولماذا ؟ ؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التي سيرها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت إلى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر إلى

ميث يبعث فهل سمعتم في العي والاحالة ما هو أحق من هذا
 اللغظ الفارغ الخاوي ؟ ؟ أليس هذا كإيقاظ النائم « ليتنزع » على نائم
 يتيقظ، وكحمل المقعد إلى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر إلى
 مقعد يعرض في المسارح للمتعجبين ؟ ؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج
 في أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث الموميات التي يعينها شوقي
 لان موت الامم مجازي لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقي
 لارجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الاستاذ
 غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر
 عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة إلى قلب نظام الكون وازعاجه في
 ضريحه ، لاشيء الا أن يرى المعجزة التي قد رآها وبعد فليذكر
 شوقي أن الذين يدعوه بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره
 ونقلت فيهم دساته وجاز عليهم احتياله على الشهرة، فأن كان هو
 شاعر آلاحد فهو شاعر الموميات، وان كان لشهرته محد فهو اليوم
 الذي يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى

وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الزلج من شاعر « الموميات » باقامة الاموات ؟ ! فهو
 ينادي عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم ببساط الريح
 قام » ويهتف بالاستاذ الامام شامتاً « قم اليوم فسر للورى آية الموت »
 ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا
 نحصره ولا نود أن نحصره . . . أفلم يكفيه قيام الاحياء حتى يقوم له
 كل من في التراب ! ! !

ولم ينس شوقي براعة المقطع فحتم القصيدة بأليق بيتين يتممان
ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله
فأثنى بأحدى المعجزات

عيسى الشعور اذا مشى
رد الشعوب إلى الحياة

ففي كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف
بالفرق بين الفكر والشعور ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل
للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول
أحياناً . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما في
معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفتن إلى هذا الفرق فيجعل الفكر
والشعور شيئاً واحداً ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة
وكلنا يعلم أن الحياة هي التي تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر
الا سهواً ولا يشعر الا لهواً ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة
الا عفواً لجري أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل
الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية ..

* * *

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلداً للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكتافها ويتحرى عجائبها ويستكنه شوقي فأسمعه أن ها هنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الالقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الارض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — إلى أشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائناً من كان في العالمين . وقد تعلم أيها القارئ أن أذكاء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون إعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والارض والسماء ، وان كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتي بشاعر أوروبا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجيين به وتداول طبقات كتبه مسوغ لهذا اللقب . يجب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية

وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الاوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوي عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن طريق وانج من جماعة الظباء السائرة في الرمل ومن جماعة الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقي :

أَنْ عَنَانِ الْقَلْبِ وَاسْلَمْ بِهِ

مَنْ رَبَّ الرَّمْلِ وَمَنْ سَرَّ بِهِ

فيصفح الرجل عن التكرار ظاناً أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم أن فصائل الظباء والأياثل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الارض فيتقونها ويهربون منها لضراوتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الاوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه في ذلك فاذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامة الاستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس في بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة — ما إلى هذا قصد شاعرنا . وانما هو يعني النساء »

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟ ؟ يسأل الرجل مستغرباً فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويحييه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالطبيرة اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الطبيرة الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية . »

نقول : ولا يبعد أن يرتضي الشاعر الغربي هذا التشبيه على أنه
منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا
ولكني لأدري لم ينقل شاعركم ومال الصحراء مع العيون الكحلاء ،
ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء
ووعولا ؟ ؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه . « اذن فصاحبكم عاشق
يتغنى ! »

وما أشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد
عنقه كمن لا يرى داعياً لذلك الافتراض : « ولماذا ؟ ؟ ان الشاعر
ليتنزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين »
فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الامزجة
والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد
في الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟ ؟ ولئن صح ما
ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الامة ليكون اذن بين فرضين
اثنين ليس واحد منهما يجائر في العقول : فأما ان الشرقيين ركبت
قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربي أتى الخلف
المصري متغزلاً بعد عدة قرون . . ، وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء
الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما
ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهي
غريزة العشق الجنسي . وما خلق الله لأمريء من قلبيين في جوف
واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم
ويقول لمت ترجمه : « أنا لاني قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة .

على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا « فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسراً : « ان الغربيين كما يتسلون أحياناً بنبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين أو يتربون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة . رياضة وتفكها لاجداً والتزاماً . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة » .

فيفغر المسكين فاه تحيراً مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجي والغازا . ويظن انه يلدب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكياً ولا مستريضاً وانما نظمها في مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهي العجب باليقين — فان كان الرجل قد ارتضى التقليد في التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام في نهضات الأمم بالغزل صادقاً كان أو مستعاراً ، وان يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلأ ، تمهيداً للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يثن ويتوجع ، في حيث يفخر ويرتفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصيح والاهابة ، فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان أعوزته دلائل الحكم على منحي أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهاننا يحكم

به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانب ، ثم لا يكون بعد ذلك
الا معذورا .

* * *

. ونحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها
ان يفهموا على أي وجه تنوح غثائث التقليد لمن خلصت عقولهم من
سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فأني
انسان مجرد . من الانخداع بالتكرار وخلع ربة التقليد لا يشعر لاول
وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر ؟ ؟ ما الشعر الا كلام
فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن
وضعا للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت
فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ،
حتى اذا تهيأ للشعر لم يخلج أن يخلط في قصيدة واحدة بين أبعد
موضوعين عن الانتظام في نسق واحد ؟ ؟ فلو انه كان صادقا في عشقه
لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ،
فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان ! !

* * *

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضي حياته على سفر : لا يقيم الا
على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤي تهيج
ذكره ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجيره كلما راح أو غدا حبيبة
يسحن إلى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر

في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصي بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يبدأونها أحياناً بوصف ما تجشموه في سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحياناً كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيّاً إلى الممدوح كناية عن الشوق إلى لقائه ، وكان الغرض في الحاليتين واحداً وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مثوبته ، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطي في قصائد نظمت في المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يقدون على الأمصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء إلى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقلداً حسناً فعنى على المتقدمين بكاء الدمن والطاول وأفرد كثيراً من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب

ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في بائته المشهورة التي مدح بها
المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التي أولها :

الحق أبلج والسيوف عوار
فحذار من أسد العرين حذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى اروم
فقال مفتتحاً .

ذي المعالي فليعلنون من تعالى
هكذا هكنا والا فللا

حال أعدائنا عظيم وسيف الد
ولة ابن السيوف أعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند
انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

وكما صنع الشريف واضرابه في كثير من قصائد المدح والفخر على
اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل
الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الخضر جيل كان أحدهم يقصد
الامير في المدينة وانه لعل خطوات من داره فكأتما قدم عليه من نجوم
الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي أنضأها
وجقوق الصبابة التي قضأها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في

مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث الملهمة والجوائح الطامة . هؤلاء
المقلدون الجاحدون . والآن وقد بادت الطاول والقصور ونسخت
آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لاحد من
المتقدمين على بال .. يجيء شوقي فيتماجن ويتصايى في مطلع قصيدة
ينظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال إلى جدها
وانتبه الغافل من لعبه

ويجيء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد
للمقلدين الجاحدين انه مجدد وأنه عصري بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لاجله آتيان هذه المجانة والعبث ؟
فقد يكون له عنبر الاجادة لو كان مبتدعاً فيه أقل ابتداع وان حق
عليه اللوم لوضعه في غير موضعه - ولكنه هو الغزل الرث الذي
ليكت معانيه واوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه
مذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الزانين لم يغسل رجله
في وعاء هذه المعاني التي نضح بها شعر أمير الشعراء ؟ وقد يطول
بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه :
« قد يتثنى كاللبانة » « أردف مرتجة كالكتبان أي كأكوام الرمل »
« خد كالورد » . « حسان كالاقمار أو كالنجوم » . « مشبة كمشية
القطا » . « عيتان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » إلى
بقية تلك الكناسة الشعرية المنيبوذة . وهذه هي روح العصر فيما
يحدثون ! !

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة وأنها خلو من الاسباب والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعري فيه ففي بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى
وزاده خصباً على خصبه
لولا استلام الخلق أرسانه
شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لأليق نحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر فضل في التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لا بطل) .

ولأسهب في التعليق على البيتين ولكني أروي مشاهدة يتبين منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن في الاطفال اللاعبين خيالاً أفطن وتمييزاً أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطارادات الجالحة التي تجري فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والحواسق وتتطاير الكراسي والاواني . وهي كثيرة لأظن زائراً من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها — حضرت منظراً من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه واستمر الكر والفر والمهجوم والمراوغة إلى

ان وثب الهارب في منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه في سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق في الملعب طفل لم يستفزه العجب فيشب ضاحكاً . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يروونه وانما ضحكوا لان المنظر مضحك على كل حال فابت شاعرنا الكبير الذي قرع أبواب الخيال نيفاً وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الاطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصبور الذهبية خطوة فيرى القطار شاباً فوق الرأس في طريقه إلى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرسلاته يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا أنهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد لله لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ »

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيهه لأصل له. ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والمطر غير التجانس في الحروف وهكذا تتعاقب اشعار المقلدين بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقي كما قلنا في أول المقال مقلد المقلدين :

* * *

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحداً يتقبله ويحله المترلة التي أحلته فيها لجنة الاغاني والالخان . فان ألمانا به الماماً في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وانها في أكثر الأحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما في أوروبا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها إلى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغاني للحكم في أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه هذه الكفاءة وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جملة قل بين أعضاء اللجنة من يبد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الأناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيراً بتوقيع الألحان على المعاني ، مطلعاً على أناشيد الأمم ، بصيراً باخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأي والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟ إننا نعرف

من بين أعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم في علومهم ونراهم أهلا للحكم في أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها. بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء. وإذا علمت أن الرجل من الاختصاصيين يقضي العمر في فنه باحثاً منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطئ ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما ينفرغ له ولم يدع الحلق به. ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الأمضاء ، ولا ندري لم تكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطاً ضروريا لتراثة الحكم ثم مسحوا لاحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء إلى رفضه ؟ ؟ بل لا ندري لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟ ؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟ ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في إحدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضائها للظفر في أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ ؟ فهل معنى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟ ؟

وما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ،

ورדתه الى صاحبه ليجتهد في اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك ان
عضوا عاب قوله :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز وكن

ليس لكم بوادي النيل عدن؟؟
الـخ — الـخ

وقال ان البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح بيناء
الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والنيل بالكوثر؟؟ فوافقوه
على انتقاده وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتين ومعناها :

جعلنا مصر ملة ذي الجلال
والفنا . الصليب على الهلال

واقبلنا كصف من عوال
يشد السميري السميريا

فانتقدوا قوله « ملة ذي الجلال » ونقل الي أن أحدهم قال :
اننا نجعل مصر وطننا يشترك في حبه ابناؤها ، وأما ملة ذي الجلال
فهي الملة التي يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذي الجلال » وهو
انتقاد شديد فأنا ان سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون الاسلام
والمسيحية واليهودية ؟ انما يقال اتحدوا في الوطن واتركوا الدين
للدیان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله « فنا
على الهلال » ولا ذكره السميري ، وقال آخر ان عبارة « كصف من
عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروي الانتقاد ولا نحمل تبعته .

ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ. مع المحافظة على المعنى
فأصلح بيتاً واحداً وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت :

نموت اليك مصر كما حيينا

ويبقى وجهك المضيء حيا

وكانوا قد أدخلوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع في
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
رضاك مصر الخ » - وقد نشر كذلك في صحيفة الأخبار - فلم يقتنعوا
فجعلها أديب في النسخ الأخيرة « نموت فداك » فاقنعوا ؟ !

ونذكر أيضاً أنه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين
جاء بهم ليحكموا في أي الاناشيد أصلح للفخر القومي وأشد اعتلاجاً
في النفس وابتعائاً للحمية ومطابقة لنفسية الأمة ! ! وليدبروه في اللحن
الذي يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه الوائي
فتضطرم نفسه عزماً ، والياس فيهمج إلى الامل قدماً ، والعلو
فيتضع قلبه رعباً وغماً . . وليكون اللحن صوت الأمة في سمع
التاريخ ونحوها في المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظالمين
هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق باسان النفس بائسة
وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومتهللة
وهل فيهم من يروى بانغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة
الكون وبهجته كما ينبغي ان تكون الموسيقى ؟ ؟ لقد علم كل انسان
أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها أصوات
الذل والضراعة وألحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ويسمعهما الصباحي
فينام .

ثم نذكر تبرع شوقي بالجائزة لنادي الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار يخلد أحدهم انه على غناه يطعم في مائة جنية يحتجتها لنفسه فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادي الموسيقى ، والنادي بحاجة إلى اعانة المتبرعين .

ولاننس ان اللجنة حكمت المويلحي ، وهو رجل تصل إليه هدايا شوقي . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه إلى ارسال رأيه اضطراراً . وحكمت حافطاً وقد عرف أصحابه انه يتقي ان يرمى بالحسد ان أوماً بالتقد إلى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد في الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما أعلن الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقي سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أموراً لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة في جماتها . فلنعد إلى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان ناتمى فيه أبسط الخصال التي هي قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية .

. يشترط في النشيد القومي قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون وعظاً بل حماسة ونخوة وان يكون موضوعاً على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟ ؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق مشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب إلى الاخبار منه إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنا الهرم الذي صخب الزماناً
ومَن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالي تماماً
أوائل علموا الامم الرقياً

وليس في هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس
فيهما قوة لا تجد مثلاً في قول من يقول « كان لي بيت سمته كذا من
الاذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يخشاه من جميع النوافذ ،
إلى آخر أوصاف المساحة .. » فأني فرق بين قص المعلومات والحماسة
اذن ؟ ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا الشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
نم عن أعنات المفيد المجهود فحفظت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيماً
واستعصي الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « مثلت » سملت و
« تهيأ » « تهيأ » و « شيئاً » شياً : نعوذ بالله من الشئ .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مقلعة :

بني مصر مكائبكم تهيأ
فهيأ مهلبوا للملك هيأ
تحلوا شمس النهار له خليا
ألم تك تاج أولكم مليا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادي النيل عدن
وكوثرها الذي يجري شهيا
فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ أأجني
يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟ ؟
واقعد استوطنا شوقي مطية الفلسفة والمواظ بعد ان ركب حمارها
بيت واحد شوقي المعنى وهو قوله :
وانما الأمم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا
فراح يجري عليه ذهاباً واياباً في كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا بأذني حماره الفلسفي هذا في موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك أو شمالك . . فكأنما
كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما أمكنه ، وكأنما
لهذا أحرز سبق لا لان نشيده كان كما وصفته اللبنة « أكفاها و
أوفاه بالعرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي أن تتسق لنشيد قومي
مصري » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرّد نشيده من كل شرط يتسق
للاناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الاولى خطأ تاريخي ما أظرفه في نشيد أمة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر
وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج
الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج
ملوك الوجه البحري ويعرف شكاه كل طالب من طلاب السنة الاولى

في المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلون بها بصور الطيور المعبودة أو التي يرمز بها إلى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان . . فيا حبذا الشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعها عنواناً على جهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارئ ان نأخذ على شوقي مبالغته في قوله « خذوا شمس النهار له حلياً » فاننا لانحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل . وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا . فنظم لنا نشيداً لانتخطى به في جميع العصور ان يتهيأ مكاننا ، وان لانبرح نشرع في التمهيد ونأخذ في الاستعداد رنبداً برسم خطط الملك ونهم بتشيد الاركان . وما علمنا شاعراً قومياً يطلب اليه ان يكون قال الامة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نقيب النحس وينذرهم جموداً لاتترشح منه أو تنسى نعيه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقي بالمواقف من قصائده الآتفة ، وأجهل ما يكون هو اذا وقف موقفاً وطنياً أو قومياً . فمن دلائل غفلة الدهن وعشا البصيرة ان يكلف « ابن يحدتها » انشاء دعاء قومي ، أي دعاء لايعوقك دين من الاديان ان ترتله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلي به في المسجد ، فيخيل اليه أنه اذا جمع فروق الاديان كلها في جملة واحدة فقد أتبع له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « يموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته لانه لا يؤمن بعيسى

ولا بمحمد — وان المسيحي لا يدعوا الله به في كنيسة لانه على احترامه دين. مواطنه: المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين برؤية المسيح لابرسلاته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشز فيه إلى دين غير دينه ، وان الدعاء القومي لا يكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهياً صنعته تجهيز الموائد قليل له ان ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهي أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعاً يمزج أطعمتهم كلها في صفحة واحدة لطرد من فوره ، فاعجب اشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهارة ويغرق في غفلة الدهن حتى أحسبه أحياناً يتعمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذي يفضي به إلى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بدیع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطر له ان يجمع شفاعات الاديان أجمع كي تكون شفاعاة لكل دين ، عمد إلى اصق الانبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لايناسب هذا المقام ، والذي لو كان هو وصفه الفذ لاسنواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به ! ! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا إلى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقي ونشيداه كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة : وقد قرأناهما لتشابه الخطأ فيهما وزبما كان خطأه في النشيد أخف وأهون ، من حيث

ان الاناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لامن حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية ، بيد اننا لانرى معنى لزج الاديان في الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ان لانجمل وفاق الاديان مباهاة ومأثرة ، لان المرء يباهي بالشيء النادر أو غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبدية ايس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أثرها لاتبج ان يكون الوفاق شعاراً لها .

ولقد قدمنا اننا لانقصد إلى الافاضة في نقد النشيد ، فكنا تقارنه بما نعلمه — من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذاً سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستبجحون تاحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرأ
فلما آل للتاريخ ذخرأ
نشأنا نشأة في المجد . أخرى
السخ السخ

ويقولون ان التنوين لابد ان يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلاً إلى كلمة « فخرأ » ومدّها بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولنا نحن ممن يبالي بهذا الذرع من النقد ولكننا نعلم المنشد في موقفه والملحن في صنعته .

نقول : هذا هو النشيد الذي « يبقى لحركة هذه الامة شعاراً ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان مناراً » كما تقول اللجنة – نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقي ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الاعجب من تفضيله على النشيد الثاني ومن اجراء اللجنة على تقديمها معاً إلى الصحف غلوا منها في استجهاال الناس ومبالغة في احتقار رأيهم . ولا أخفي عن القارئ انني ما كنت أظن في جمهور قراء الادب استقلالاً يقاوم تأمر المحكمين وانصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك في حكم اللجنة ونزوعاً إلى احلال نشيدها المختار في المحل الثاني من النشدين المنشورين ، وفي هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمده بشائره .

عباس محمود العقاد

* * *

النشيد القومي

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات الاذهان إلى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئاً من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الارض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد . وقد اتصل بنا بنا انه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحابة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفصيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة أجنبي معتزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بني النيل وأحفاد الألى
أطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الالهram والعالم لا
يبتنى الا خصاصا من هشيم

* * *

أذكروا أن ثرى هذا البلد
من تجاليد الجلود العظماء
لاتطئها أرجل العادي الألد
وبكم أبناءهم بعض النماء
تربها التبر المصفى المنتقد
لا الذي يقتنى الشحاح الادنياء
فامنعوا كثركم أن يبدلا
أو تعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا في الارض عنه بدلا
مالككم كنز سوى هذا الاديم

* * *

أذكروا أن عليكم واجباً
لبنينا في بطون الاعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا
فهو حق الوارث المنتظر
نقاضي الأثر عصرأ ذاهباً
فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه اليهم أكملأ
لم يغيره زمان أو خصيم

فحمى مصر تحاماه البلى
وبنوها خير من يحى الحريم
أذكروا حاضركم كيف يقام
ايسس يعنينا تليد القدماء
ما التماثيل المهيئات الجسام
وأبو الهول رهين الصحراء
ما المسلات على باب الرجام
والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم خالد من العلا
في ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العلا متصلا
كاتساق الدر في العقد النظيم

* * *

أذكروا مهما بلغت سؤدا
أنكم لم تبلغوا أوج الكمال
أبعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم أقصى المنال
كم عبدنا قرصها المتقددا
فأفقدنا في حماس ونضال

نبتني الهيكل يتلو الهيكل
خالداً في ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس إلى
يوم لا يبقى لها قرص ضريم

* * *

أذكروا أن التفاني والغلاب
في سبيل المثل الأعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب
شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا في النفس هذي الشعلا
أضرموها تكلفوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على
مديح الرب بمحراب كريم

* * *

أذكروا ذلك وامضوا قلما
لا تكن وجهتنا غير الامام

تزدجينا دقة القلب كما
يقرع الطبل بحرار لهام
ففسوخ الموت دوداً للحمى
ونذيل العمر سعيًا واعتزام
فبحق نحن أخصاد الألى
اطلعوا الفجر 'تاريخ قديم
رفعوا الاهرام والعائم لا
يبتنى الا خصاصا من هشيم
عبد الرحمن صدقي

* * *

صنم الألاعيب

شكري صنم ولا كالاصنام . ألقته يد القدر العابثة في ركن خرب
على ساحل اليم - صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز
السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها
فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله المضحكات وقد أتى
النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة اليها ؟ ؟ ولم يلتزم في الانسان
مالا يتوخى في سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟ ؟

هنا لك اذاً على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمي بهذا
الصنم . وكأنما أرادت أن تبحث على تدبر القدرتين : هنا ثبح مزبد
وأبد لا يحد وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد وحياة متجددة وأواذى
متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راکدة وجبله باردة جامدة .
لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها عذبات الأشجار ، ولا يملأ صدرها
حسن الآصال وروعة الأسحار ، ولا يستجيش الحياة في عروقها
منظر الكمائم تنفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمام ترسم في صفحة السماء
المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة في مستهل الربيع تكاد العين « ترى »
ذبوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن
حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحراً مائجاً من الزبرجد ، لا
ولا ينبه شعورها الزهر في الصباح البلبل وقد أثقلت أكمامه الانداء

فتساندت رؤوسها كأن سرباً من العذارى على الماء بوغتن فتراحمن تحت
ثوب أبيض .

كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار
لا يتقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن تهدمه فؤوس الكاشفي
طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتاً
ولم يجده نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئاً وان
كان وهو ملقي بين انقاض حياته يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير
الافلاك بتدبيره ونحكمته. يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو آثاره
نبذه واهماله « أنا اله الشعر » فتلطمه الرياح وتدرج ثقله على افريز
البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها
فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر
اذا كانوا أسلم فطرة من أن يكثرثوا لدعي أخرس لا ينطق ولا يبين
واذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفوناً في قبر من
بكمه العجيب . وأي بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذي لا
يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبياً فنياً ورسولاً
بدين هداية في الأدب ؟ ؟

وأنت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو
اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح ديناً
جديداً « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم في سالف
الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكرانهم لم يتعلقوا به بعد
ولا استطعموه فاستمرأوه وانه لكي يغريهم به ينبغي له أن يتوخى القوة

في العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالاداء وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبي اسحاق الصايي كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب في تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسموح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت الى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منزال وحسب المرء أن يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أنه يستعمل اللغة جزافاً ويكيل « توافيق وتباديل » — كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزاً منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا أن شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول وحققه إلى اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمي للاشعار مثندرا (٩)
 والقوم في غفلة عني وعن شأني
 هذي المعاني تناحيهم فما لهم
 لا ينصتون بافهام واذهان؟
 وتعزبه بان الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره
 بالاطمئنان حكم الأيام في قوله :
 أرمي بشعري في خلق الزمان ولا
 أبيت منه على هم وبلبال
 مجارة للمتنبي . وتقليدا له في قوله :
 أنام ملء جفوني عن شواردها
 ويسهر الخلق جراها ويمتصم
 نقول يخيّل البنا ان شكري لو شاء لفطن الى سر هذا الخمول وعلة
 ذلك الأهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم فقد
 بحثوا في شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلد ويمتع أو مستظرف
 يلهي ويسلي وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده
 غناءهم وألفوه يريد أن يجعل نفسه هزوة السخفاء وضحكة التارغي
 القلب والعقل جميعاً . ولقد كان هيني الشاعر الألماني الجليل يسخر من
 نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة في شخصه ولا يسع
 كل قارئ الا ان يحس أنه أصاب موضع الداء . أما شكري الذي
 أراد أن يقلد هيني والذي زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيماً وذلك
 حيث يقول :

وان « ادرج » في قـبري
قتيل الحب والياس
ومن يصلح بالشعر
ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الغريد والرسول العجل لا بطمع في منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية ما يرجو في حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء - وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهذا ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » ! ! هذا هو دينه الذي يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لانهم لا يتمتعون اليه . اليس هو القائل في بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكايه فيه :

كفـاني من نبيه الذكر أني
تمر بي الحسان فترتضياني

ولا أدري ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه في معرض تمر به فيه وتحبسه بعيونها وأكفلها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب الناس على الأقل اذا كانت هماتهم ومساعدتهم وآمالهم تنأى بهم من دائرته الضيقة ؟

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغرض الضئيل اذ من يستطيع أن يفهم شيئاً من ارتضاء الحسان به ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول في نفس

القصيدة التي أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها من قيود القافة -
والورن أحياناً - لكيلا يعوقه عن التحدر شيء - معاتباً الغرام :

اتقصيننا ونحنن مآربونا
من التبيان والأدب الغزير

ولعمري ما عدا الواقع في قوله انه مقرب من التبيان والأدب ولكن
التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف لسانه
من معينهما الفياض من يقول :

وفي السعي شيء يعوق الطماح
فيحظى الأجل ويصمي الأقالا

ولو سئل هو نفسه في معناه لضافت عليه مذاهب القول أو من
يقول في صفة المشنوق :

نساق الأرض عن آئمه فاء
فاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء في عقله - ان كان ما فهمناه من البيت هو
المقصود - أن المشنوق سيظل معلقاً في القضاء إلى الأبد أو أن الأرض
تضيق عن شيء من المآتم أو المحامد أو أنها هي التي لفظته وأعلته لتمكن
حضرته من وصفه . ومن العجيب والذي يدل على أن شكركي متكلف
لا مطبوع وان ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد في الشعر
باطل انه هو نفسه قال ينبغي على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناخهم .
» واذا صلب أحد الأمراء قالوا ان قاتايه أجلوه فلم يرضوا له
القبر وينشدون أبيات الأنباري التي يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن
يضم علاك من بعد المات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا
ممن الأكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واطهار الدميم
مظهرا الحسن . . . وليس أدل على جهل وظيفة الشعر من قرنهم الشعر
إلى الكذب وليس الشعر كذباً بل هر منظار الحقائق ومفسر لها وليست
حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق المقلوبة ووضع
كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما أحل هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائلة عن العمل به وأدناه
إلى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثاً
لا طائل تحته » أو ما أجدره ان يكف عن دعواه انه من رجال المذهب
الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أتري
هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس بهذه النظريات التي
ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع
الذي يتعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن انه يكفي ان يلوك المرء جملاً
كالبيغاء ليكون في نظر الناس حديثاً سائراً مع الزمن مؤدياً فرائض
الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذي يعتقده شكري فبينما تراه يقول في
« قدمات ديوانه » ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهه) يخلق الجيل الذي
يهمه ويهيئه لفهم شعره « ترى له في بعض هذه الدواوين بصفت
املة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرققا
كما البعث الطل الرقيق ليقطرا

أو قوله في فلسفة « تزواج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما
ومهرها الحب لا يغلو لها المهر

من لي بنفس أرى نفسي بها مزجت
كما تمازج في وديانها الغدر

والنفس في عيشها شتى منافذها
منها القلوب والسمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأبي جيل يريد هذا المائق ان
يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) أما كفى
أن في الدنيا مسخفاً مثله حتى يطلب ان يوجد من أمثاله جيل يرمته ؟
وأي بلية تكون شراً على العالم من هذه ؟ وأي خطب يكون أدهى
وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا
قوم جلوس حولنا ماء

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد
التفصيلي أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذي يباهي به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا
قلاله لو جزته أقرع

فجز من لته خصلة
لعلها من خلفه ترقع
فالدهر أن أقبلت ذولمة
لكنه من خلفها أقرع
مطلعة مثل طلوع المنى
وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالدم صفعاً له
فانما يصلح اذ يصفع
قراعه مثل قراع الطبي
وانما يقرع اذ يقـرع
فاطل قفاه بمداد لـ
ل اللون من روقته يخذع
وغض عنه نظرا واعيا
فانما يعديك ما يطبع
وان جرى في الدم كره له
فخير ما يجدي لك الموضع
حجامة لا شك في نفعها
وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه
بالرغم من صلته أروع

واحن له الرأس لكي لا ترى

فانهـا من خافه تلمع

ونحن انما نمثل اليكم هذا المسكين ولا نستقصي مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب ونقول التقريب لأن له أبياتاً مبعثرة في أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثاله منسوجاً على منواله لصار صنماً معبود لا منبوذاً كما هو الآن . وما بالعجيب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أو أبله لجري لسانه بجملته أو جمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر في مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذي مثلنا له ضعفاً في الدهن واضطراباً في جهاز التفكير لم تنفع في معالجهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدي اذا كان الاستعداد مفقوداً وكان الدهن غير مستو أو صالح « لهضم » ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود — كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيراً ما يكون الأقبال على الكتب والولع بها نوعاً من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وما علونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويمتاز الشاعر العبقري (يعني نفسه أيضاً) بذلك الشره العقلي الذي يجعله راغباً في أن يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القليل وشره لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكري ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العقاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع في نفسه من أن هذا حقيق أن يقوي

خياله ويجعل له أجنحة يحاق بها في سماء الشعر وفاته هو وأمثاله إن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وإن كل كلام ليس مصدره صحة الإدراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون إلا هراء لا محل له في الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفي العمق لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقاً كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلالة إذ أيهما أخرج إلى النور يراق عليه ويكشف عنه ؟ ما تلمسه اليد وهي تمتد وتعثر به الرجل وهي تخطو أم ما يغوص عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على العجز عن الأداء أو الدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .

على أنه من أفحش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشدّه افساداً للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النور إذا كان طوقه لا يتجاوز ديبب النمال فإن العقل الصغير إذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل إلى غايته من طريقه ولا يحسن الحاجة إلى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكري هذا الجهل فتكلف مالا يحسن وأراد أن يكون شاعراً وكاتباً من الطراز الأول وظن أن الاجتهاد يغني غناء الاستعداد فلا هو بلغ أية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه إياها .

ولما كان السقم في الكلام مرده إلى السقم في الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمني ، المستخلص من كتاباته على اتجاه ذمه ثم نعقب

ببيان الفساد الذي اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته
واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعاً .

* * *

لا نقول ان شكري مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك
وأعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والألحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر —
خاطر الجنون — وان فكرته مائلة لجو حياته والخوف منه منغص عليه
كل لذاته وعلاياته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه
يكفل ابقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسملك والبيض والمخ
وأشباه هذه الألوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل في
روعه انه هو المعني به فيمتقع — ولا يخفي ان اتجاه الدهن له دلالة
خاصة وهو قرينة قلما تخطئ اذ لماذا ينصرف المرء الى خاطر بعينه لا
يعلوه في روحاته وغدواته وفي طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفي أقواله
وكتابات من شعر ونثر — أو منظوم ومثور على الأصح — ولكن اتجاه
الدهن لا يصح ان يؤخذ به وحده في البت بأن المرء صائر لا محالة الى
آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير
من الشلوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا
العقل فيهما متماثلتان فالعبقري ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات
يتمخض أبدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان
لا تظن اليها عقول الأوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما
ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ
أو فتورها أو قابليتها للتنبيه والتفكير وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا

والجنون عبقرية وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج - كما يقول افلاطون- الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيد صاحبنا شكري منه . ولا ينبغي أن يتوهم أحد ان العبقرية هي الجنون فليس افحش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادي وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع الاضطراب في التوازن العقلي والعصبي .

قلنا ان ذهن شكري متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءاً من ديوانه في شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه في وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبي حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى ان ينجب به المرض ويوجف بعقله الداء فلا يستطيع ان « يصدق بالشعر ويسخر بالناس » ! وماذا أجنأه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع في بئر فلا هو « صدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » :

حنيني الى وجه الحبيب جنون
جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحي :

فهاج هياج الشر في الأسر طرفه
وأدركه حتى الممات جنون

وقال من قصيدة غابة الحب :

وان كنت عندي جئت بالعقل والحجى
وان لم تجيء فالقلب مجنون نائس
ولكن وجدي منك جن جنونه
فها أنا من حبي بحسبك هائر

وقال في « طبع الانسان » :

ان بالمرء جنونا جاءلا
نسوة للشر فيه تحتلهم
لا ينال البرء من نوبته
أويليع الشر منه والألم
وقال من « مرآة الضمائر » وكان له في البيت معدى عن لفظ
الجنون :

وفي كل وجه من جنون ومن أذى
ملاح لا تخفي تناديك بالجهر
اذ من الذي يستطيع ان يدعي أن في كل وجه ملاح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون »

عسى ان تجن النفس فيكم جنونها
فلا ذكـرة تصبى ولا فكر يخطر
فان جنون النفس سعد وراحة
وان عناء الحب ذاك التذكر
فانساك حتى لست أدري أعائش
على الأرض تسمى أم دفين معفر
فان يبلغ الحب الجنون فلا تعلم
أما كل مجنون على المهجر يعذر

وقد كان له منلوحه عن تمني الجنون وكان في وسعه ان يطلب
الموت أو السلوان ولكنه لشقوته بحسب ان المجانين سعداء لا يكرب
أحد منهم خاطر ملح أو وهم جائم ولو انه سأل طبيبه لعرف منه ان
بعض المجانين يعلبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيراً ما يخلقون
لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها. على أنا لا ندري من أين جاءه
ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك ؟
ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذرون
اذا لم يقرؤا نظمهم . وقال من قصيدة صنم الملاحة :

بلغ الغرام الى الجنون
فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وأدركه مسس الجنون وأظلمت
عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعل لو بلغوك
أنسي عرتني جنة من هواك
وكيف لا يذهب لبي الهوى
إذا مضت لي أشهر لا أراك

ومن قصيدة « أنا مجنون بحبك » :

أنا مجنون بحبك
فأزل غلة صبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل
يزدري المرء له وقع التهم
انما الحب جنون وجوى
ورجاء واحترام وندم .

وقد ترقى في هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نسبة الجنون
إلى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدمر أيضاً قال من قصيدة « جنون
الحياة » :

لا ترع فالدمر مجنون
كل حي فيه مغبون
جن من حول ومقلدة
وكلنا ذو الحول مجنون

فتضاحك ثم قل أبدا
ان هذا الدهر مجنون

دهرنا دار المجانين
كل حي فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنيت أعد الحسن فيك فطانة
وأن جنوني في هواك صواب

وقال من قصيدة « وحي الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم
وهي تبدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدي غيرهم ولكن من
أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والألم » فأنا أشهد الله والناس اني لا
أحس هذا الجنون. ولكنني أحسبه سينكر عليّ الشاعرية لهذا على الأقل .
وقال من قصيدة مشترى الأحلام :

لو يستحيل المستحيل على الورى
وأنال من أحلامه ما أطلب

لجننت جنة قادر متحكم
ببرضى على هذا الانام ويغضب

فالحمد لله الذي لم يحكم في الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة
صوت التبدير . . .

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن
 لشد ما نال منك البؤس يا رجل
 حتام تنكر حقا غير مشتبّه
 لا يكره الحق الا من به دخل
 وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعاً
 الى أي سبب غير الجنون .

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :
 وأن بقلبي من جفائك جنة
 فان رام يوماً قتلکم ما تأتما
 فأسقى جنوني من دمائك جرعة
 وهيئات يجدي القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى
 الإجرام فتحري البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغري حبيبه بالهجر
 والهجر يزيد في جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أي حال ينتهي
 به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد
 صفحاته السبعين وناهيك بما في الأجزاء الأخرى ولم ننقل من شعره
 الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك أبياتا عديدة
 تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

أمشي (أحدث نفسي) عن محاسنكم
 حتى يخال حديثي لغو نشوان

ليس له عقل فيسكتـــــــــــــــــه
الحب خمري وليس الخمر من شأني
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندري ماذا يكون وقوله وهو أدهى :
واهتف طول الليل باسمك جاهدا
وهاجس هذا الذكر داء مخامر
فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بان هذا داء ملازمه
لا عرض زائل وقوله .

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم
ضاع منهم تحت اشلاء الرمم الخ الخ
وليس الأمر بمقصود على جولان هذا المخاطر في نفسه وملازمته
اياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب في
الطريق كالسكاري والاعتقاد بان كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها
جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين
ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :
ففي كبل دار من جواد مريض
وكل قلب فيه جرح رغيب .

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر
كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء
النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على
ذلك فان شكري على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان

الحواس وهو -تساهلا في التعبير- مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلاً أنه يسمع أصواتاً أو يرى أشباحاً تختلف وضوحاً واستبهاً حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رأت مالا وجود له أو الأذن سمعت ما لم يصدر فعلاً من الأصوات وقد لا يصحبه أي اضطراب محسوس في القوى المفكرة وإن كان لاشك مع ذلك في انه اضطراب محلي في المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيراً ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أي اعتقاد المصاب أنه يسمع أصواتاً أو أن أرواحاً تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير في الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان ايضاً وكان يسمع ارواحاً تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأله بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكري - اعاده الله من شر ذلك - في الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنور البدر فضيا له

وتر في القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسست كان نواقيس تطن في اذني . وإن
لذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » اهـ .

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهي فضية في انه في كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) في اذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ أموراً :

أولها - أن البيت لم يكن يستدعي هذا القول منه لان معناه مفهوم بدونه .

وثانيها - أن ما (يطن) في أذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره أن ألد الأنغام رنة الفضة المجوفة خصوصاً وان رنتها « ليست » ألد « الأنغام » وان كانت « أخلص » الأصوات وأصفها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغمة . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة في النغم ولكن خلوص الرنة من الأكدار مع التسامح في عد الرنة نغمة - لا يمكن أن يعد « ألد » الأنغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن في اذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء القمر » مقرون في أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والمليان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة في لغاتها ورابعها انه ان كان صادقاً فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدفاع ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكننا قد أطلنا وان كان التحليل ممتعاً مغرياً بالاسهاب والافاضة والملاك نجترى بملاحظة أخرى وهي أن لشكري كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بأنه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهي

كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتباً روسياً في رواية اسمها « هل كان مجنوناً » وموضوع قصة شكري ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهي في الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق ل ١ .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكري الى مافي شعره من دلائل الاضطراب في جهازه العصبي وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولاً ولان جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانياً ولم تكن أماننا في ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها — وهي كثرة مروعة — يرجع الى رأينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليك أن يحمد الناس منه فلا يحاول ان يغالب مشيئة الطبيعة التي لا تخلق الأبكم الا وهي قادرة على إلزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

(الثمن ٢٠ مليماً)

(الجزء الثاني)

الدِّيَّوَانُ

كتاب في النقد والأدب

تم في عشرة أجزاء



لمؤلفيه

عباس محمود العقاد و ابراهيم عبد القادر المازني
محمود مجريدة الاهرام محمود مجريدة الاخبار

فبراير سنة ١٩٢١

ادب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كاللذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على أهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا النقط ولا يعلو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ أحدنا العناكب ناسجة لها بيتاً بين جدارين فيقول لخدمه أو ربة بيته أزيل هذا وآتي عليه بالمكنسة ثم لا يقر لها حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . أما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يطهر الدعي فيستولي على الميدان ويخر الناس له سجداً إلى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلمته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوي البشر ومنتھياً إلى غاية لا يطمح إليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبواباً من التعسف لاتستند إلى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفندوجروا مع أوهامهم إلى آخر الأمد كأنما التوق إلى أن تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تنأى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الاراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا

لا يماكون أن يصغوا لما يقال لهم ولا أن يفتحوا للذي تبين أعينهم أو يأخذوا لانفسهم بالتي هي أملاً لايديهم وأعود بالخط عليهم وحتى صاروا من كل أمر في عمياء قصاراهم أن يكرروا ألفاظاً لا يعرفون لشيء منها تفسيراً ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبييناً وما لهؤلاء نكتب ولا من أجلهم نتكلف أن نكوي عرق الباطل ونخرس أسنة الكذب والتدجيل ونقض بناء المنكرات والشناعات التي أقامها نفر من الادعياء نشأوا في غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم إذ سن التفكير والبحث والتقصي وحب الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويحييها فيها لاليعمضها دونها وأوتي العقل ليتصرف به في الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لاينكر ذلك حسه ولا يغالط في الحقائق نفسه ولا يجب أن يستسقى إلا من المصعب أو يأخذ إلا من المعدل مؤثراً الغيبة والهزيمة والفشل على احوال الاشياء عن جهاتها وتحريك النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر إلى اصدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التي تكون أضواؤها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم إلا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد في ظاهر عالم وشاك في صورة مستبين ؟ ؟

وليس في مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن البخري مع الاوهام والذهاب إلى أشنع الشناعات واسوأ المنكرات ما عرض لهم في الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم إلى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضاً من غير ان يتوخى في تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعي

به كاتباً وشاعراً ومؤلفاً يضمن الزمان بمثاله ويعيبي الامم مكان نده .
فساد هذا من البدهاة بحيث لم يكن يحتاج إلى تنبيه أو أن يتجشم أحد
منا إقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسيط في الايضاح وتحري البساطة
في سوق المبادئ وتمصيل الأصول وما ندرى غداً بعد جيل ماذا
يكون ظن الناس بالامة اذا رأونا نلبي بالحجة والبرهان على مالا حاجة
به إلى الصفة والبيان وما صار دستوراً معهم لهم به عن ايضاح الاصول
واليوائه غنيان ؟ أفلا يعلنون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف النعب
وهي تحسبها أدوات النكر والطعان ؟ بلي ولا يعرفون ما كنا نستطيعه
لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذي عليه الادعياء المقلدون
في أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لانجد في الامر
الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة له ثم هو مع ذلك لا يرى الذي تريه
ولا يهتدي لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا اطلعوا
على هذه المنكرات الشنيعة التي تتمخض عنها الطبائع المسوخة
والاذهان المتكسدة ؟ ان الجيد في لغة جيد في سواها والادب شيء
لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده إلى أصول الحياة العامة
لا إلى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث في كل
لغة في أي قالب صبيته وسكبته وبأي لسان نطقته وقد لقينا من التشجيع
ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الامال في صلاح
الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدهم ونلقي به بين
الاطلال .

ترجمة المنفلوطي

عني السيد المنفلوطي بترجمة حياته فكتبها وصدّر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لايبالي دسها عليه في كتاباته ونحن لايعنينا هذا إلا امر الامن حيث دلّته على طريقة السيد في الاحتياك على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الالقب والمناصب في عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزفوا إلى الناس عرائس افكارهم أو يشيعوا إلى قبور صبورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم ورنأ عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذي يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذي يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقلداً على سواء وحريراً بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول في « بنات » عقله ثم نأتي على ذكر رواياته وقصصه في أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخرة قبل الأوان توفية للحقوق وبياناً للفروق وكشفاً عن الحال وإيقافاً للقارئ على مبلغ سعة المجال :

* * *

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي رجل شريف جاء إلى هذه الدنيا المنزوعة منذ خمسة وأربعين عاماً من أبوين كريمين كرمأ يشته ان أولهما - ولا ندرى ايها يعني ولكنه احدهما على كل حال - ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي جد كل معلم ومعلمة ومنافس آدم بكثرة

النسل و « تفاقم » الليرة وثانيهما إلى اسرة جورنجي التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفاً ورفعة لسوء حظ النقد ان يزيد على هذا في بيان نسبه إلا أشياء ظاهرة لا تحتاج إلا تدوين ولا تختمل الايضاح والتبيين كقولہ انه ولد في منفلوط من مدن الوجه القبلي في جنوب مصر « وان اسرته هناك مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدي إلى معرفة ما هنالك ولكننا نحسبه خشي أن يضل القارئ ويختلط الامر فيتوهمه مقلوفاً به الينا من المريخ — والحق ان له العذر في خوفه اذ ليس في كتابته ما يدل على أنه مثل ابناء آدم احساساً بالحياة وفهماً لها وجرياً على سننها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود إلى ترجمته فنقول : وليته اذ عني بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية في تكوين اخلاقه النادرة التي يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائي صلفاً وكبراً وما هي بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لاتعجبه اخلاقه ولاتجمل في نظره اطواره وعفة حتى عن مد يده إلى ابويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث تموة وشجاعة وإيمان قوي كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكوناً لاتخالطه زفرة ولا تمازجه دمة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس إلى أصلقائه يحادثهم

ليلة وفاتها وكأنما المرزوء سواه وليس أحقر في نظره من مدح المادحين له ولأحقر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب وكثيراً ما كنت أسمعه (٤) يقول « لاطلعت عليّ شمس ذلك اليوم الذي يرضي فيه عني الجاهل أو يعجب برأيي البليد الى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره في ترجمته لنعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب في هذه الفضائل وفي كل هذا الادب الجم الذي جعله - كما يقول - والكاتب الفريد الذي يحافظ على اسلوبه البع في جميع حالاته وشئونه سواء في ذلك المعاني المطروقة لكتاب العربية الاولى أو التي لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها اسلوباً مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لاعارية من عواريه .

وليس في ان يترجم المرء لنفسه من عيب ولاهو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المنسب لا يحدث إلا عن نفسه ولايصدر فيما يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكلنا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون إلى قرائهم بتراجمهم ووصف اباؤهم . وما للقراء ولأجدادك الذين لم تزدنا بهم علماً فيشفع لك ما أفدت في سماجة ما كتبت واقدم قرأنا بلحيته شاعر الالمان الضخم كتاباً في تاريخ حياته يقع في اكثر من ستمائة صفحة ولانذكر انه أورد اسم أبيه حتى ولا في سياقة الحديث دع عنك خنع حلل الثناء على أجداده . ولوجعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلي وكيف تكونت اخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعني قراء التراجم . أما الاجداد والأباء فما دام الكاتب لاينوي أن يذكر ولايستطيع أن يعرف عنهم اكثر

من الاسماء فخير له والناس أن يسند عليهم استار الخفاء حتى لا يجمع
إلى الجهل أو العجز نقيضة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه إن فاتنا هذا الذي كنا نحب ان لا نخلو منه الترجمة ولم
نعتض منه إلا ما هو منشؤه ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد
الشريف الجليل العربي التركي الحسيني الجوريجي المنفلوطي الكفاية
فانه أعزه الله لم يألنا كشفاً عن ارائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار
نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضمن على قارئه
بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب
ولأي شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك
مما ليس وراءه ريادة لمستريد وما بتنا معه في غني عما يبدى فيه في
ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يشتبه لنفسه حتى نسي أمهاله فانتحل
غيرها في المقالات ؟ ؟

ويا لها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق
فيما نحلها من الشيم ؟ فهل تعرف أيها القارئ من أي ضروب الشجاعة
هذه فان لها لانواعاً وضروباً ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة بيعتها
احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وإنما هي
شجاعة . . . الطعام ؟ ؟ نعم والموائد الممدودة والاخوة المنصوبة
وانك أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شعيتك وتزوى ما
بين عينيك لتدل بذلك علي أفحش الجهل وأفضحه بأسرار فعل الطعام
ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى أن يخشى السيد الشريف الحسيب
النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة
من أصحاب الوريقات القلرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقاً

ان. تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامي
القائل « أطلع الفم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجري
على السنن العامة في كل شيء ؟ في كتابته وفي معاشرته وفي اتقائه
الالسن - وهذا هو السر - فاعلمه - في أنك لاتسمع به في هذه
الورقات ولاتراها تلهج به مادحة ولاقادة .

ومن ظريف ما نرويه في هذا المقام أن السيد سبمع بعزمنا على اخراج
هذا الكتاب فجاء يدعونا إلى مائدته وأرسل يلح علينا في تشريفه فلم
ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته
إلا المرض ؟ فما أحسن المصائب في بعض الاحيان ؟

* * *

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعد من أجله كاتباً أو أديباً إلا إذا كان الأدب كله عبثاً في عبث لاطائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا الماتمين يقول « ان في اسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب إلى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لاعهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلننصره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذي لانرجو منه خيراً . قال مهيار :

فيارب قلـد دمي مقلتي
بما نظرت واعف عن قاتلي

هنيئاً لحبك - ذات الوشاح
دم طل فيه بلا عـ. اقل
وحبي ذكرك حتى لثمت
مسلكه من فم العاذل .

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لئـن الانحدار تستطيع ان تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا ثرته وتأملت ما نحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئاً لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما في الأمر ان صاحبه اراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولا

كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ إلى
 الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغني
 عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه ذنب النظر إلى الحسن
 ودعا الله ان يبرء المقتول بالقاتل تناهيا في اللين وذهابا إلى أقصى
 المأى في انطراوة ولاقتل هناك ولاقاتل ولادم مطلوك بغير عاقل وانما
 هو التطري والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم
 العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطري ويكفي
 لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثاً واقعاً . وأمثال
 هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة
 لجأوا إلى الصقل وضحوا في سبيله الرجولة والعقل ومهيار بعد من
 الفحول أو هو عي آثارهم ماض . وهو من القليلين الذين يتم شعرهم
 عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين
 أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الاعرابا وعجماً . يدل على ذلك قوله
 يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح إذا
 غشش تجار الاشعار ما جلبوا
 يشكرها الفرس في مديحك لله
 عني وترضي لسانها العرب
 فكأنه لم يرغب عنه عناية العرب باللفظ ولا كثارهم شأنه ودهاب
 غيرهم إذ المعني قبل اللفظ وله مالا يكاد يداني في حلاوته وعذوبته
 كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو
 رب ذكرى قربت من نرحا

وقوله :

آه على الرقة في حدودها
لو أنها تسرى إلى أكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين
والعابثين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للإنسان
أنهم كانوا يتبارون ليروا أيهم أعظم تطليقاً للعقل وإتياناً بالمستحيل
ونسياناً لأحكام الحياة . أما الخلاوة فتجدها في مثل قول الشريف
الرضي :

انت النعيم لقلبي والعذاب له
فما أملك في قلبي وأحلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عندي رسائل شوق لست أذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك ان تتلوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا
أنحف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل
لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجلى وأنفع في تبين المراد
ولكننا لانحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلبنا عن
محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لاغراضه
في ذلك مادمننا ندعو إلى حق وقوله صدق .

ومرجع هذه الخلاوة إلى ماترى من التنوع في الاطراد وإلى
احساس الشاعر باللذادة والحنس احساساً هو مزيج من الاعجاب

والطلب . خذ البيت الأول مثلاً (أنت النعيم) وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يهجوئك بالتنوع من حيث لا يصدملك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لاكثر ولاأقل ولو انه كان قال « انت النعيم لقلبي والجحيم له . فما أمرك الح » لاحسست التنافر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا القول المسكين شكري يصف جميلاً ويبالغ في (حسه)

كأنما صاغكم كيما يحكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فانك تحس اد تنتقل من الشطر الاول إلى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا طراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء انبت انحداراً مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على ارجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وابصر تحريره الدقة في العبارة عن مقصوده تحريماً اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يلدس العابثون والمقلدون أقوى الالفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والتزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة . ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة

لابلحاجة ومن اشتهاه التقييل اشتهاه لاينبو مع ذلك في زمام الارادة
فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها
البيت — من اعجاب واحتشام واشتهاه والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الغاية ، دع عنك عنوبة التعبير عن القبله وسلامة الذوق وحسن
المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لاتبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه
عن ذكرها عن بعد واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع
وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضي التي يقول في مطلعها:

يا ليلة السفح الاعلت ثانية

سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرأي التي اختلاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس
يسعنا ايراد القصيدتين ولكننا نجتزئء بذكر البيت من قصيدة
الشريف ونعقبه بما قال الطغرأي مجازاة له . يقول الشريف :

قلدت منها بلا رقبى ولا حذر

على الذي نام عن ليلى ولم أنم

فيأخذه الطغرأي ويخرج صاحبيه ان كان لها وجود :

يا صاحبي أعيناني على كلفي

بمن تناوم عن ليلى ولم أنم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وأمت الریح كالغیرى تجاذبنا

على الكثیر فضول الریط واللم

يشي بنا الطيب أحياناً وآونة
يفيضنا البرق مجتازاً على أضرم
فيسطو عليه الطغرائي ويصوغهما في أربعة آيات مرذولة :

بتناوبات الصبا وهنا يغازلنا
وفرشنا الرمل وشته يد الديم
والليل يكتسم سري والصبا كلف
بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
يا نفحة الريح باتت بين أرحاننا
بالخزع تسلك بين العذر واللمم
نميت طيباً وأغريت الوشاة بنا
يا حبذا أنت لو لم تقتدي بهم
ويقول الشريف :

واكم الصبح عنها وهي غافلة
حتى تكلم عصفور على علم
فيضعه الطغرائي في هذا البيت المنحوس :
وغاب عنا غراب البيسن ليلتنا
فنا ب عنه عصيفير على علم
ويقول الشريف :

يولع الطل برديننا وقد نسمت
رويحة الفجر بين الضال والسلم

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة
باتت تحرش بين الضال والسلم
ويقول الشريف :

بتنا ضجعين في ثوبي هوى وتقى
يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
فأبى ألا أن يعف عفته ويحییء بهذا البيت المشور السخيف :
ورق لي قلبه القاسي ومكتني
مما أريد فلم آثم ولم ألم
ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

أنت النعم لقلبي والعذاب له
فما أمرك في قلبي وأحلاك
فلا يرى الطغرائي أن يتركه في قصيدته دون مسخ :
طاب الهوى في الجوى حتى أنست به
فهو المرارة يخلو طعمها بفمي
فيخلط ويحسب الشريف إلى هذا قصد ، ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادي في الزمان هوى
الا ذكرت هوى أيا من القلم
والذكرى طيبة ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائي يأبى له الوقوف
عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم
والحب وقف على أحبابنا القدم الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره . كلام الشريف مستقيم المعنى
والاداء وأبيات الطغرائي لايسيغها المرء لإلبعناء . والفرق بين الكلامين
أوضح من أن يحتاج إلى جلاء . ولعل القارئ قد رأى مما أوردنا أن
الحلاوة لاتتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها

* * *

ولست بواجد شيئاً من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطي سواء في
ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف اسلوبه بالنعومة أقرب إلى
الصواب ولكنه ايس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب إلى
أدنى منه وليس أدنى من ذلك إلا الانوثة وهي أخط وأضر ما يصيب
الادب ولكنها مع الاسف تجوز على فريق من الناس يلتذونها ويسغونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويغروه بالكد في
إبراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطي في مقدمة عبراته :

« الاشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو
شيئاً من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هذه
العبرات عليهم يحدون في بكائي عليهم تغزية وسلوى »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذي شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفاً على المساكين أمثاله

ولو شاء لقال أن الناس جميعاً كذلك ان كان يريد أن يذهب إلى هذا المعنى لان كل أمرىء طالب محروم . ولكن وظيفة المرء في الحياة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لان الاصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولاسبيل اليها بدونه ، بل هي تنتهي اذا امتنع وبطل وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الاقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك واثباته في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة — فطنة عميقة مستولية على النفس — انهم قالوا ان في الوجود قوتين متنازعتين أبداً قوة الشر التي تطفئ بالليل وتجاغل في الرعد وتكذف بالصواعق وتبتلي بالجلذب والمحل والابواء والارزاء والقناء وما يدخل في ذلك ويتفرع منه وقوة الخير التي تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى بأهرمان والثانية بأرمزد .

ومثل هذا واضح في جميع الاديان وان تغيرت الاسماء وتبدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الامراض إلى فعل الشياطين وفي خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتبهيهم السير في دياجيهِ . ولماذا يفزع الفزع من الظلمة ويتهبب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثراً من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر

قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الأطفال والعامة والذي فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرتهم السليمة لا يدركه المنفلوطي المسكين الذي يحسب ان ليس له من عمل في الدنيا إلا البكاء على الاقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالدة في جوف الثرى وعسى قائل يقول : إن هذا منه فرط حب للإنسانية وهي فضيلة لا يقلبها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا في الامر انما يغرق في الترع ليعبد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استنداء للغاية القصوى هكذا يصنعون اذا ارادوا التضييل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج إلى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منها لايتأتى إلا باستعانة العقل والعلم عايتها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه إلى لغة العالم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي أخلاق المنفلوطي؟ هي بالفاظه - أو إن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الالفاظ - انقباض عن الناس ووحشة - عفة حتى عن مد يده إلى أبويه - كرم في الخلق طالما كان سبباً في وصول الأذى اليه - حلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً - صمت طويل يحسبه الناظر عياء - مارؤي يوماً من الايام ملماً بما يفسد عليه دينه أو مروءته - صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم (١) مات له طفلان في

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الألماني من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده «

أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكناً لا تخالطه زفرة ولا تمازجه
دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس أحقر في نظره من المادحين
له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو ان الناس أجمعوا
على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأي
مناقض لرأيه لما ناز ذلك من عقيدته - ليس أبغض اليه من الكذب -
يجب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم مادام المتكلم صادقاً - يطلب من
الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - ان كان في اخلاقه مأخذ ففي
هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتماهم ولبسهم على
سوءاتهم - وظني يتهاول، وجداً في حب وطنه ويذرف الدمع حزناً
عليه - الخ . . .

ولانس أنه جريء جرأة معدومة النظر في التقحم على حياء الناس
بهذه النعوت الغالية وأنه محب مفرط الحب للانسانية - فيلا ثروبت -
وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابنائه يموتون في غير السن التي يكون
فيها الأهمال والجهل سبب الوفاة المباشر في الأغلب والأعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق أيها القارئ ؟ ؟ إما ان تكون مصدقها
فنتتظر في دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأياً لا .

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أنذر منها مجتمعة وان انفتحت للناس
متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى في الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان
الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد في حالة غير عادية من
النمو اذا كان الجهاز العصبي غير سليم فليس من المدهش ان يكون

البخل من أعضاء ما يسميه « فيرى » اسرة الامراض العصبية وحب
الانسانية - فيلانتروبي - نفسه مما يجري هذا المجرى وقد كان
(هوارد) مصاح السجون جباراً في بيته وكان له ابن مجنون . ومثل
هذا يقا - عن الانانية أيضاً وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول
على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ - واحداً أو أكثر -
تكون قاصرة عن تلقي المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود في حيز
الادراك طوائف معينة من الاراء أو تصير الغلبة لتركعات معينة مستقلة
عن الادراك . وهناك قوم - كما يقول المثل - لا يصغون إلى داعي العقل
ولا يحسون إلا أنفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحياتهم
بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا - بغير مبرر معقول - عن كل
متعهم وكل ما ملكت أيماهم لفائدة جيرانهم مثلاً ، وكلا الفريقين من
مرضى الاعصاب كالمعودين أو المصابين بالثشنج . ويقال على العموم
ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب
العصبي وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متساعماً بالضرورة
متعدد جوانب الرأي »

فما قول المحتج للمنطوي في هذه الكلمة التي كأنه كتبها
صاحبها لما نحن في صددده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ ان تؤمن
بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلا ، الغريبة فيلزمه حكم
الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين في أعصابهم أم نقول
كذب فيما ادعاه لنفسه وان ما به ليس ايثاراً وحجاً للانسانية متجاوزاً
به حدود التصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها في الكتابة وتكف بين
وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ونخادعة لهم واستصغار
لاحلامهم واستهانة بعقولهم ؟ ؟ لسنا ننسب بأحد الحكمين فليختر

اقتارىء لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما في رأيه فسواء لدينا هذا وذاك
والنتيجة بعد واحدة .

« الاشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بئس مثنى أن يححو
شيئاً من بؤسهم وشقائهم »

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وإحساس بالعجز المطلق
والقصور التام . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التي تعشى
النفس أحياناً ويكون مردها إلى ما يلقاه المرء من الخطوب في حياته
أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتي لا تمنع ان يكون الانسان
موفور النشاط والمراح صحيح النظر إلى الامور صادق الرزن لاقدارها .
نعم من الطبيعي أن يكسب مثلاً من يحتسب طفلاً له كان يشيم الخير
من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذاً من الناس
افقره أو ضعة قومية في أبيه أو من يمني بالفشل في بعض ما يعالج أو
نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسة التي تصور لصاحبها الحياة كأنها
مستغنى عجرة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أي تحليل
لها من الاحوال التي تكتنفه هو أو سواه ؟ وأي باعث عليها غير عدم
التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلاً للملك مفتاحاً وقفلاً تعالج أن تفتح هذا بلدك فتفشل
ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب في المفتاح
كأن يكون مكسوراً أو أن تكون أنبوتته مسدودة أو أن تكون أسنانه
بالية وإما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط في
جوفه أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل او
أن يكون الصدا عطله وأنت في كلا الاحتمالين لاتستطيع أن تفتح
القفل ولكن هناك احتمالاً ثالثاً وهو أن تنحرف بانبوبة المفتاح عن

حديقة القفل أو أن تديره فيه مقلوباً أو أن لا تبلغ باسنانه اللسان ولا يكون العيب في هذه المرة راجعاً إلى القفل أو المفتاح بل الخطأ في عملية الفتح :

أوهني غضبت : فالأمر في هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين :
 ان يثير غضبي رجل مثلاً بعمل مسيء فاذا كان إحساسي مناسباً للدرجة
 الاساءة ومتكافئاً معها كان ذلك مني طبيعياً ولكن لنفرض ان الامر
 تجاوز المعقول وان الغضب هاجه ما ليس فيه اساءة وهو الفرض
 الاخر فنعود إلى مثال المفتاح ونقول اما ان تكون الظواهر الخداعة
 أو الانباء الكاذبة قد حملني على اعتقاد القصد إلى الاساءة وتعمد
 الايذاء فيثير في نفسي ما يحيط بي مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعاً
 ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعاً إلى الوسط والعيب
 عيب القفل — او أن يكون العمل في ذاته غير مقصود به الا الخير
 كان يرتب لك خادملك اوراقك في غيابك ولكنك لما لقيت في يومك
 من النصب او لعسر هضم تعانیه تخرج عن طورك و يبلغ غضبك مبلغاً
 لا يتناسب مع الظروف — اي لا يلائمها وفي هذه الحالة يكون عدم
 التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه إلى علة فيك والعيب عيب
 المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت في اليوم التالي وقد
 مرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثأرك وبدأ لك تهورك فقد اعدت
 التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما
 كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب
 بين الاحساس والحادثة وتصبح عاجزاً عن اعادة التوازن بينهما يدل
 على ان « عملية ، الموازنة أو الملاءمة مضطربة :

وهذا المثلان ينطبقان على عدم التلازم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتقاء ذلك راجعاً إلى علة عضوية أو إلى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاءة أو هو يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادي وكان المرء قادراً من الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فأن الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه إلى عدم كفاية أو عيب في هذا العامل أو ذاك بل إلى فساد عملية الملازمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا السداد تصحبه ابدأ ثلاثة مظاهر : اضطراب الاجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الادراك ويدخل في هذا ما يعتمد الفكر والاحساس والشعور بالذات وبالعلاقة المرء بالوسط وهي أشياء على أوضح ما تكون في قصص المنفلوطي كما سترى فيما يلي .

العبرات

قصة اليتيم

ونعود بعد هذا الايضاح إلى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثاله الضعفاء الناهبين مذهب التصنع والافراط في الرقة والانوثة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلقيقات — حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا يغير ويبدل تبديلاً كبير الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريباً بينما هو جالس في مكتبه الذي كأنما صار ملتقي كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة أثيرية اذا به

يسمع انيناً أو حنيناً أو صوتاً خافتاً أو توجعاً أو زفيراً أو نهيقاً أو شيئاً من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلميقات أو هامه ومنكرات أحلامه — من العمر ملقى يتوجع على سرير أو حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى — وهو ما لا بد منه في كل حكايات المنفلوطي فما أعظم شؤمه على أبطاله — فيغسله ويلفنه في الاكمان ويحمّله إلى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التي كأنما لها « زر » في تضاعيف ثيابه يضغط عاياه فتتحدر وتسيل وإن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد ! !

فيا لله ما لهذا الخافوي الندابة وللادب الذي هو حياة الامم وروحها وباعث القوة فيها وناث الحرارة في عروقها وحافزها إلى أجل المساعي ؟ لقد كان المنفلوطي يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين — ان جاز الجمع بين النعتين — ويموتهم في شرخ الشباب وميعة العمر وكان في وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءاً على شاكلته منسوجين على منواله وان اخوف ما نخاف على هذه الامة أن تجد هذه الجرائم ثرى صالحاً في نفوسها في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى من يبذل فيها بنور القوة ويدفعها إلى تطلب الحياة العالیه .

كتب جيته الشاعر الألماني رواية « أحزان فرتر » وهو في التاسعة عشرة من عمره أي قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر أمرها وانتشر بها الصيت إلى كل ركن وذهب بها السمع في كل زاوية في العالم الغربي ونقلت إلى جميع اللغات الحية ولكن واضعها

الذي كان حقيقياً أن يزدهي بهذا النجاح وان يفتن بما وفقت اليه باكورة أعماله من الذبوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضي في هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل إلى أن مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا ينجل من عمل له نخجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من أيدي الملايين من قرائها ليوكل بها النار ! !

ولماذا كان ينجل منها ويشعر أنها وصمة لرجولته ؟ ؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة في ميدان هوا وغرام ! والحياة أجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة أمل كائناً ما كان أو ان شئت فقل هي اهون من ان يكبر المرء امر سعوها ونحوها إلى هذا الحد وإن مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للأمر وان لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابس قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين نخنت العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تنفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا نذب سوء حظهم ونحس طالهم ولأنهم إلى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضي حق الحياة عليه ولا يعطلها دينها بل يؤديه إليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور إن افلح ومعدور إن أخفق .

جيته - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لاتلين ولا تساقط على الصدمات

والاهوال — هو مثال الرجل الخلق بالحياة هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا ينوق طعمه إلا بالتمني حتى لا يسعه لما ترجم إحدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامة ويستقيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته — إن صح هذا التعبير — وينسي جموحه مع المعاني وركضه في حلبة متوعدة من الاداء فجاء اسلوبه فيها سلساً كالماء الرقاق المتحدر في سهل دمث من الارض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تملية الحياة المتدفقة وصحة الادراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديداً وبلى شائناً فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لانعرف لها مثيلاً في كل عصور الأدب التي مرت بالامم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلاً قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيراً لا يملك شيئاً فكفله عمه واكرمه واحسن اليه إحسانه إلى ابنته التي كانت في مثل عمر الفتى فشبا عشيري صفاء وخذني مودة ووفاء ثم ذهب العم إلى جوار ربه بعد ان اوصى زوجته ان تكون للفتى الذي لا اسم له ولا ام — امأً كما كان هو أباً—ولكن الزوجة لم تلبث ان تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت ان تزوج ابنتها وانها ترى ان في بقائه بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد ان تتخذ للزوجين مسكناً ذلك الجناح الذي يسكنه الفتى من القصر وامرته ان يتحول إلى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هي بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الامر واسودت الدنيا في عينيه لانه يحب الفتاة حباً لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها بل ولا هو نفسه إلا في هذه الساعة. فانسل من البيت ليلاً وأثر

أن يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطي ولكنه لم يستطيع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه إلى أخرى ثم شعر بسكون فعاد إلى الحجرة فلزمها هي ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم إلا نزوات تعاود قلبه من حين إلى حين. ثم ان خادمتة في بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتاباً من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتي ليودعها قبل موتها ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطي معها تنفيذا لوصيته :

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع أيها القارئ إلى مثال القفل والمفتاح . ليس في المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التي تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطي الذي نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس في الفعل عيب . لأن الظروف المحيط بالفتى والاحوال التي كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادي السليم عن مكافحته ولكي يقتنع القارئ بما نذهب اليه، تجاوز الاجمال إلى التفصيل .

أرادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهي رغبة طبيعية تحسها كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصدق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطي .

ولأعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي وداً واخاء أو حباً وغراماً ولكني أعلم أنه ان كان حباً فقد كان بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوماً أنني أحبها لاني كنت أضن بها وهي ابنة عمي ورفيقة

صباي أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الاليم في قلبها . ولا قدرت في نفسي يوماً من الايام ان أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها — ولا حاولت في ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون ولا فكرت يوماً ان استشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قابها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة أبويها .

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقولوه ؟ وهو يعلم ان لالوم عليها في جهالها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه بخبيثة نفسه .

اذن فليس في رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شيء يستدعي منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذ والانسلاخ تحت اللجي طلبها اليه ان يتحول إلى منزل لها غير الذي يسكنه على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصاً على الفتاة ان يربيهها شيء من وجوده إلى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعي . ولا شك ان في هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقاً ان يجعله يسيغها . فاما اذا انسل وآثر الاستشراء والرحيل في البلاد، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذي حملته الخادمة اليه ان مات ! أليس الواضح البين أنه عجز عن الملازمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزاً ليس مردده لآفة في جسمه ولا إلى الظروف !

وهذا بعد لبس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله

بالغاية منه احساساً واضحاً ويدركه أتم إدراك والذي لايفتأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين للذي لايدري أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته أم حب الرجل للمرأة . ولايقدر في نفسه أن يصل أسباب حياته باسباب حياتها ولايحاول ان يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لايرضي من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولايروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العنري الذي لاوجود له في هذه الدنيا الدنية مثلاً ليس أعلى منه حياة – واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس – والانقياد للمرأة كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وإيماءاتها وحركات حاجبيها وشفثيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دعك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الارض والكلام الذي لايقوله ولايفهمه عاقل والنظرات الشاذة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل ورعي النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الاصابع للاشباح والخيالات وتحميل الرياح أنواع السلامة والتحيات الطيبات المباركات . . .

لا . لايرضي هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لايطعمون على الحياة إلا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات ولايفكرون أو يحسون أو يعملون إلا على مثال أشخاصها ولاغربة في ذلك، فان من لا تؤهله تجاربه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائي لايسعه إلا أن يسام بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة

تحتذى وتقلد . وهي نتيجة يعلمها من له أقل الملم بعالم النفس وتأثير
الاجزاء لاسيما في الضعفاء والابان والنساء ومرضى الاعصاب واذكر
على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة أني أعرف رجلا بالغ
من استيلاء « سنكر » وضروب احتياله على نفسه وهواه في صدر
ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطأها سوى ان يكون على رأس
فرقة من « البوليس » السري يطارد المجرمين . فلا لان هذه القصص
المكاذبة المهور المستحبة الوقائع تحدث الاضطراب في نضوج الاحساسات
الطبيعية في نفوس الابان وأخصها الحب بتبنيها مركز التوليد قبل
الوان وقبل ان يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسي في الفرد

اسلوب المنفلوطي

أما اسلوب المنفلوطي في هذه القصة وفي سواها فاسلوب رجل
لا يبالي من أي مدخل دخل على القارئ ما دام يقدر ان سيصل منه
اليه ولا أي بلاء يهديه في احتياله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه
والتصنع فهو لا يزا يعالج الافعال والتأثير بضروب من التأكيد والغلو
والتفضيل وغير ذلك مما ليس أد منه على الكذب والتزوير لما وقع
في وهمه من انه يكسب الكلام قوة وادة لا يفيدهما أن ياقبه ساذجاً
ويدعه غفلاً وأو ، ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق
وتكفنه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه
تكون مبتورة والحمل لا يجري فيها النفس إلى آخره دون توقف
واعترض ومع ان قصة اليتيم في تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من
الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولاً مطبقاً ليس من بينها

واحد لا يكون الاسلوب أساس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة في كل شيء وإلى أن يجاوز كل حد معقول طلباً للتأثير من طريق الإفحاش في التأكيد فلم يكن له يد من هذا المفعول المطلق الذي لا يكاد يمر به القارئ في أي كتاب يفتح من كتب الادب .

ومعلوم أن الكلام لقيمة له من أجل حروفه فان الالفاظ كلها سواء من حيث هي الفاظ وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكرر من التأليف الذي تقع به المزية في معناه لا من أجل جرسه وصداه والا لكان ينبغي ان لا يكون الجملة من النثر أو البيت من النحر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك ، أن الالفاظ ليست إلا واسطة للاداء فلا بد ان يكون وراءها شيء وان المرء يرتب المعاني اولا في نفسه ثم يحدو على ترتيبها الانفاظ وان كل زيادة في الالفاظ لاتفيد زيادة مطوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطأه من أخذ عن نفسه وغيب عن عقاه وباع من ضلال الرأي أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفاً طبيعياً مطرداً خالياً من العكس والقلب منزهاً عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة في المعنى او تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقاً لغناها — كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب فان العالم أغنى في باب الادب من أن يحتمل هذا الحشو ويصبر عليه وليس شيء أحق بان يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحبه من المزايا غير حبك الاداء ولكن هذا كلام لا يفهمه المتفوطي لان اللغة عنده ليست الازينة يعرضها

وحلى يحلى بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس او رسم فكرة ومن
اين له أن ينزل اللغة هذه المتزلة وهو لامعنى في صدره ولا فكرة في
ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفاوطي وكالها لاضرورة
اليها ولا داعي إلا من الرغبة في تأكيد الغلو الذي يتطلبه من يحمل
نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجري هذا المجرى من الأغراض
الآخرى .

١ - وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب
نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوباً) .

٢ - فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣ - ثم لم أزل أراه أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن
(أنين) الواهة الثكلى .

٤ - وأتمنى لو استطعت أن ادخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥ - وقد بلغ الامر (مبلغ) الجلد .

٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجاً) شديداً .

٨ - واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجاً) -
يصف تحوله .

٩ - فاستفاق قليلا ونظر إلي (نظرة) عذبة .

١٠ - فتنهد طويلا ونظر إلي (نظرة) دامعة .

١١ - أصبحت معنياً بأمرك (عنايتك) بنفسك .

- ١٢ - فانزلي من نفسه (منزلة) لم يزلها أحد من قبلي .
- ١٣ - ١٥ - فعني بي (عنايته) بها وأرسلنا إلى المدرسة في يوم واحد فانست بها (انس) الاخ باخته وأحببتها (حباً) شديداً .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح في كأسها .
- ١٨ - ثم انسلت من المنزل (انسلال) من حيث لا يشعر أحد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قايي قد فارق موضعه إلى حيث لأعلام له مكاناً ثم دارت بي الارض الفضاء - يعني غرفته - (دورة) سقطت على أثرها في مكاني .
- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) التاكل على ولدها .
- ٢٣ - وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .
- ٢٤ - وان الضربه التي اصابته قد سحقته (سحقاً) .
- ٢٥ - ٢٦ - أشعر برأسي يحترق (احترقاً) وبقلي يندوب (ذوبا) .
- ٢٧ - ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .
- وقد عددنا له إلى الان ٢٧ مفعولا مطلقاً ولاندرى إلى أي رقم

يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجسيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكاف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشأن واحد في كل كتابته أم هو اتفاق ومصادقة في هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعاً !

ولعل القارئ لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه — يعني المنزل — شريداً طريداً حائراً ملتاعاً » وقوله « تركني فقيراً معدماً لأملك من متاع الدنيا شيئاً » وقوله « وراء هذا المنظر الضارح الشاحب نفس قرينة معذبة » وقد يعلم القارئ او لا يعلم أن هذا الاسراف في النعوت من دلائل الضعف وفقر الدهن لان الكاتب إنما يرصها واحداً بعد واحد وفي مرجوه أن يوافق واحد منها محله وان يقع في مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وماذا يلقي وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدري أي الرموز اللفظية أكفل بالعبارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافاً ويكيل الالفاظ بلا حساب مستعيناً على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ في ذاكرته وبرزين الاصداء المتقطعة للاصوات المألوفة . وهناك أمر آخر وهو ان الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة اذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء في المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعني على التحقيق وأي مدلولاتها متفاوتة يقصد اليه ويريد منا في فهم

المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن العول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتهما مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمباغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوي غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماقة وضلال لا يتعاقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لاشيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الالفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئاً إلا بعد أن يأتلف معه سواء ويجري كل إلى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجي لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، وإلا فأن أهدنا لا يعجزه أن يعتمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الالفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والافتنان فيهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة فلا تجعل بالك إلى الالفاظ اذا شئت أن

تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ولكن اجعله إلي طريقة تأليفه الكلام فان رأيتك يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر إليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ضئيل الحال والقي بعد ذلك الفاظه من أي حائق شئت - وكذلك المنفلوطي لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعلت به حزينا منكسراً وما على وجه الارض أحد أذل مني ولا أشقى » - « ومارئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكية » أو هذا التأليف « فما هو إن مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه - وما هي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن نقدر فائما نمثل ولانستقصي ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصالح لوجد له مخرجاً من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المثال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطي ذاهب مذهب التخنت في كتابته وملفق مستحيل التلفيقات وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطري والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة أي في الاسلوب بمعنى الطريقة التي يجري عليها في تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا إلى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معاني النحو ونحن نريد أن نلقي على

هذه القردة درساً فيما يفيد صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر وانا لنعلم انه لن يفيدهم إلا الحسرة على ما أضاعوا من العمر وجنوا من سوء والخبث في هذه الأمة التي نكبت بهم على قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ولكننا ما قصدنا قط إلى امالتهم عما هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من النشء اذا قلحته ورى وهدى من له قاب اذا ارته رأى .

ونمهد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوماً لا يدركون الشيء أو يصلحهم فنقول أن ههنا في ناحية من الطريق شرطياً واقفاً يرقب الحركة ويلاحظ الغادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين إلى الشر إلى أي هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التي عليه والسلطان الذي في يديه وتقيس النصب الذي ينبغي أن يعاينه إلى القدرة اللازمة التي لاثباته فتعطف عليه في محنته وترثي له في وقفته وتصوره وأنت ناظر اليه من جانب الجلد الذي لاهزل فيه وفي ضوء الواجب مكابداً اوامره ونواهيه — هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك في هيئته وفي تراخي همته وبطء حركته أو عدم التألؤم والتناسب في يزته ووفاء قامته وتخاذله في مشيته وتناوبه واستناده إلى الجلوان وذحول نظرتة أو حواراه مع الباعة وتأنيته إلى غايته وتقطيبيه جبينه وهو يدفع في جذبته او تواريه في الدروب ووراء العمدة اذا جد الجلد بالطعام في « نقطته » إلى آخر ذلك ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت إلى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت في الاولى جادا وفي الأخرى هازلا

وجعلت الصورة في كل من المرتين معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر إلى الموضوع والطريقة التي اجراها لغايتك هي ما نسميه اسلوب التناول ولاشبهة في أن المرء ينظر إلى الامور من جهات معينة - من ناحية الجلد أو الهزل أو المألوفية أو الشنوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أي ناحية عالج المسألة وإنما الذي يعنينا مقدار ما في سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح وسباغ التغلب على الصعوبات. ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لان القصصي لا تظهر قدرته في المواقف الهائلة السلسة وإنما تستبين وتضح حيث تكون اشخاصه تحت العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب أدق النظر وأشق التميز وأصح العبارة فكيف تناول المناقوطني موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه إلى اشخاصه مما هو معهود في الادميين كما نعرفهم وما مبلغ إسرافه او قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده .

عسى قائل يقول انك تصفه في ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان في باله ولاجرى له هو وأمثاله في خاطر وردنا على هذا المحتج أن الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل ولا اعتداد فيه إلا بالصلاحيات للحياة وهي هي ، ميزانها أبداً واحد لارفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابتم الا ان تعلوه كاتباً اديباً فلا مسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامي لعرف من أي معدن هو وانتم بعد خلقاء ان ترتضوا لصاحبكم ما ترتضي لأنفسنا

مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق
عظيم واضطراب كبير وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات
والشذاعات والتناقضات . عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد في حيرته
مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخدمية
والعقلية وصارت حياتنا محيطاً زاحراً العباب يضطرب بنا منته في
عشي ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظلم إلى المعرفة والحزن إلى
النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه
يحسبون ان الادب والفلسفة – أو النظر المخلص الصحيح أن شئت –
لا يتفقان وأن الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون أدبياً وأن
الاديب لا يكون متفقدلاً ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص وألفة
يجب ان يقطعه الانسان ويعادي بينه ولكن عهد الظواهر والزبد
والقشور قد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشادي بعلاقة الطبيعة
بنفس الآدمي الراكض بمداركة من ميدان إلى ميدان والمرغ وراء
السماء سماء وبعد الآباد اباداً ، المصيحخ إلى صوت اعتلاج موج
الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود إلى صاحبكم المتفاوتي – وما أهول هذا الانحدار – فنقول
ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسأوك شخصها
الكفاية وفوق الكفاية ولقد كان حسب سوانا في غير هذا البلد ان
يشير بطرف القام إلى ما فصلناه ولكننا وطنا النفس على الجلاء ورضناها
على السكون إلى ما تكلفنا اياه جدائة العهد بالادب الحي :

بحسب المنفلوطي أن تكلف التفصيل في المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وأني له ان يفهم هذا - أنه لايعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذي تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل في يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس وانما يحك القلدره في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لاطواهر الاشياء وقشورها وفي رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخوارج الذهنية وما هو بسبيل ذلك .

أما تفصيل المنفلوطي فلا خير فيه بل الخير في اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارئ أن هذا المسكين يروي عن نفسه ويحدث بما يدعي أنه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - في البيت المقابل له في الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المترلة الاولى بين شيوخ الرواية :

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى (شاحب) الوجه منقيضاً جالساً إلى مصباح منير في احدى زوايا الغرفة (ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأي شحوب لون الوجه مع هذا البعد ولكن هناك ما هو أدهى :

« عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتي لبعض الشؤن فاشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك إلى مصباحه وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت

يجفنه سنة من الزوم فاعجلته عن الذهاب إلى فراشه وسقطت به في مكانه فما رمت مكاني حتى رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء وإذا صفحة دفتري التي كان مكباً عليها قد جرى دمعها فوقها فمحا من كلماتها ما يحا ومشى ببعض سطورها إلى بعض ثم لم يلبث أن غاد إلى نفسه »

فأولا لماذا دس في الجملة قوله في أولها عدت « منذ أيام » وهي لا تفيد ولا يمكن أن تفيد شيئاً سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدري أنه أحس أنه موشك أن يقول شيئاً مستحيلاً ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين الأفلتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان الوقت وقت الظهيرة المتقدمة الملتمة لا يسمح بأن يرى فعل اللمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة في الجفن وقد شعر المفاوضي باستحالة ذلك ولكنه لم يصابه لم يجد ما يخرج به مما أوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول ان الفتى رفع رأسه ؟ كان هذا يكفي لتمكينه من ناصية المستحيل ؟ وانت ايها القارئ هل قنعت أم تزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثلاثة الاثافي : ذهب المفاوضي اليه لانه سمع « في جوف الغرفة انه ضعيفة مستطية » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظري على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه وإذا قميص فضفاض (واسع) من الجالد يموج فيه بدنه موجاً فامررت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قابلاً »

ابنا حاجة إلى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته
إياك لم تره، وبالجسم لو تؤكأت عليه لانهدم، فاما القميص من الجلود
يموج فيه البدن فلم تكن نتوقع ان يسمعه احد إلا في مستشفى المجاذيب
ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطي ان يمر نظره على جسم
الفتى .

ولست احب ان انقص على القارئ كتابنا بكثرة ما اورد من
هذه التلفيقات المنكرة ولكني اسأله الصبر على هذه الجملة أيضاً —
دعا المنفلوطي الطبيب فجلس المريض وهمس في اذنه ان العليل مشرف
على الخطر — ولاعجب ان يصير إلى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه
المنفلوطي — شراب حماء — ثم دفع اليه المنفلوطي الأجر واحضر
الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين اسقيه الدواء مرة وابكى عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر »
والعادة أن الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية) يحددها
الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطي امره ان يعطيه الدواء بعد
كل ، بكاء ! ؟

ومع ذلك لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطي مات له طفلان
في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكوناً) لم تخلطه زفرة ولم
تمازجه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما ؟ ؟ ؟ وكذلك
كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس إلى الناس يحادثهم حتى كان
المرزوء سواه .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطي عليه وبلا من الاسئلة وهو يعلم أنه في سياق الموت (فاستفاق ودار بعينه حول فراشه حتى رأي فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ارجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل قال ارجو أن أكون كذلك قلت هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت وما مقامك وحدك في هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد أو أنت من أهليه وهل تشكر داء ظاهراً (يا للعمى) اوهما وهل لك أن تحدثني وتفصلي إلى بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه فقد أصبحت معنياً بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟ ومن الغريب أن الفتى لم يصفعه . ماذا كان يجنى المسكين لو فعل وهو ميت لاحالة — بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذي انتهى بين يدي هذا الخانوقي بعد أن فرغ من الحديث الذي يملاء احد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه في ساعة الموت ؟ وما أخلق هذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطي بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

شوقي في الميزان

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجاً عنيفاً
وايقظه من غفلة كان فيها ساذراً وما هو إلا ان حط به ثم شال حتى
تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه
الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبوني لست بالشاعر أليس لي
فخر آخر ادل به ؟ »

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول :

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لاربعة
أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلاً على ظهوره في اوانه — اسرعوا
إلى اقتنائه حتى نفذت نسخة في اسبوع أو أقل ونادراً ما كانت
تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم
فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات
الناس على افتراق نظراتها إلى الادب : فمنهم شيوخ وكهول من
فضلاء الجيل الماضي ذوي العقول المترنة والفطر المستقيمة والاطلاع
المجدي وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل : ومنهم اذكاء
الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايخون بل
المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع

وجدناها إلى الموافقة المشفوعة بالدهش اميل منها إلى المنافرة والعنت
وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ وببهم
ناقديه بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغير ،
وفي هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هدأة الدهشة وتطامن المفاجأة
لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على
الجملة ان ائلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة
الخصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه : واما التذمر فقد
استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعني فريقي
القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم نوجه اليهم خطاباً : وهما
فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فراراً
من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع
العادات والمخطوطات أو بترية الديكة ويغار على صيت شاعره كما
يغار على اللعبة التي فتن بها : ومن أطرف ما يروى عن أحدهم أنه
سمع جملة في نقد رثاء شوقي لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة
التي أقام لها الازهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن باصنافه
في تلك المناحة فظن - صان الله لشوقي اعجابه - اننا انما انكرنا
سكوته عن القطن واردنا منه ان يذكره فقال متعجباً : وهل كان
القطن (طالماً) وقتله فيذكره في القصيدة ؟ ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم
شركاء شوقي في (العادات الخصوصية والمناذات الليلية) فما رأينا
أحر من سخطهم ولا أكثر تصنعاً لاسبابه وتحلا لعلله ، وهذه آخر
شارة نلح اليهم بها .

* * *

ولانحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد
ولانستبعد رجوعه إلى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين
واشبههما بالحق اننا اخترنا أو هن قصائد شوقي وأكثرها مغامر :
وليس هذا صحيحاً فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائد
وهي لا تقل في اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى ولكن
الحقيقة — كما قلنا في الجزء الاول — هي ان قراء اليوم غيرهم بالامس
فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة : ونحن نذكر
اصحاب هذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد إلى شاعرية شوقي
وذوقه وروح قصائده ومنهج ادبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما
تؤثر فيه العجلة والتأني ، واذا كان الطعن في الشاعرية والعاهة في
الذوق والروح والاعوجاج في المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان
الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر : ولعلمهم
بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي
سواسية .

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقي وشددنا عليه
النكير : ولهؤلاء نقول اننا لانهدم خطأ مؤسساً على البرهان
فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المترابكة
وما أحوج البرهان في هذه إلى الشدة وما أقل ما يغنى فيه اللين والهوادة :

وما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعاني الشحاذين : فيا عجباً ؟
كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها
وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة
لتكريم الشحدة في اشنع ضروبها ؟ ؟ وأي حق على الناس لمن لا يعرف

لنفسه وللناس حقاً ؟ ؟ فنحن لانرى للرجل في انفسنا قدرا يتجافى به عن اخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه في توطئة الجزء الاول ولانريد العدول عنه في هذا الجزء ولا في الاجزاء التالية . فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فانه لايعرف كيف يغضب :

وكأننا زمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟ ؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحمس وتلهس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون ؟ ؟ وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب ، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه :

كان ولايزال في حاضر الزمان ، لاني سالف العصر والوان وفي الجزر البريطانية لاني جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسي يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص — لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويندكي في النفوس الضرم شاعت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتاً لترويح غذاء مشهور من اغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقبستها وكتبتها على لفائف دوائها : فماذا كان من امر ذلك

الرجل المدعو زيارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر
على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها إلى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله —
ويدعى المستر هيوز — وقف فطلب إلى القضاء منع الشركة من امتهان
الايات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء
أن يتخيل الانسان أمرا أشد اذاء لنفس المؤلف من ابتدال كلامه
بأدماجه على هذه الصورة في صباح الباعة على سلعهم : انها لاهانة
لانتقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة
الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عثر الشاعر وقال : لا عجب
أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة — وعندي
ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق
الطبع الصادر سنة ١٩١١ « وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضاً
للاهانة التي لحقتها بالشاعر (١) :

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك
العنقاء التي يسمونها الكرامة الادبية . ولكن الذين لا يستغربون وقوع
هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لا يبقوا بها عند حد
التفكهة .

لمثل ذلك الابتدال يغضب اديب الغريين ويقول محاميهم أنه
أشد ما يتخيل اذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ،

(١) جريدة الديلي كرنكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لثرويح السلع ولو كانت
دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقرفون ما
يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيتهم لثرويح شر تجارة
يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟ ؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة
الادبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفقهون من جمال الشعر إلا أنه
« أمرى مروعة اللذي وأدنى مروعة السرى » كما كان يقال في عهد
مدرسة الاستجداء بالقريظ، وتا لله لولا حكم القضاء وفيه مفتح لهم لما
عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا
مغلقة ، لان هذا اللذي انف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه
قد صنعه شوقي بشعره مختاراً وتعهد ان يكون اعلاناً لسلعة معروضة ؟
ألم ينظم ابياتاً يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بلى
فقد قال ادامة الله للدكاكين والمآثم والافراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة
تزرى طلاوتها بكل جديد

كست الكتابة في المشرق كلها
حسناً وفكتها من التقييد

تهلى لحسن الخط كل مقصر
وتمد في الاحسان كل مجيد

اغلي لدى الكتاب ان ظفروا بها
من ريشة الالماس عند الغيد

وَأَلَدَ فَوْقَ الطَّرْسِ أَنْ خَطَرْتُ بِهِ
 مِنْ رِيشَةِ اللَّيْثِيِّ فَوْقَ الْعُودِ
 وَتَكَادُ تَحْيِي مَرْئِسًا بِصَرِيرِهَا
 وَتَقُولُ أَيَّامَ ابْنِ مَقْلَةٍ عَوْدِي
 لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَمْرِ إِلَّا أَنِهَا
 مِصْرِيَّةٌ لَأَسْتَوْجِبْتَ تَمْجِيدِي

وفي هذه الايات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
 شعر لايتأبه صاحبه أن يتزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقريه
 دارجة أبانت أن اخليته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات
 الدلالين ونحلية البضاعة على حد واء . وان من يروج ريشة كتابة
 بأنها « أغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في قوارع
 الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدل على ريشة عربية بأنها
 « حسنت الكتابة في المشارق كلها » إنما يرتشف من البحر الذي
 تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة في العالم كله » و « ولو
 لم يكن في الامر إلا أنها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب إلى مصر
 والمصريين على عناوين الدكاكين . ولاختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون
 غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة ويعدحونها بالحدة والسلاسة
 أن لها صريراً يكاد يحيي الاموات ؟ ؟

وبعد فإن المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل أن هؤلاء
 الصعاليك التفكيرين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوي
 مزاياه وحملة أمانته في الارض : فالادباء في الامم هم عنوان حياتها

الروحية والفكرية . ومعيار لا تحسه من مفاخر الحياة - وقوى الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوي الذي يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا : ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة وطبقته الممتازة الراجحة ، فقل لي رعاك الله أي هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الامة الحية بأنه صورة ما في نفوسها من زينة وجمال ومظهر ما في رؤسها من فكر وخيال وترجمان ما يحول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود وتراث مقسم بين أبناء آدم ، وان المرء ليزهي بآدميته حين يلقي بنفسه في غمار الآداب الغربية وتجيئ اعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مهاجها ومتجهاتها وتجاوب اصداؤها واصواتها - أبواب للكتابة منوعة ومهاج متسعة وفنون مبتدعة ، ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر في كل شية من شياتها محسوسة في كل خطرة من خطراتها متكررة متضاعفة ، شاكّة موقنة ، جادة ساخرة نائمة راضية . شهوانية متنطسة : فياضة غير بكية ، موصولة بينايبها مروية ، والنفوس تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحب مالا تحسه من سواها فكأنها نفوس متفرقة لانفس واحدة جاثمة . كذلك عالمهم : ثم تلتفت إلى الأدب الذي يدعيه اولئك الاميون العارفون بالكتابة ، الجهال المتدثرون بلباس المعرفة : العامة المتطفلون على موائد الخاصة فتري عجباً ، ترى هذا عاكفاً على رقمية ولعله وذاك مدبراً إلى ربربه وسربه ، ومادحاً وهاجباً ومحسوباً على آل فلان و متمسحاً بآل عمران : نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة في التراب ثاوية . أو كأنما هي الانتقال إلى القرار هاوية . فصدق إحدى اثنتين :

اما أن أنه نفسه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى
أسمى معارج الانسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو
حرفة ليس من آلائها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمي هؤلاء النفر بعد اليوم
أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو
ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه
أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم
بعرض ثعابينهم وخبولهم ؟ ؟ ووارحمتا « للكلتور المصري » يساق
دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق الملووية
لتشيع الجنائر وتلاوة الاذكار ! !

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها احلوى الحواجز
التي تصونها أن ترتد إلى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد
بعقولهم عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها
سلاح من اسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابها كل طاغية —
فأي عصمة لمصر في أقلام هؤلاء المخططين والنظاميين وهم بهذه
الحال من الخور والمداجاة ؟ ؟ ألا أن العصا في يد الاكار لأنفع لمدينة
مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا اجحاف
بهم ولاغضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم ولقد
وجب بل آن أن يفهم الادب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكأنما شاء القدر أن يبدد حباثل شوقي وطلاسمه كلها في بضعة اسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم في مصر على القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعههم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنًا وخطرا حتى جاءت لجنة الاغاني فأماطت السر عما وراء ذلك وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية اذا أعجبوا بقيمة استحسانهم إذا استحسنوا وانها ان هي الا محابة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المدارة .

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت امام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندي اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها في الجراب فاخرجت نشيد شوقي وهي تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به للملأ كي يشاركها في الابتهاج به فيا للمهارة ؟ ! ولكنها لسوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد ! !

ولاحاجة بنا إلى الاستنتاج ولا إلى العود لما حدث في الجلسة مما أظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول فالقراء يذكرون أن اللجنة عن كان فيها من المغنين والعوادين — وهم اعضاؤها الاختصاصيون — اختارت نشيد شوقي وأعلنت اسباب اختيارها له في منشورها وهي أنها « انتهت في مناقشتها إلى أنه اكفاها واوفاها بالفرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق لنشيد قومي » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطاً ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في

الصحف ينقد النشيد ويقرر. انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد القومية ثم انهم يذكرون أن فريقاً من اعضاء نادي الموسيقى من الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بحق ذلك في الصحف أن الاستاذ انما يتكلم برأيه ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجددين في أبعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

لم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي أمامهم واقبلوا يسألونها وهي محتدمة تصفيقاً : ما هذا الذي تصفيقين له ، نعم لم يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون ورائه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقيون على الافضاء بأرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطاً تاماً وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة في مسرحهم ... كأنما النشيد مشي بقدمين إلى ديوان لجنة الاغاني ! ! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الامة عليه حكماً قاضياً على معرفتها وانصافها وأخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لاكنشيد قومي ! ! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطتم ؟ ؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة تغنيها على المعازف والآلات ؟ ؟ واين ذهبت تلك المزاي التي اتسقت « للنشيد الوطني المختار » ؟ ؟ .

كذلك تهافت حكم لجنة الاغاني بيدها وانكشف طلسم كان

من أبهر طلاسـم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم
الاسماء الخلابـة ووهـم الالقاب الجلابـة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ
غيرتها على مهمتها لن يـرجى منها صلاح للاغاني ولالسواها ولكنها
إذا كانت تخرج من العدم لتؤبـ اليه بعد أن تكون قد أبطلت وهم
العامة في أمثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من أجاها نعمة هذا الوجود
القصير .

على أنها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فقد شـركت فيها مشاركة
لم تدع لها فضلاً كبيراً فلو لم تقيضها الحوادث لظاهر قبعة التحجيد
والاطراء من ذوي الالقاب والاسماء لتكفل بذلك مخفل آخر أقيم
في شهر ديسمبر الماضي وهذه حكايته نرويها ولانعقب عليها :

قال المقطم في عدد يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذلك الشهر:
قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد القاء القصيدة الحسينية التي نظمها
حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القصري في الحفلة التي
أقيمت تكريماً له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر
طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر التزهة بشبرا فما وافت الساعة
التاسعة صباحاً حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان
فازدحم بهم المكان ثم أقبل نائب الامير محمد بك جلبي باشا معاون
الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافـة للكشاف
الاعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقي بك فنشيد
الكشافـة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف
نائب الامير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم
القصيدة وألقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم

نه نائب الامير «ساعة ذهبية أثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدي بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدي والقي قصيدة عامرة اثني فيها على سمو الامير لتعزيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتماً من الماس ووضع في أصبع الاستاذ القصري وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتماً من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندي عيش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفاة بنشيد مدارس الجمعية أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر) .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارئ وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلي بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تلخر أو شهادة تقدر . . .

وتم مثل آخر نسوقه تبصره وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح ان تكون لجنتنا مثلها في انصافها وفي الاخلاص للفن الذي تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي لولا انها أثرت لنفسها الخطوة العوجاء على الخطوة المثلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية كونكور) يحكم في كل ستة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة في اسمه ارنست بيرشون لرواية قصصية ألفها . افيليري القاري من هذا ارنست بيرشون ؟ ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسي يسأل عن شأنه فاذا المسؤل والسائل في العلم به سواء : راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة اليه أو إلى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعاً فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد فالت نظري عنوان في احدى صحفه هذه ترجمته « خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا ييروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصره . قال مراسل الديلي كرونيكل في باريس « وكان ييروشون ، وهو في الخامسة والثلاثين ، مجهولاً إلى يوم أمس جهلاتاً وان كان قد طبع في الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . : . ولم يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقاً فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك بلخانهم تعدل في أحكامها هذا العدل ونحبي كل ملكة صالحة للحياة وهم لا يأتون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة . بلخنة لانحن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بأن ترضي فرداً لتقضى على أمة كاملة بالعقم والافتقار ؟ ان في ذلك لموعظة :

* * *

(١) جريدة الديلي كرونيكل عدد ١٣ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخلص القول اننا عرفنا رأي القراء في عملنا فقسمناهم إلى
فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقي لغير سبب معقول يفيء إلى شعره
فقد اسخطناهم ولانسأل الله أن يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون
إلى الاسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أربأ
الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه :

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين
يمثله كتاب ورد اليها غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته :
« خل ملهيك الحديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولاهو بحاجة اليكم »
ويمثل رأي الآخرين بيت لقينا به أديب مشهور فقال : ايه يافلان،
الباك بيتاً يسير مسير الامثال :

شوقي تولاه عباس فاظهره
واليوم يخله في الناس عباس
وجوابنا له : انه عصر يخل عصرأ ولاغية وهم تخفتها صيحة
حق : وانا لعل الحق صامدون .

* * *

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟
 أنتقده؟ قلت وماذا عساي أن أنتقد ان لم أنتقد الهراء والزيف والشتات؟
 قال ان القصيدة آيته : قلت لقد هديتني هداك الله فما كنت أظنها
 آية لاحد من العالمين وما حسبته الازالة أسقطته فيها (مغالبة الشجون
 لخاطره) أو داهية خانه فيها امكانه الذي ما فتىء يخوننه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني
 فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاه إلا العجز والفهاة والخرج : دهنه أولاً فأجبل وحسر
 واستعصى عليه النظم فصنعها في أربعين يوماً ثم زاد كثيراً من أبياتها
 وغير وبدل فيها : ثم دهنه ثانياً فجرى فيها على عادته من التافيق
 والعقم والزغل المموه : فأما وقد علمت أنها الآية التي بها تؤمن شيعته
 وذوو المآرب عنده والمعجزة التي يستنصر بها دعااته فبآيته فلندحض
 رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها
 لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأي معقل : ولكنها آية السيمياء
 ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل أخوى من ذلك وأضعف ، وأضال
 في الضبولة واسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده
 فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته في صباح

ومساء ، ولاكد لهم خاطراً وان كان خاطره منه في وصب وشقاء :
ولقد فات أصحابنا سماء شوقي ان خلافتنا معهم لم يكن خلافاً
على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما أجاد شاعرهم
في رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع
الشعر وجوهره ثم على أدائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم
درجة أحسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف
كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحساناً لما هو فيه كان أبعد
عن حالة الصحو والصواب ، وكالاعجمي كلما أمعن في فصاحته
وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما أخذناه
ونأخذته على شعر شوقي وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته
هذه التي رأينا بعض المفتونين يحلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب
وهي لوفيقه من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله
والشواهد التي يبحث عنها لابرار مأخذة : وسنستعرضها على عيوب
ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على تشورها
رأى غير رأيه الاول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة
تختلفة الشيات والمداخل ولكن أشهرها وأقربها إلى الظهور وأجدها
لاغلاطهم عيوب أربعة وهي بالايجاز : التشكك والاحالة والتقليد
والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هي التي صيرتهم
أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في أصدق
علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى عن المدينة ومن صور
الابسطة والسجاجيد كما يقول ماكولي عن نفائس الصور الفنية :

ولكل من العيوب الآتفة أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد الامزوية أو دقيقاً عن فهم الكثيرين . وسرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلح له رواء محجب يستهوي البسطاء بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيفة فإنها في الغالب اجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة عالية .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعاً مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن ان نقل البيت من قصيدة إلى مثاتها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بانغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القاب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولاقوام لفن بغير ذلك حتى فون الهمج المتأبدن فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز واقداره في تنسيق عقودهم وحليهم

ولا ينظمونه جزافاً الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية إلى حضيفها
الادنى وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودماة الفطرة . ومتى طلبت
هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لا تنطوي
على خاطر مطرد او شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين. المخدج
بعضها شبيه ببعض أو كاجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو
ولا تنقسم فيها وظائف واجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة
الحلق صعب التمييز بين أجزائه فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخوانها
في اللون والتركيب صالحة لان تحل في أي مكان من البنية التي هي
فيها فاذا ارتقيت إلى النبات ألفت للورق شكلاً بخلاف شكل الجنوع
وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في
أشرف المخلوقات وأحسنها تركيباً وتقويماً . وهي سنة تتمشى في
أجناس الناس كما تتمشى في أنواع المخلوقات ومصادق ذلك ما
نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة في السحنة والملاح حتى لتكاد
تشبه وجوههم جميعاً على الناظر وهي حقيقة فطنت اليها قبائل البدو
بالدهاء ولمسها البخكري في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول
فيهم :

وَبَنُو الْهَجِيمِ قَبِيلَةٌ مَنحُوسَةٌ

حَصَّ الْحَيِّ مِثْلَ الْوَلَدِ الْوَلَدِ

لَرَّ يَسْمَعُونَ بِأَكَلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ

بَعْمَانُ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بَعْمَانُ

وعلى نقيص ذلك السعوب العريقة في الحضارة تراها تفتاوت
اقلداراً وملاح وبلدات وأطواراً حتى ليوشك أن يكون من المستحيل

اتفاق اثنين في هندام الجسم وهيئته وفي مواهب الذهن ونزعته :
ونقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات
الاضمحلال في الادب ألفت تشابهاً في الاسلوب والموضوع والمشرّب
وتماثلاً في روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم
القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من
أن الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيهم
يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضو متصلاً بسائر
أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت
القصيد وواسطة العقد كأن الايات في القصيدة حبات عقد تشتري
كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها
وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين آيات القصيدة وتقطع
النفس فيها وقصر التكرة وجفاف السليقة فكانما القريحة التي تنظم هذا
النظم ومضات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الاشعة يريك كل
جانب وينير لك كل زوايا وشعبة ، أو كأنما هي ميدان قتال فيه
الف عين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة
حية : ولقد كان خيراً من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد
فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن تري القصيدة من هذا الطراز
كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافلها أو وسطه في قمته ،
لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزياه .

وهذه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى
كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعرد الاكومة

رمل كما كانت ؟ ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة
تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقص ومن روح سارية ينقطع اطرادها
أو يختلف مجراها : وتقريراً لذلك تأتي هنا على القصيدة كما رتبها
قائلها ثم نعيد لها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الاول
ليقرأهما القارئ المرتاب ويلبس الفرق بين ما يصح أن يسمى
قصيدة من الشعر من أبيات مشتتة لاروح لها ولاسياق ولاشعور
ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نصيبه من صفحاتنا
فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لاتضيع عبثاً - قال شوقي
أصلحه الله .

- ١ - المشرقان عليك يتحجان
قاصيهما في مآتم والدانسي
- ٢ - ياخادم الاسلام أجبر مجاهد
في الله من خطب ومن رضوان
- ٣ - لا نعت إلى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ - السكة الكبرى حيال رباهما
منكوسة الاعلام والقضببان
- ٥ - لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان
- ٦ - يا ليت مكة والمدينة فازتا
في المخفين بصوتك الرنان

- ٧ - ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان
- ٨ - جار التراب وأنت أكرم راحل
ماذا لقيت أمنن الوجود الفاني
- ٩ - ابكي صباحك ولا أعاتب من جنى
هذا عليه كرامة للجاني
- ١٠ - يتساءلون ابالسلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان
- ١١ - الله يشهد ان موتك بالحجا
والجد والاقدام والعرفان
- ١٢ - ان كان الاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت الباني
- ١٣ - بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأمان
- ١٤ - وجدانك الحي المقيم على المدى
ولرب حي ميت الوجدان
- ١٥ - الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يجري بغير عنان
- ١٦ - والحمد في الدنيا وليس بهين
عليها المناصب لم تتح لجبان

- ١٧ - فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان
- ١٨ - المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنسوان
- ١٩ - واحب من طول الحياة بذلة
قصيريريك تقاصر الاقران
- ٢٠ - دقائق قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثنان
- ٢١ - فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان
- ٢٢ - للمرء في الدنيا وجم شؤونها
ما شاء من ربح ومن خسران
- ٢٣ - فهي الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيق لمؤثر السلوان
- ٢٤ - الناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٥ - ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الأشجان
- ٢٦ - فاصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

- ٢٧ - يا طاهر الغدوات والروحوات والحد
طرات والاسرار والاعلان
- ٢٨ - هل قام قبلك في المدائن فاتحاً
غاز بغير مهند وسان
- ٢٩ - يدعو إلى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران
- ٣٠ - لفوك في علم البلاد منكساً
جزع الهلال على فتي الفتيان
- ٣١ - ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكي بدمع قان
- ٣٢ - يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القمران
- ٣٣ - وكأنه نعش الحسين بكر بلا
يختال بين بكى وبين حنان
- ٣٤ - في دمة الله الكريم وبره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٣٥ - ومشى بجلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان
- ٣٦ - شقت لمنظرك الجيوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوان

- ٣٧ - والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
- ٣٨ - يتساءلون باي قلب ترتقى
بعد المنابر أم بأي لسان
- ٣٩ - فلو ان أوطانا تصور هيكل
دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٠ - او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان
- ٤١ - أو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبست أحاسن الاكفان
- ٤٢ - أو كان للذكر الكريم بقية
لم تأت بعد رثيت في القرآن
- ٤٣ - ولقد نظرتك والردى بك محقق
والبداء ملء معالم الجثمان
- ٤٤ - يبغى ويطنى الطبيب مضلل
قنط وساعات الرجيل دوان
- ٤٥ - ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعاني
- ٤٦ - وتملى وتكتب والمشاكل جملة
ويداك في القرطاس ترتجفان

- ٤٧ - فهشت لي حتى كأنك عائدي
وأنا الذي هـد السقام كياني
- ٤٨ - ورأيت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٤٩ - ووجدت في ذاك الخيال عزائماً
ما للمنون بدكهن يـدان
- ٥٠ - وجعلت تسألني الرثاء فهأكه
من ادمعي وسرائري وجناني
- ٥١ - لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- ٥٢ - وأنا الذي أرثى الشموس ادا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٣ - قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجمل فوق النيرات مكاني
- ٥٤ - ماذا دهاني يوم بنست فمقنن
فيك القريض وخانسي مكاني
- ٥٥ - هون عليك فلا شـمات بميت
إن المنيـة غايـة الانسان
- ٥٦ - مـن للحسود بميتة بلغتـها
عزت عـلي كسرى انو شـروان

٥٧ - عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشاني

* * *

٥٨ - يا صيب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فم بأمان

٥٩ - اخلع على مصر شبابك عاليها
والبس شباب الحور والولدان

٦٠ - فلعل مصرأ من شبابك ترتدى
مجدأ تتيه به على البلدان

٦١ - فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان

٦٢ - علمت شبان المدائن والقري
كيف الحياة تكون في الشبان

٦٣ - مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

٦٤ - أقسمت انك في التراب طهاوة
ملك يهاب سؤاله الملكان

* * *

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأب أن تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أخرى بها ان

تسمى أربعة وستين بيتاً منظومة في كل شيء أو في لاشيء . فاعبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين
بيتاً لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها ربحت وعادت
أحسن نسقاً وأقرب نظاماً - قال شوقي أيضاً :

١ - المشرقان عليك يتحجان
قاصيهما في مأتم والداني

١٤ - وجدانك الحي المقيم على المدى
ولرب حي ميت الوجدان

٢١ - فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالدكر للانسنان عمر ثنان

٦٤ - أقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

٢٧ - يا طاهر الغدوات والروحوات والـ
طرات والاسرار والاعلان

٩ - ابكي صباك ولأعائب من جنى
هذا عليك كرامة للجاني

١٩ - وأحب من طول الحينة بذلة
قصر يريك تقاصر الاقران

٣٦ - شقت لمنظرك الحبوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوان

- ٥٥ - هون عليك فلا شمات بميت
ان المثية غاية . الانسان
- ٢٠ - دقات قلب المرء قائلة له
أن الحياة دقائق وثوان
- ١٣ - بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا واماني
- ٦٠ - فلعل مصرأ من شبابك ترتدي
مجدأ تتيه به على البلدان
- ٤٣ - ولقد نظرتك والردى بك محقق
والداء ملىء معالم الجثمان
- ٤٤ - يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط وساعات الرجيل دوان
- ٤٩ - ووجدت في ذاك الخيال عزائماً
ما للمنون بدكهن يلدان
- ٦١ - فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان
- ٤٦ - تملى وتكتب والمشاغل جملة
ويداك في القرطاس ترتجفان
- ٤٥ - ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعاني

- ٤٧ - فهشتت لي حتى كانك عائدي
وأنا الذي هد السقام كياني
- ٥٠ - وجعلت تسألني الرثاء فهاكه
من أدمعي وسرائري وجناني
- ٤٨ - ورأيت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٥٤ - ماذا دهاني يوم بنت فعقني
فيك القريض وخائني امكاني
- ٥٢ - وانا الذي ارثي الشمس ادا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٢ - قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجمل فوق النيرات مكاني
- ٥١ - لولا مغالبة الشجون لحاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- * * *
- ٥٨ - يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فتم بأمان
- ٦٣ - مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

- ٣٤ - في ذمة الله الكريم وبره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ - لو صيغ من غرر الفضائل والعلی
كفن لبست أحاسن الاكفان
- ٤٠ - أو كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان
- ٣٩ - ولو ان أوطانا تصور هيكلًا
دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٢ - أو كان للذكر الحكيم بقية
لم تأت بعد رثيت في القرآن
- ٢ - يا خادم الاسلام أجز مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان
- ٦ - ياليت مكة والمدينة فازتا
في المحلفين بصوتك الرنان
- ٧ - ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان
- ٣ - لما نعت إلى الحجاز مشى الاسی
في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ - السكة الكبرى حبال رباهما
منكوسة الاعلام والقضبان

* * *

- ٨ - جار التراب وأنت أكرم راحل
ماذا لقيت من الوجود الفاني
- ٥٧ - عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت أم استراح الثاني
- ١٠ - يتساءلون ابالسلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان
- ١١ - الله يشهد ان موتك بالحجى
والجد والاقدام والعرفان
- ١٨ - المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ - ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فأنت الباني
- ٢٨ - هل قام قبلك في المدائن فاتحياً
غاز بغير مهند وسمان
- ٢٩ - يدعو إلى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران
- ٦٢ - علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون في الشبان
- ١٦ - واتخذ في الدنيا وليس بهين
عليها المناصب لم تتح بلجان

٢٣ - فهي الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيّق لمؤثر السلوان

١٧ - ولو ان رسل الله قد جينوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان

* * *

٣٠ - لقوك في علم البلاد منكساً
جزع الهلال على فتي الفتيان

٣١ - ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكي بدمع قان

٣٥ - ومشي جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدق يلتقيان

٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنن
فكانها في نعشك القمران

٣٣ - وكانه نعش الحسين بكر بلا
يختال بين بكى وبين حنان

٣٧ - والخلق حولك خاشعون كمهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان

٣٨ - يتساءلون باي قلب ترتقي
بعد المنابر أم بأي لسان

٥٧ - اخلع على مصر شبابك عالياً
والبس شباب الحور والولدان

٥ - لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان

١٥ - الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يحري بغير عنان

٢٥ - ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الاشجان

٢٢ - للمرء في الدنيا وجسم شؤنها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤ - والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني

٢٦ - فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

* * *

فانظر أيها القارئ إلى هذه المراثاة هل ترى بينها وبين سابقتها
من تفاوت ؟؟ على اننا قد تناولنا الايات عفواً كما بدرت
لنا ولم نتحر الاقصاء في الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التي
تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف
التي تصل الجملة بالجملة ولاتناسب بين معناهما لم يكذب مجتمع بيت

من القصيدة على بيت ، وإنما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال
القارئ نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككاً منها ؟ ؟ فعلى حسب
الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت
من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد
والنجد أو تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة بخلع
الضرس وبخلع النفس فتأني كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟ ؟
وقبل أن نحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية
ننبه من يستبهم عليه الامر إلى اننا لانريد تعقياً كتعقيب الاقيسة
المنطقية ولا تنقسماً كتقسيم المسائل الرياضية وإنما نريد أن يشيع الخاطر
في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالاشلاء
المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة .

« ٢ » الاحالة

أما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف
والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول
أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدا كثيرة في هذه القصيدة خاصة
فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباها

منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لاتنكس لانها لاتقام على أرجل وانما
تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا إذا اظن انها أعمدة
تلغراف . على انها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى

طائل، اذ ما غناء قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمدة مثلاً
نكست رؤسها لاجله ؟ ؟ ومنه قوله :

ان كان للأخلاق ركن قائم
(في هذه الدنيا) فانت الباني

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء
أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً ولما كان على
من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولاخسارة من قطع لسانه .
والكلام في كل لغة ولأني قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين
أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم
وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال في انسان معلوم
أو صح أن يقال في كل انسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ
والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا
يرثي به مصطفى كامل ؟؟ أيفهم انه وحده هو الباني لكل ركن للأخلاق
في هذه الدنيا ؟ ؟ اذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم
السياسي ؟ ؟ وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول في قائد الحرب
وفي جوبة الآفاق وفي خطيب المحافظ وفي التاجر السري والوزير
المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق بل في كل انسان بل في الناس
جميعاً بل في مخلوقات الله وكائناته طراً من حي ونابت وجامد ؟
فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصديق والمذلول سواء أرثيت
به حجراً أم رثيت به كونفوشيوس النبي دان بمذهبه ألوف الملايين
منذ ألوف السنين . ولاجرم فان كونفوشيوس ان كان قد سن للناس
شريعة فما كل الاخلاق في الشرائع ، وهب الشرائع مصدر الاخلاق

كافة فليس كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه
 نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ
 (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيماً سياسياً
 يوقظ هذه الامة فلو قيل فيه انه موقظ كل نفس بمصر في عصره
 لما كان هذا حقاً اذ كم في مصر من رجل أيقظه ما أيقظ مصطفى
 نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته
 لهم سمعاً ولا قلباً ؟ ؟ فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في
 كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفهاً فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه
 انه موقظ كل الناس من جميع الامم في جميع العصور فالامر شر
 من اللغو وأقبح من السفه - هذا وما نتجاوزنا دائرته من النهضة
 السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الاصلاح
 الاخلاقي فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو
 من بناء رجل ولد في أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه
 قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟ ؟ اذن
 يكون بكم العجماوات خيراً من شعر الآدميين كما قلنا في فصل
 مضى .

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
 هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى لاغتفرت
 له هذه الثروة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذي يسأل أن
 يفتش فلا يصح أن يسأل هل في قلبك آمال وأمانى الا في معرض

التبكيث والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولايعي : يا هذا الذي
يمشي هل أنت حي ؟ ؟ ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته
وتبقى له حاجة ما بقي

فكل من يفرض فيه انه يفتش فله قلب تحول فيه الآمال ، به
كبار النحوس وبعيدي الهمم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا إيمان

الصواب في اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة في أصغر
المطالب وأقرب الغايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان
لايقدر على أن يشتري ابرة بغيره ولايقال في الدلالة على شدة لزومه
وبيان الحاجة اليه انه لايقدر على شراء مدينة بلونه . ولو قال شاعونا
احقر الناس خليق أن لايكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله
معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بانها ضرورية
لمن كان رسولا ففي وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بمادون الرسالة فلا
يحتاجو إلى الشجاعة . اما ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم
قوة الله وتؤيدهم روح الله لابد أن يكونوا شجعاناً حتى يؤمنوا فقد
اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت أيها
القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن
قويّاً لما كان قوياً أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم في بيت
شعر ؟ ؟ فهذا الذي يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه
ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيئ لمؤثر السلوان

والذي يقوله الناس - وشوقي منهم اذا شاء - ان فضاء الدنيا
يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد
آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالي يفسح
له سم الحياط ويرحب به جحر الضب ؟ ؟ فأما القول بأن المطامع
تفسح الدنيا والسلوان يجرها فرأى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقي
المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما للصبر على نعمها فماذا هو
ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان
ان يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقي
وما أصدقه فائنا لانرى منحة هي أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى
أنعم الله به عليه . والله في خلقه شؤون ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القموان

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثاني في
ذلك النعش ؟ ! ولا يقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين
لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع

منير فلو انه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس »
 لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف
 يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ ؟
 وما هذا الرثاء الذي لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليهما ميتين ؟
 وليته رثاء يتم بهذه التكببات التي تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق
 بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه كالشمس والقمر
 وبين الطفل الذي يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر . فالمدرسة سكر
 والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء: مرثيهم
 شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم
 شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة في
 جميع هذه الاوصاف .

ويقول عافاه الله :

وأنا الذي أرثي الشمس اذا هوت
 فتعود سيرتها من الدوران
 أي والله ظاهر . لكن الشمس والاقمار والنجوم التي تباع
 الحزمة منها بخمس مليمات وفي هذه نظر .

ويقول :

يا صبر مصر يا شهيد غرامها
 هذا ثرى مصر فتم بأمان

ونقول انما يرثي بهذا البيت غريب جاهد في سبيل مصر وهو
 بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام

في ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات في وطنه: أحبيت بلدك
فم في ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن في غيره .

ومن مبالغاته التي تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في هذا
البيت ونحن ننعي على هذه المبالغة دائماً انها لا تدل على شيء فهب انه
قال :

فلو ان بالقطين من عزماته
بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال :

فلو أن بالاشطين من عزماته
بعض المضاء تحرك الشيطان

إلى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت
في رثاء مصطفى أو في رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور
كائناً من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ؟ ومتى كانت الاوصاف
لا تتغير بتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارىء — ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المعزية فانها
مصر بريفها وصعيدها — مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فله در
شاعرها يرثي رجلاً أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً ، ولأي ضرورة
وليدل على ماذا ؟ ؟ لاشيء .

وقد اجترأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل ما في القصيدة من شواهد
الاحالة واعوجاج الطبع بل لأنها ذات طعم وان كان رديئاً مججوجاً
وما سواها تافه لاطعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة يجمعتها
بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما أكثر سلامته
من الحلو لا من الاتقان .

(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني
وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المراثية
على المعجيين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان
مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما قاته وفضول العيش اشغال
وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصترون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الانباري فوق تشويهه وذلك حين يقول
في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيباً
وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وإنما
يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة . وقوله :

أو كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الأسماع والأجفان
مأخوذ من بيت ابن النيه في قصيدته التي لم تبقى صحيفة لم
تستشهد بمطلعها :

الناس للموت كخيل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد
والبيت هو :

دفنت في التراب ولو أنصفوا
ما كنت إلا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرخول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه « عوالم »
الافراح في اغانيها وحسب الشاعران لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائلات « أحطك في عيني يا سيدي والكحل عليك » وانه ليقول كما
قلن :

ولو ان لي علم ما في غد
خبأتك في مقلتي من حذر

وقوله :

أو كان للذكر الحكيم بقية
لم تأت بعد رثيت في القرآن

منظور فيه إلى بيت المعري :

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الآي والسور

وهذا البيت :

أو صيغ من غرر الفضائل والعلل
كفن لبست احاسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقي إلى هذه المعاني سوى أنه جعل الاكفان تصاغ
وأنه تحللق فقال :

فلو ان اوطاناً تصور هيكلها

دفنوك بين جوانح الأوطان

يريد جسداً . كأنه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسداً لم يدفن

الفقيد النابه فيها ؟ !

وربما سرق شوقي ما لا يستحق أن يسرق فهذه شطرته :

لما نعت إلى الحجاز مشى الأسي

أليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته .

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضاً « ان المنية غاية الابداع » وكأن القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دلى أو نأى فان المتايا

غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود إلى بيان سرقاته في فصل على
حدة .

(٤) الولع بالاعراض دون الجواهر

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالاعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق بين
الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به إلى الآخر
اذا تشابه في الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفتن
إلى الاحالة ولكن التفتن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا
يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزاة الرجال . انظر
أيها القارئ إلى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له

ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد في رأي عشاق شوقي فعلى اي معنى تراه يشتمل ؟
معناه ان السنة او مائة السنة التي قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق
وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع
وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد
أتى بالحكمة الرائعة ؟ ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب
ودقات الساعة وهذه هي البراعة التي تعجبنا وبها هدانا إلى واجب
الضن بالحياة - وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التي يذهبون اليها في
اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لاتتعاى بالحقائق الجوهرية والمعاني
النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة
والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائتة او الرملية فهل يفهم
لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات
الدقائق والثواني يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟ ؟ ابهذه العوارض
يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذي ينظم في الحياة
الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟ ؟ ولقد قلنا في نقلنا
لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لاتتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق
الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هذه
الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لاتتعلق بفترة محدودة
ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه .
ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحاً يعظه في موقف جد - وأي موقف
جد أجد من رثاء النابغين ؟ ؟ - فيناديه يا أخي صن وقتك لان قلبك
ينبض كما تنبض الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه
يخامره الشك في عقابه ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعراً يطرب له

ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسابه ان الهزل جائر في الشعر فكاهة
وحكمة ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقد أن يضحك
منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك في علم البلاد منكساً
جزع الهلال على فتى الفتيان

ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكي بدمع قان

والعلم جرهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة
وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض
فهو نسيجه ولونه وخاصة وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله .
فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر .
ولاريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثي بالراية المصرية لو لم تكن
حمرا كي يكون لونها دمعاً ودمعها دمماً متزوّفاً . وليست هذه هفوة
أو فلتة بلرت منه هنا بل هي دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال في
وصف الهلال الأحمر :

كأنه ما احمر منه حول غرته
دم البراعة زكي شيب عثماننا

كأن ما ابيض في أثناء حميرته
نور الشهيد الذي قد مات ظمآننا

كأنه شفق تسمو العيون له
 قد قلد الأفق ياقوتاً ومرجاناً
 كأنه من دم العشاق مختضب
 يثير حيث بدا وجداً وأشجاناً
 كأنه من جمال رائع وهدي
 خلود يوسف لما عرف ولهانا
 كأنه وردة حمراء زاهية
 في الخلد قد فتحت في كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضاباً لشبهة أو دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية ؟ ؟ وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خلوداً من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولاغرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالاً أبيض في أثناء حمرة والهلال الاحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه اليه — ومع هذا فاني لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكائنات) في أبياته الستة ويخيل اليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن لامن يقول من ومن . .

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفي الحجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة ينحشى أن يظن بها الناس

الظنون وهي بريئة عفة ؟؟ اذ ما الذي يخطر على باله الحجل والريبة في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا :

ان كان الاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فأنت الباني

ولكنها الغباوة لاتعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها ؟ ؟ وليت
شعري شوقي اذا كانت كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟ ؟
أكان لا يرى للفتنة معنى لأنها لاتبكي بدمع أحمر ؟ ؟

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة العودة . كومة
الرمل . كما قلنا في أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبايع بمخالفة
الواقع فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط ، وسملاً مرقعاً من النشوز
والاختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر فيأتي بالمستوى
من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في أغراضه ومعانيه وهو ملتو ،
ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل إلى مكة فلا يقول :

لما نعتبت إلى الحجاز مشى الأسى
في الرائرين وروع الحرمان

السكة الكبرى حيال رياهما
منكوسة الأعلام والقضبان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارئ
للصحف ولاسيما لدى وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال ربي
مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هي حتى الساعة .

وكان في مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه :

وكأنه نعش الحسين بكربلا
يختال بين بكى وبين حنان
وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التي
يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لاكف قلبه
الا برطيء من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضي وهي تنهيه
نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه
وقد أقام ثلاثاً غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ومن العامة من يستظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى أثنى بالجراح وانه - لاهيا الله
قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم
ديس بالخليل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم أرسله إلى يزيد في خبر فاجع لاهاجة إلى تفصيله . وأنى لمن يموت
هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المراكب ؟ ؟ ولانقول
يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال إلى النعوش الا
من كان نعشاً مختالاً كهذا الذي لا يميز بين تشيع قتيل إلى قبره وزف
عروس إلى خدرها . فإن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل

به الشيعة كل سنة تذكراً لوفاة الحسين فالحطاً أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشاً وانما يقتادون جواداً مسرجاً ملجماً لأنهم أركن من شوقي وأدرى بما ينبغي أن يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتفلون بمصرعه في ميدان حرب لا يمدفنه في الثرى .

كان يسعه أن لا يقرل ذلك كما كان يسعه أن يسكت واكنه ألهم أن يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا يتداركه . وأن يجتهد في ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينشق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يههم من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا ان يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولاندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به إلى مضاهاة المتنبي ومضارعة المعري قبل ان نكشف عن غشاوة يندع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البدييات واشباه البدييات التي بتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبتياته ويريح نفسه من عبء لاطاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من أصعب الشعر مراماً وأبعده مرتقى لا يسلس قيادها لغير طائفة من الناس توحى

اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجري بها ألسنتهم آيات تنفخ ببلاغة النبوة وصدق التزليل ويلقى أحدهم بالكلمة العابرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكانما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات مالا تزيده الاسفار الضافية الاشرحا وامتداد وتسمعها فتشع في ذهنك ضيائها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأثلف القدم والجلدة : قدم الحقيقة كما ثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب والنفوس الحية التي تطبع كل امرئ بطابعها .
فهي تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة للجاهل أو غافل

عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه

ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعي والغافل من يعي لو شاء ولكنه لا ينتبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهل فلن يجد انساناً غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يامع إلى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكان

قارنُها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى
لكا الطول (١) المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل ما يقال في بجوحة العمر المرتبهة بالأجل
وطورا تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبها كما قال
البحرّي :

متى أرت الدنيا نباهة خامل
فلا ترتقب الاخمول نبيه
وطورا تصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجزار
تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور
الظالم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

أو كقول أبي فراس :
ما كل ما فوق البسيطة كافياً
فاذا قنعت فكل شيء كافي
ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات

(١) الطول جبل يطول للدابة لترعى فيه والثني الطرف .

الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق
لصديق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس :

بغاث الطير أكثرها فراخاً
وأما الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيراً
في كل نسل ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعني العويس والفكر البعيدة فيوضحها
وضوح المألوفات كما صنع الأفوه الأودي بهذا البيت الفذ :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثاً وتنقيباً في علوم الاجتماع وكلت القرائح
تدبرا والمأماً في شؤون الامم وراقبت الدول على سنن شتى من الانظمة
واللساتير فما خرجت كلها بزبدة أوجز ولاأصدق ولاأتم من هذه
الحكمة التي اهتدى اليها هذا البلوي الناشيء في عصور الجهالة وانك
لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على ايراد
الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصمية
والفطنة النافذة واللسان البليغ وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكاً
مشاعاً للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتدلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها

ما كان من قبيل "مصيل الحاصل" ، وكلها لافضل فيها لقائل على قائل
ولالسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز
كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ، وكانت تلك
كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والمهجير ، وأحمق
من يحفر البئر على شاطئ النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه
البديهيات تلك النصائح النماشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية
« كالعلم نافع وللصدق منج والبركة في البكور واحترم الاستاذ
تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة » وما إلى هذه النصائح
والامثال والحكم - ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصبح من فوقها :

لي دولة الشعر دون العصر وائلة

مفاخري حكمي فيها وأمثالي ؟ ؟

فهل يدري القارئ من صاحب الحكم والامثال الفخور ؟ ؟
انه هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وأمثاله التي استتبت له بها
دولة الشعر ؟ ؟ هذه هي :

عليكم لواء العلم فالفوز تحتته

وليس اذا الاعلام خانت بخذال

والعلم في فضله أو في مفاخره

ركن الممالك صدر النولة الحالي

يقول للعلم عند العارفين به

ما تقدر النفس من حب واجلال

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها

ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارئ بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول
نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم احفظ للدرس .
« حلي النساء الذهب وحلي الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد
عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأي ميسم يبلو عليها من مياسم نفسه
وماذا فيها من وحي الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟ ؟
أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات
فأكثر — فليتلق الوحي أناس حججوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحسنون هم اللها
ب وسائل الناس الثفاية

ان القضاء اذا رمى
دك القواعد من ثبير

والمال لانجني ثمار رؤوسه
حتى يصيب من الرؤس مدبرا

الجد غاية كل لاه لاعب
عند المنية يحزع المفرح

سر في الهواء ولد بناصية السهى
الموت لا يخفى عليه سبيل

فلم أر غير حكم الله حكماً
ولم أر دون باب الله باباً

وان البر أبقى في حياة
وأبقى بعد صاحبه ثواباً

ومن يعدل بحب الله شيئاً
كحب المال ضل هوى وخاباً

وما الرزق مجتنب حرفة
اذ الحظ لم يهجر المحترف

ما الدين الا تراث الناس قبلكم
كل امرئ لأبيه تابع تال

ومن العقول جداول وجملامد
ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقعها
ليس الشجياج الرأي مثل جبانه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر
الزجاج مع الحمال وهي الحكاية التي يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة
فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمي بحكمه الثلاث للحمال
واحدة في أثر واحدة فيفهمه متتداً أنه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشي أول له بتقشر . وان آل لك حد الغني مثل الفقير أول له
بتقشر » فكنا لانظن هذه الحكم تساوي أجرة « شيلة » حتى رأى
ان يسمعنا نظماً « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتقشر »
فأما بخرق ذلك الحمال الذي لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية ؟ !
وهل علم أحد أن المسافر اذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقي :

وكل مسافر سيؤب يوماً
اذا رزق السلامة والايابا
أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغرباً جهاهم سائلا اياهم :
أليس الحق أن العيش فان
وان الحي غايته الممات
أليس كذلك أم ماذا بالله ؟

أم حكم أحد الاجلام الا حين علموا منه أن :
الحق أبلج كالصباح لناظر
لو أن قوماً حكموا الاجلاما

* * *

ومن أمثلة حكيمته المغشوشة المعتملة قوله :

لئن تمشى البلى تحت التراب به
لا يترك كل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسير . ومعناه ان جثة شكسير استعصت
تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها — — أي انه لم
يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى أتلفها ولم تفتت
هي حتى تفتت . مهابة واجلالا ؟ ؟ . . . وانه لما أكلها أكلها ولكن
بعد تقسيمها كما ان الأسد لا يؤكل الا عضواً عضواً . . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء
المحسن إلى واحد من رعاياه بالتقدير والثناء ، المنعم عليهم بالذكر
والإيماء . تصفيق متواصل . . . لابل ضحكك تتجاوب به الأصدا ،
على القرينة الصماء ، والقطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر
وأمر الشعراء .

فيا هذا . أن جثة شكسير ليست بموضع العظمة منه لأنها في
الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة أجساد كثيرة . وهي في الموت
رفات يبلى كما تبلى بقايا الأحياء من أكملها إلى أدناها . ولو جاز
أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك أليق بإبطال
الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم .
ولكننا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع :

من لا تشابهه الأحياء في شيم
أمسى تشابهه الأموات في الرمم
وهو من نعلم محضاً الحروب واين الكريهة وحلس الخيل كانوا

يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟ ؟ وعلى انه لامعنى
لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشية فيه
هو التقسيم . ثم لامعنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا هو واشلاء لأن
الشأن كذلك في كل مأكول فالقار أيضاً لا يؤكل الا وهو اشلاء
واللهاجة لا تؤكل الا وهي اشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو
اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدد لقمة واحدة فيما نظن ويظن
جمع الآكلين .

وصاحبنا يرثي شاعراً فيخاطب هذا الخاطب فعافاه الله أي نوع
من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التي يلتصقها منذ ثلاث
قرن من الزمان ؟ ؟ وأين من تقدير شكسير من يرثيه رثاء اذا
صبح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟ ؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضاً يتزل بالحكمة اليه
فيلحقتها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمرة ان كنت فهم
ان عزرائيل في خلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل
من توقاه اتقى نصف العليل
اتخذ سكناك في طلق الجواء
بين شمس ونبات وهواء
خيمة في اليد خير من قصور
تبخل الشمس عليها بالمرور

ونقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب
« احترس من التشالين » و « ان أردت التزول اطلب من الكمساري
توقيف القطر » « نابغة يستلمي الحكمة ويستمد وحي الشعر ويرتجل
البلاغة ؟ ؟

* * *

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتاً يجوز أن يكون معناها
مطروقا شائعاً ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها
الشاعر المطبوع فيتفتش فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما
هي . ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المتنبي الذي يقتضي شوقي
أثره ويطمع أن يحاربه . وهذا بعضها :

لو المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

ألف هذا الهواء أوقع في الأذ
فس ان الحمام مر المذاق

من أطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلسمه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه
ما للجرح بيت ايلام

لا يعجبني مضميماً حسن بزنه
وهبل تروق دفيناً جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع للدامغة
وآية الفطنة البالغة ، وهي قد كان يمكن أن تقع لشوقي من ذخيرة
الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته في نقل هذه الأحاديث منظومة
فاذا هي مثلاً : (الجلود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق .
القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان يزين الذليل حسن النيرة)
وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة
فكلاهما صحيح ولكن ليست الصحة الواقعية هي ما نطلب من
النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وإنما المصدر الذي
تبجست منه والشخصية التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت
من لدنه والحجة التي صيرتها مقنعة شافية هي بغيتنا من نجوى الالهام
وهي التي يرتوي منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا
المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتم المعنى لأن هذه الشطرة التي لا تزيد
البيت صحة تزيده حياة وتنبئاً وحدها بان في البيت حقيقة أقرب إلينا
وحجة أصدق بنا وثمره أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التي
تتمحن بموازين الجحجج والصرع ، وتأمل تغييره عن الحياة بأنها « ألف
هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟ . أليس المتنبي قد
لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها الا
عادة تألفها زمناً ثم تبطلها ؟ ؟ ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتدلة أيسر ما يتعطاه النظامون لأنها
صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساساً ولن

بقاربوها ولا اختلاماً . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو
 وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما
 خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية
 لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلاؤها فليعلم هؤلاء المحسنون
 الظن بحكمة النظامين ان أرقى ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة
 في شؤون المعيشة وفرق بعيد ويون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة
 الحيوية فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافاً من أمثالها في كتب
 اللياقة ونصائح « اياك وحذار وعليك » وأما الثانية فقيض مزايا الحياة
 النادرة وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية .
 كتابها صفحات الأكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تنفجر العقائد
 والاديان وتنبت روح الرشد والبيان . الاولى لون من ألوان البيئة
 المكتسبة والثانية قيس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .
 وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لاشك في غلبة الصناعة عليه
 كالحريري على ما أذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا
 غير ان الشباك مختلفات
 ولكنها فلتات لا يقاس عليها .

ولقد ذاع لشوقي بيت شوقي فظن انه سقط على كثر وطار به
 كأنه لا يصدق انه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو :
 وانما الامم الاخلاق ما بقيت
 فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان تولى مضوا في أثرها قدماً

ثم كرره أيضاً في قوله :

وليس بعامر بنيان قوم
اذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول :

ملك عل الاخلاق كان بناؤه
من تحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعدّ
من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق
أن تصغي اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع
وقوام الامم ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان
ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البدييات ويدخل فيما
نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الاولى .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
في بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشي ولها ذنب
لاتغضب يوما ان شتمت
والناس اذا شتموا اغضبوا

إلى أن يقول :

الناقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب

وكثير في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها أنها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطعم بالسخف البحث أن يستأثر بدولة الحكم والامثال .

وقلنا ان كان البيت مدلول ، لان البيت في الحقيقة لامدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها أصفاراً لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لاتؤدي معنى محدوداً في الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراعاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحياناً من كلام الافرنج حين يصفون رجلاً بأنه من ذوي الطباع والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟ ؟ ان من الامم ذوات الحيوية الغالبة من لاتعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلاً وهي مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واجتواها على بواعث القرّة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الامم . وان منها لما تحمد سجاياه ثم لاتلفيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقي ما ما غناء بيته ان كان لايبين لنا ما لو أنها كما قال بنو اسرائيل

ولقد أضحكتنا مرة أحد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام مالا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما يوافق هوى من نفوس الناس وان

في ذبوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من
بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً
انما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمة فهنئاً لنا ؟ ؟ اننا أمة من ثلاثة عشر
مليون حكيم بل هنئاً للانسانية فان الشمس لا تطعم الا على الحكماء
من أبنائها .

* * *

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم بفاطمة
الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني والضريح الزينبي
ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم
بالعرة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالأمس الانيرة . . .
بهذا القسم ، أو على الاصح ، بهذه الاقسام استهل شوقي رثاءه
للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حافظت	بالمسترة	والروضة	المعطرة
ومجلس الزهراء في	ال	حظائر المنورة	
مراقده السلالة الط		يبة	المطهرة

ما أنزلوا إلى الثرى . بالألسن الانيرة

واولاً أن الامر أظهر من أن تحتاج إلى قسم لأقسمت له بكل
قلبة ومقام، وبكل نبي وامام ، انه لنسج وحده في فكاهة الرثاء، ان
كان للرثاء فكاهة ، ولم لعبر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقي
في مراثيه أبجع فذا مبتدعاً منه وطفق يبيكي من يبكيهم كافة بنمط
يلتبس عليك فيه الجلد بالزح ، ويقترن العبث بالمدح - أفرأيت
أحداً قط يقسم لك على صدقه في تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى
التكذيب أو يتقي أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقي ؟ ؟
واذا أطرد هذا في جميع شعره فلم لانتحسن الظن ونتلقاه منه على أنه
مذهب جديد في بابيه وننخذ له اسماً في أصول البلاغة مصطلحاً عليه
فكاهة الرثاء مثلاً كما قلنا أو اسماً آخر مقبولا لديه ان لم ترقه
هذه التسمية ، ثم نورد التراهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة
بحمد الله الذي لا يحمده على المكروه سواء ؟ ؟

وسري الذين يمارون في اختراع شوقي لهذا الباب واطراده في
قصائده جميعاً وفي أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سريهم أنها
ليست بغاية نظم أو هفوة خاطر واكتنفا أصول يرعاها وأسوم يعيها
ولا ينساها . والا فلو كان حنره من التكذيب وانقذه تهمة المدحاة
فلتة سبقت بها قريخته في مطاع التصيدة فماذا كان يدعوه إلى أن يقول
بعده :

دع الجنود والبنو	د والوفود المحضرة
وكل دمع كذب	ولوعة مزورة

ألا ان الأمر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم
فأشعرنا الريب وآتهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب
واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون
الرثاء وانما تفتنا واختراعاً لم يسبق اليه ونرجو ان لا يباري فيه . . .
فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم
فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلا بد اذن من أن
يتنقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله
ورسم نماذج .

* * *

عجيب والله أمر هذا الرجل ! ! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا
توقراً أقرب إلى المجانة من هذائه في رثائه . وما التيس الهزل بالاجلال
قط التباسهما في تأيينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات
الاميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟ ؟ وهبها لم تكن
كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايامن
أو البراهين في قصائد الرثاء ؟ ؟ نتجاوز هذا ونسأله : ما باله يفترض ان
الناس تبكي على الاميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟ ؟ ضروري
هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لاتغنى عنها وأنه :

لا ينفع الميت سوى سالحة ملخرة

أيقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة
نفعت الميت وأغته عن الصالحة الملخرة ؟ ؟ فاذا كان التباكي كالبكاء

في هذا المعنى فلم هذا السخف الذي يغض من المبكية والباكين وليس
له من جلوى ؟ ؟

* * *

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من للنقد لولا اننا نريد أن
يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفاً
لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان
في معرض الاستحسان فأحبينا أن نسمح الرغو عن محضهما لمن عساه
ان يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الاول وهو :

فاطم من يولد يمت
المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر
من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا إلى غيرها
فانما الدنيا لهم مغير

وفصله المعري وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول
وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتم غفلة المنية واعلم
انما الشيب للمنية جسر

فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوهه كعادته لانه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالاً ؟ ؟
والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته
والبيت الثاني أو هو بيت القصيد في رأيهم قوله :

يلفظها محتظلة كانت بفيه سكرة

بغنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت في القصيدة خلا هذا البيت، وهذا من الغرائب في تضاد الانواق وانتكاسها. فقد دل به شوقي على سقم تعبيره واراد أن يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه محتظلة

لكان هذا الصواب في تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا أدركه الموت حلاً لماذقها لديه وكبره أن يلفظها كأنها « السكرة » ؟ ؟
ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوساً . . .

ومن ترهات شوقي التي يخرجها يخرج الحكم قوله من هذه للقصيدة :

وكل نفس في غد ميتة فتنشرة

فالنفس لانموت في غد فحسب ولقد ماتت نفوس لاثمصى
 أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهي تموت اليوم بل
 الساعة . ولكن الرجل انتهى أن يقول : ان كل نفس تموت منشرة
 غداً — فعذابه الاداء وخذلته العبارة وهي لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا
 ما شغلناه حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب في الهواء
 ولا نطرح في البوتقة الحصباء ، والشعر اذا تساوى فيه النقد والاعضاء
 فخير منه الصحائف البيضاء .

* * *

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يترث دونها الحصفاء أحياناً وكثيراً ما يخطئون السداد بتريئهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أو جله اذ يدعى الدعاوي العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينفق إلخافه عند من ليس يكرههم ان يخدعوا به . بيد ان الاعتساف اذا كان رائده الخرق في الرأي وشيك ان يوقع صاحبه في الزلل احدى المرات فيضيق عليه ما لو علم انه مضيعه لعداه بكل ما في دماغه من هوس وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وان قلميه أساس مقداداً من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الاول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقي وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعي لانه لا يبالى اذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ؟ ؟ ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والسخيرة فلم يدع في طبعة نشيده

الثانية وجهاً من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان
القذيفة لايرمى بها مرتين ولا تصيب من متزعين . ولقد أحسن بنا
الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه إلى صنيعة ، وما له
عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق
الناس من غيرنا ولا نرضى اجترأهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية
الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا
يا أبا درويش أو يا أبا السامي كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما
للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لا يغتصب
بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقي ان النشيد القومي يجب « أن لا يكون
وعظاً بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب » .
فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير
المتكلم فقال :

إلى العـلا في كل جـيل وزمن
فلن يموت مجـدنا كـلا ولن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الاولى :

إلى العـلا في كل عـصر وزمن
فلن يموت مجـد مصر لا ولن

ولما ان طوي هذا الضمير ووثق مواراته ونفض عن يديه ترابه
وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئاً وصاح يؤنب شوقي لقوله :

على الاخلاق خطو الملك وابنوا الخ الخ

ويسأله : « ومن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقي للشعب ؟ ؟ ص ٧٩ » كما سأله من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ » وكما أخذنا عليه « انه استوطأ مطية الفلسفة والمواظ »

وأنكرنا من نشيد شوقي انه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيداً لانتخطى به في جميع العصور أن يتهاً مكاننا وأن لا نبرح نشرق في التمهيد وأخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشيد الاركان »

فجاء أبو عمرو البغاء فقال « واذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهلو للملك ومكانكم تها فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يرالون الدهر كله في تمهيد ؟ ؟ » ص ٧٨ وعقبنا على قول شوقي عن الشمس « ألم تك تاج او لكم ملياً ؟ ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها »

فعلمت البغاء أيضاً « ان زعم شوقي ان هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها ؟ ؟ » ص ٧٩ فله ما أعلم البغاوات بالتاريخ اذا لقنته ؟ !

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وانه صير « سثلت » سبيلت و « تها » تها و « شيناً » شيا .

فلم ينسبها أبو عمرو وجعل يقول . « وهذا التسهيل في همزة
صليت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الاساتذة
فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمد الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الاساتذة الذين لا يدركون
ما يدركه هو بهذه السهولة ! !

ورويانا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تأحين تطاول
عهدهم عزاً و« فخرأ » الخ الخ .

لان التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت «
قالوا » واذا انتهى المنشد مثلاً إلى كلمة « فخرأ » ومد بها صوته ورجعه
فأي رائحة تفوح منها ؟ ؟ « ثم قلنا : « ولستنا نحن ممن يبالي بهذا النوع
من التقيد ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الادباء والملحنين أنهم « تنادروا بقوله
فخرأ وجعوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يدوقه أحد
الشعراء من طعم كلامه »

ثم قال كما قلنا ولستنا بسبيل هذا السخف فلندعه «

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟ ؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا

ومن حدثانه أخذ الامانا

ونحن بنو السنا العالي نمانا

أوائل علموا الامم الرقيا

لان الناظم ساقها مساقاً ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس »

فاستضعفها صنادنا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجباً : « كيف غفل شوقي عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣
فأسأله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !
ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الاخلاق خطروا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن
السخ السخ

قال « ان البيت الثاني منبر وسأل : ما العلاقة بين النصح
ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والكوثر »
فترك هو القائل والراوي وزوى وجهه عنهما وصاح وحده :
« كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لديه سؤاله : « فاذا كان لهم
بوادي النيل عدن وكثرها فماذا ؟ ؟ ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذي الجلال
وألفنا انصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذي
الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية وثيهدوية ؟ ؟ »

فوضع أصابعه في أذنيه - أو لم يضعهما - وأصر وولى واستكبر
استكباراً وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فإذا « زعم انه يريد بملء ذي الجلال الدين مطلقاً قلنا له فان القوم
على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل هذه
الاديان ملة ذي الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولاشارة إلى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان أحداً
تقدمه إلى هذا النقد بل لعاه قصد إلى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
أنها طبعت في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه انه ضمنها في
صفحة ٦٧ كتاباً للاستاذ منصور افندي عوض مؤرخاً في ١١ ديسمبر .

فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هي التي تملأ نفوسنا
تقززاً وعزوفاً من أدب الجليل الماضي وأدبائه ومن صناعة ينتسبون
اليها ولكن ليس لها ما لأحققر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء
اليه ووازع يوقف عند حده - أرجحهم منها سهماً أجمعهم فيها
بين استخذاء الجحيم وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسماً أطبعهم على
ضعة الخيلة وضنوف الرياء ، وشعارهم جميعاً نقيضان من شعور
بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق
للويها ولا تعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على
المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وانما البأس كل البأس
عليه من المروعة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدناها وأبيننا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع انها أهون
وجوه النقد التي أخذناها على التشيد ومع اننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة
اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان نسمع حوار اللجنة .

بصدده . وهذا رجل لا يستحي ان يسم نفسه على غلاف رسالته « بنايقة كتاب العربية ورهرة شعرائها » يعمد إلى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يقات منه كبيرة ولا صغيرة حتى تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام (١) ثم لا يرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كنمة اليه ولو من باب التاريخ لحادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته في أقاصي الصين أو أطراف السويد . ولاندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلاية من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن انه فاتنا أبلغ في النقد والسخر فنعى على نشيد شوقي خاوه من لفظتي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بلونه .

ايه يا خفافيش الادب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لاهوادة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسفرغ لكم أيها الثقلان فأكثرُوا من مساوئكم فانكم بهذه المساويء تعاونون للادب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الادب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكثرهم أن يقرؤا أصنام الطبقة التي هم دونها ليكونوا بذلك أصناماً للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغفل باطله ونزعت شياطينه وانفردت ردائلة فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

صنم الألاعيب

كتبنا كلمة أولى عن شكري في الجزء السابق أرضت اثنين :
 أهل المذهب العتيق البالي الذين كانوا يابون الا أن يعدوا شكري من
 دعاة الجليد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره واكن هؤلاء
 سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نيط الاذى عن المذهب
 الجليد ونفهي عنه وخامة شكري . وليس يعيننا أمرهم ولا نحن نبالي
 سخطهم من رضاهم فانهم في رأينا جثث محنطة .

وثاني فريق الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان وسلامة
 الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب
 ونفض غبار الماضي عنه . ولهم لالسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحمون على أكتافهم رؤسا وكأئما
 حملوا معدة أخرى لأعقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا
 أن لانشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء في مخاوف مخافة أن
 يجيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا في محذور وجئنا أمرا
 يلزمنا عاره ويبقى اسمه ؟ ! فيا ويحنا لقد أسخطنا والله هذه الانعدادات
 الساغبة وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقلنا شكري الذي « وضع أهم أحجار
 النهضة وضحي في سبيلها شخصيته وشهرته » ! ! كما يقولون .

ولكن لاضير علينا من غضبهم ولاداعي لهذا الغضب فانا لانكر ان
شكري « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم ! ! لايعرف لبيكمه ماذا يقول . ويتطوع
المشفقون عليه للدفاع عنه فيجيء دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون
منا انا جعلناه صنم الأعيب وهم يسخرون منه ويتضحكون به .
وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى . نخلص له النصح
ونمحضه الرأي والسداد ونشجعه ونغثبط بما نراه من تملاه من قيود
العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة في التحرر ونجري مع الامل
فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين في غير مطمع ؟ ثم أهملناه
على شيء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه في الزجر فلم يغن لا
الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادراً راكباً رأسه خنى أحفاه ؟
ولقد كنا في كل ما كتبناه عنه في أول عهده بقرض الشعر لا
نعفل إلى جانب التشجيع أن ننبهه إلى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء
الثاني من ديوانه « انه يظاً مفاخر الصلوة بقدميه وانه « لايتعهد كلامه
بتهذيب أو تنقيح ولايبالي أي ثوب البس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه
هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء في المنهج القديم وبلاجتهم في
احتذاء المثال العتيق » أي أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل
يقابلهما من الجهة الاخرى غطيظ المقلدين في كهف الماضي وكان
ذلك في ١٩١٣ فهل يرى أحد أن رأي اليوم لايتفق مع رأي الأمس ان
صح ان هناك رأيين ؟ كلا لقد أدينا الواجب له وللأدب قديماً ولكننا
اليوم نؤدي حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها
 « اذكك نتهم شكري بالجنون وأنت مثله والجنون في شعرك كثير »
 وما رمينا أحد بالجنون بل قلنا ان ذهن شكري يتجه أبداً إلى هذا
 الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على ان كوني مجنوناً لا يشفع
 لشكري ولا لسواه في شيء جل أو دق وما آثمنا شكري ولا تقواننا
 عليه شيئاً ولكنه هو الذي يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل في كتابه
 الاعترافات صفحة ٧١ »

« اني أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميمة فلا غرو
 اذا رأيت في الضياء ظلاماً ورأيت في سواده ما يحاقه سوء الظن من
 الاوهام التي هي كخيالات الشياطين في ظلام الليل . ومن بالغ به
 سوء الظن هذا المبالغ يسمع همس شياطينه في أذنه فاذا تنفست إلى يمينه
 وجد سوء الظن يهمس في أذنه اليمنى واذا تلفت إلى يساره وجد سوء
 الظن يهمس في اذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التي
 يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها في حركات
 وجهها وجسمها (١١) هذه الشياطين هي الخواطر التي يهيحها سوء
 الان تمرح في ظلامه كما يمرح الطوط في الظلام وتؤدي بالمرء
 إلى الجنون (نعم قد عانيت من أجها الجنون وجرعت كأسه المرة
 وبلغت أعماقه ولا أعني جنون من لا يحس جنونه بل أعني جنون من
 يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذي
 لا ينسى المرء الذكر والأمني) أ. ه .

فول رأيت أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكري أكثر اعتدالا
 منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالح في شيء ففهي الحذر والاحتياط وفي
 التحرر من التعبير بأكثر من المراد وفي فرط توخيها للتقصد وتحرينا
 للضبط والدقة ؟

ونقد قلنا ان شكري بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهداً على ذلك وفي النبذة التي اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفي قبحها بل تظهر قبحها في (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز في شيء فان صاحبنا شكري لم يدع سبيلاً إلى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضاً في اعترافاته ص ١٠

« ويسمع المحب أنغاماً والحناناً (غريبة) لا يسمعها غيره وائس لها وجود ويرى أشكالاً هندسية بدیعة لا تسمع عنها في كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية لا يعرفها انباحتون في علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعام ان لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في وصف جنونه « ولا أعني جنون من لا يحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائج »

وشكري قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال في ص ٢١ من الاعترافات : لقد كنت في صغري كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت ألتبس العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلي (وحتى صارت) عالماً كبيراً ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولي تحمل حيث أكون وأذكر أنني رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلة وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف »

وايس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبغ أشده
كما كان في حداثة . انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحايين أخاف خوفاً شديداً أن يظهر لي إبليس . .
فأنامنت كي أثق انه لم يظهر بعد وفي بعض الأحيان أعتقد وجود
العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صغري لقد سمعت البارحة
التقطط تعوي وتصرح مثل عواء (المجانين) أو عواء الارواح الخائفة
المعدبة (التي تتخذ الليل جواباً ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه من
العذاب فلما سمعت عواء التقطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم اشك في أنها عفاريت من الجن وأصابني رعدة شديدة)

وتألى تدقيقه في وصف هذه الارواح الخائفة التي يذكرها
وكيف أنه لايند تمثيلاً لمواء التقطط – لاعواؤها – الا بعواء العفاريت
وكلنك كل صررت في سمعه قال في ص ٢٦

« وقد سمعت مرة عواء الخاوير كأنها عواء جنية أصابها الموت
في ولدها » وهو بعد ياتله المربعات كمنظر النار تأكل الدور قال في
ص ٣٤ « أذكر أنني رأيت مرة حريقاً هائلاً في جنح من الليل فهيج
في قنبي عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر
بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى
بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهلم وتنهال وتقتصاعد ألسنة النار
والدخان يعاوها والظلام حولنا وعلى أوجها نور يزيدنا شحوباً
وكنتم أحس لفح تلك النار في خيالي وذهنى . . . هذه هي المناظر
التي (ألتذها) ومن الغريب اني يخيل لي ان هذه المناظر وما تبعته من

الاحساس تعين المرء على أن يفهم معاني الحياة ومعرفة سرها »

ثم تصور شكري واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكراني بسوء . .
أو أحداً ينظر إلا حسبته يحدث نفسه عني بسوء واني لأسيء ظني
الآن بمن سيقراً هذا الكتاب وما رأيت أحداً ينظر في ثيابي الا حسبته
رأى فيها شيئاً خفي عني وما رأيت أحداً ينظر في وجهي الا حسبته
رأى فيه شيئاً قلداً وما رأيت أحداً عابساً الا حسبته يعبس من أجلي
بغضاً أو حقداً وما رأيت أحداً باسماء الا حسبته يسخر مني ويهزأ
بي وما سمعت ضحكاً لم أعرف سببه الا خجلت خجلاً شديداً وحسبتي
غرضاً لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صرت أعبس في وجه كل
من يبسم في وجهي من الناس الا من عرفت سبب ابتسامه وأحياناً
أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به) .

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والنفاريت كل ما يملأ ذهن
شكري فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام . قال في ص ٧٥ من
الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجن لقد رأيت في
الحلم البارحة اني اتهمت (كذباً) باتيان جريمة ولم يكن عندي ما
أدفع به التهمة فصرت أصبح امام القاضي وأقول أنا بريء والقاضي
يهز رأسه ولا يصدقني والشاهد الكاذب يبتسم ابتساماً خبيثاً ثم رأيت
بعد ذلك اني أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع . . : اني لاذكر
اني اتهمت (زورا وبهتاناً) في أيام صغري بسرقة علبة من الحلوى

ولا أزال أذكر ما نالني من الفزع أن تكون الحياة كلها بهم (كذا)
باطلة : .. على انه من (جنون) اليأس والفزع والجن توقع ما لم يحدث
من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي أن تفوت القارئ ملاحظة تنبيهه دائماً إلى أن هذه
التهم مزورة كاذبة حتى التي حلم بها فإن لهذا الخوف منه أن يصدق
القارئ ما يرويه معنى ولا شك .

وقال في ص ٨٥ « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس
منقسمون بفطرتهم إلى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهذا
نظر فاسد فان في نفس القديس جرثومة الاجرام . . أي الناس
لم تحطر بباله خواطر الاجرام ولم يفرع مما يتحرك في نفسه من حشرات
الشر . : لقد مرت بي ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التي تدفع
المرء إلى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالمصحر
القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصخر الظمآن يليح له سراب الشر
(بضياته) فيريد أن يروي ظمأه وينقع غلته . : أنا اليوم برئء ولكن
ما يلدني ربما كنت في غد مجرمًا ربما تحركت عوامل الشر التي في
نفسي . . وكنت أشفق على المجرمين واملأ لهم قلبي رحمة فانه
لا يحزنني في الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التي يجلبها الاجرام للمجرمين .
لقد رأيت في الحلم مرة أنني جريمة القتل ثم وقفت أمام جثة
المقتول وقد احسست دواراً وصار العرق يتصبب على جسمي وكنت
أحس نجريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم في عروقي واسودت
الندنيا في عيني وكلما أردت أن أتنفس أحسست شيئاً يسد مجرى النفس

وكنّت أحس صوتاً كأنه صوت أعصابي تنقطع فيحكى صوت
تقطع أوتار العود وكنّت يحيل لي كأن يداً من جليد قد وضعت على
ظهري هذه هي الاحلام التي تمكن الأديب أن يعدم شخصه في أشخاص
غيره وان يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما
يرحم النعيس . »

وقال في ص ٦٢ « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم
الاحب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن
أنتحر فراراً من سلطان القضاء فأخذت سكيناً وأديتها من صدري
ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان أضرب نفسي الضربة
القاضية فلم تن على نفسي فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك
الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى حتى أفكر في طرق الانتحار
وأختار منها واحدة . »

وقد فكر في الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال في ص ٩٦
« اني لأزال أذكر ذلك اليوم النعس الذي لطمني فيه شقى
لم يكن يلدي مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن وأخاه
الحزم همسا في أذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى
منك فلا تصيبه الا ببعض ما يصيبك فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى
وان تنجو سليماً فوكت يدي إلى جانبي وأحسست أن روحي قد سلبت
أجل شيء فيها فنظرت إلى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة
والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامي قد احترقت ولم يبق
الا رمادها وخارت قواي وعرتني حيرة وشككت في الحياة فجعلت
أعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا في عيني وجعلت أنظر إلى المارين

وهم ينظرون إلى فارميههم بلحاظ المقت والكره لاني كنت أحسبهم
يسخرون بي ويعرفون ما حدث لي ويفهمون سر روحي التي أهينت
ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير رهممت أن أرمي نفسي
فيه ولكنني هزأت بنفسي تلك النفس التي تفر من اللطام إلى الحمام
ثم ذهبت إلى البيت . . . وخطر لي (أن أتأبط سكيناً أو مسدساً
وأنتقم من ذلك الشقي فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سميراي
ونصيحاي ألاحا لي بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض اسناني من
الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت في حالة من حالات (الجنون) أ.هـ .

على أنه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفككة بعقب هذه المرات
قال في ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت ان يبدأ اللطام بدأته به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر
منشياً عليه منها ولكنني خفت ان أفقأ عينه او أن اصيب احد اعضائه
بتلف دائم او ان تكون ضربتي هي القاضية فتعود بالطممة والعقاب
الشديد كل هذه الخواطر جالت في ذهني عندما سددت يدي لألطمه
ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديداً فمد إلى يده باللطام
ولكن يخيّل لي انه لم يخش ما خشيت من العقاب وإنما استنتجت ذلك
من وقع لطماته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء
كأنها قوس قرح »

* * *

وقلنا عن شكري انه ابكم فكأننا اخترعنا شيئاً وحسب البعض
 ممن يظنوننا نلقي القول على عواهنه ولانبالي اين وقع من الحقيقة اننا
 نستطيل بلساننا عليه مبالغة في ايجاعه وتنقصه والراية عليه ولهم العذر
 اذ ما ادراهم انه هو القائل في ص ٣٩ من الاعترافات :

« اني في خلوتي بنفسي أعد الكلام البليغ والحجج الراجعة
 والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجري بيني وبين الناس تكون كل
 كلمة من كلامي فيها آية من آيات البلاغة ولكني اذا لقيت هؤلاء
 وحادثتهم لم أجد في كلامي هذه الآيات البيّنات . ثم اذا خلوت
 بنفسي بعد ذلك أقول كان ينبغي أن أقول لهم كذا وكذا فينطلق
 لساني بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أي مزية في أن يكون المرء (عيياً)
 في المجالس فصيحاً في الخلوات ؟ ؟ وهذا سبب من اسباب انفرادي
 ووحلتي ويرى الناس (سكوتي) ووحلتي فيحسبون حياتي هادئة
 مطمئنة »

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون أو قليل
 الكلام في العادة بل هو داء قديم مستعص قال في صفحة ٤٧ من
 الاعترافات :

« لقد كنت في صغري كثير الحياء وكنت انظر إلى جرأة أترابي
 من الغلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم ،
 اذكر ان ابي زار بي صديقاً له من الفرنسيين وكنت صغير السن
 وكان لصاحب البيت ابن في عمري فجاء الغلام وصافحنا وحيانا

(بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون
إلي ويضحكون »

ولانظن بنا الآن حاجة إلى استقصاء « الجنون » في شعره بعد
اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل إلى اعماقه وأنه
يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء،
الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين وفي الناس كذابون حتى على
انفسهم ولكننا عاشرنا شكري أعواماً طويلة وخالطنا وبلوانه ولائراه
بالغ في شيء مما وصف به نفسه بل لعله أثر السكوت عن أشياء
يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسه . ولا يمكن ان يقال في الرد
علينا وفي تبرة شكري مما قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها
رجل آخر اسمه م . ن وان شكري ليس الا ناشر لها فان هذه الاعترافات
ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شيء الا ضمير المتكلم وقد
نشر شكري أكثرها « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على
أنها له ثم عاد فجمعها في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات
أبيات شعر كثيرة واردة في أثنائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف
وصاحب الايات هو شكري وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها
وقد يعين الجزء من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون إلى هذه الاعترافات
وتصديقها انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في الاعترافات ان
في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره « فقد أغرم
الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها إلى الخير والشر
دواع طويلة الاغفاء
وقان معترفاً انا اليوم بريء ولكني ربما كنت في غد مجرمًا ومن
شعره :

ربما شب بين جنبيك للشر
ضرام ما ان له من فناء
انت في اليوم واسع الجاه غض الـ
خير لذن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل
أبيض الطبع لم يشب بريء
ربما كنت في غد اشعث الطبع
ح ائيم الحصان جيم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو
طائر الضغن نائر الشحنةاء
وقلنا ان ذهنه مشغول بخاطر الاجرام والقتل وأوردنا نبأ من
اعتراقاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة
الغادرة » وهي قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :
وهي قد أفرغت لي السم في كوبي
وقامت تمر غير بعيد

ثم غافلتها وافرغت كوبي
فوق ماء بكويها متزور

ثم قلنا من الطعام بلاغا
وشربنا برءاً من التصريد

ثم جاء اليوم الحديد فنامت
زوجي الرود نومة المقبور

فعل السم فعله في حشاهما
ودهاهما من الردي بقيود

ومنها قصيدة عنوانها « ام اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها يبرر
هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو أيضاً جبان حتى
في مواطن « اللطام » :

أيها الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حادث مقدور

ان اما تعزي لها قتلت في
قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة » :

قد قبلتني قبلة مرة
كأنها من حمة العقرب

تتهش جامها لم يكن نهزة
 لشاحد الأتياب والمخالب
 لولا وميض الزأي يقتادني
 يعيذني من سفه الغضب (! !)
 جللتها بالسيف أحو به
 لئيب بلذنب رائع معجب
 وتأمل في هذه الايات همس « البين وأخيه الحزم » وكيف انه
 يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها
 يعلن المجرم .
 أطيلوا حياة الجارمين فانها
 حياة اذا سد المطامع عاقر
 لقد أخلفتهم بلغة العيش برها
 زمانا وحاجات الحياة غوادر
 فبئس حياة المرء والفقر عاكف
 عليه وأسباب الحياة جرائر
 هنا لك اني للفقير لعاذل
 وانني نه مما يعانيه عاذر
 كأن كل من يحرم يكون باعته الفقر والخصاصة ! وله عدا
 ذلك آيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه :

فلو كنت بين الناس ربا معززا
ونادوك أنسي فاتك النفس جارم
لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فما يغفر الزلات الا الاعاظم

وقوله :

رحمت أسعى كمصحر بان عنه ال
صاحب فردا ذا وحشة واطراح
أو كذى الجرم حين طال به السجن
يفضل الطريق عند السراح

وقوله :

كأن هموم المرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا
وفي اعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره :

يرى الناس ان النوم أم رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على الحلم اسياف نقمة
فاحلام نومي كالجحيم عذاب

وكم هدم من عزم صليب عذابها .
فليس إلى الخصال . القديم اياب
فلا تحسبن الشر يحى . بتوبة
وان غفر الجرم العظيم . متاب
يواقع كل الناس بالفكر بشرهم
وقد عابني أني جرئت وهابوا
وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه
وذاك حديث ما عليه عقاب
وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء وكذلك
فعل في هذه القصيدة :
ظمئنا فخلنا الشر في العيش منهلا
ولكن ورد الجارمين مراب
وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم ير فيه مأثماً :
وان بقلبي من جفائك (جنة)
فان رام يوماً قتلكم ما تأثما
فاسقي جنوني من دمائك جرعة
وهيهات يجدي القتل قلباً مكأما
إلى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تفصيله وما بقي من شك في ان
الرجل ممسوخ الطبيعة :

هذا هو شكري قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
وميو له ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في القطر
السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس، فهل بالغنا ؟ اللهم
لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع
أعوج والدهن مقلوب والعين تنظر إلى الحياة من منظار معكوس يريها
الأشياء عن غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

الفهرس

٥	محمد كامل الخطيب	— تقديم
١٣	أبراهيم عبد القادر المازني	— الشعر : غاياته ، ووسائله
٦١	أبراهيم عبد القادر المازني	— شعر حافظ
	عباس محمود العقاد	— الديوان ج١
١٣٥	أبراهيم عبد القادر المازني	
٢٢٥		— الديوان ج٢

۱۳۹۶/۲/ ۱۷ ر...

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الشعر

٢- كتب مدرسة الديوان

كانت مدرسة الديوان النقدية، أول اتجاه نقدي عربي في العصر الحديث قاد حركة التجديد في النقد الأدبي عموماً، والشعري خصوصاً، وقد بدأت هذه المدرسة أوائل هذا القرن بمجموعة من الكتب، ونصدها في هذا المجلد وهي:

- ١- الشعر: غاياته ووسائله (١٩١٥) - ابراهيم المازني
- ٢- شعر حافظ ١٩١٥ - ابراهيم المازني
- ٣- الديوان (جزءان) ١٩٢١ - ابراهيم المازني
- عباس محمود العقاد

بعد ذلك سيصدر في مجلد مستقل الكتابات والمقالات النقدية لمدرستي الاحياء، ثم الديوان التي كان ثورة على مدرسة الاحياء

قضايا وحوارات النهضة العربية

يشرف على السلسلة: محمد كامل الخطيب

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاصدار العربية ما يعادل

٤٥٠ ل.س.

سعر النسخة داخل المطبع

٢٢٥ ل.س.